يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

BELLA DONNA

بيلا دونا

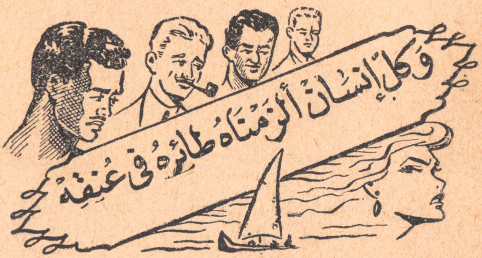
روبرت هتشنز

الجزء الثالث والأخير
من أشهر قصة عالمية
تجري وقائعها في مصر!



روبرت هيتشنز

بيلاّ دونّا



BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٢٠ صفحة

الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب السادس والعشرون

بيللا دونا

الجزء الثالث

تأليف : روبرت هيتشنز

ترجمة : شمس الدين الغرياني

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثلاثة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (جزءان) ، وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

هكذا بدأت القصة !

ملخص الجزءين السابقين

◆ شق الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن .. فقد أحاط حياته الخاصة بغموض تام ، وحرص على أن يقرن الطب بعلم النفس ، فكان يتغلغل الى أعماق نفس مريضه، مما أذاع صيته بين سيدات الطبقة الراقية فى لندن ، اللاتى يترددن على الاطباء لأتفه توعك ، ولو لم يكن بهن مرض !.. ويقال ان برجال اليهود بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لذلك استطاع الطبيب الشاب أن يفهم النساء بغريزته ، كما يفهمن بعضهن بعضا : كان كالنساء فى سرعة البديهة ، وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشىء أو النفور منه .. ومن هنا ندرك سر حكمه على « مسز تشبستو » حين زارته فى عيادته . فقد سبقتها سمعة وروايات وشائعات لم يكن يجهلها : كانت من أبدع ربات الجمال ، ولذلك أطلق عليها الناس اسم « بيللا دونا » ، أى « ست الحسن » .. وكانت من أسرة ارستقراطية مفلسة ، مما شجعها على أن تبيع نفسها ، اذ تزوجت – وهى فى الحادية والعشرين من عمرها – من تاجر خمور ثرى خلع عليها اسمه .. ثم فاجأها وهى تخونه مع رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين ، فطلقها أمام القضاء

وكانت مسز تشبستو – عندما حاقت بها هذه الفضيحة – فى السادسة والعشرين ، وفى ذروة جمالها ، فتحدت المجتمع ، ولم تحفل بشىء سوى الوصول الى المال وتبديده على حبها للترف والبذخ .. وهكذا عاشت متحررة ، غير مكترثة لما أحاطها به المجتمع من شبهات . حتى اذا شارفت الاربعين من عمرها ، بدأت أضواء حسنها تخبو رويدا ، وأصبحت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان !.. وبدأ الناس يسخرون منها ويزدرونها .. وما لبث الكلال أن تسرب الى نفسها وجسدها . وهذا – بوجه خاص – ما أدركه الدكتور ايزاكسون حين زارته فى عيادته .. ولكنه أدرك ، من

نظراتها وحديثها ، شيئا أهم ٠٠ أدرك قوة شخصيتها ، ودهاء أنوثتها ، ومدى تغلب حبها للمادة - فى نفسها - على كل ما يمت للروح وللمبادىء الخلقية !

على ان الطبيب الشاب ازداد ادراكا لكل هذا ، عندما تبين أن الغانية قد ألقت شباكها على صديق له كان الوارث الوحيد للقب « لورد » ولأملاك شاسعة استأثر بها شقيقه الاكبر - حسب قانون الوراثة الانجليزى - ولكنه لم ينجب ولدا يخلفه ٠٠ وكان ذلك الصديق « نيجل ارماين » ، شابا فى السادسة والثلاثين ، نقى القلب ، صافى العواطف ، يؤمن بالمثل الروحية والمبادىء الخلقية ويقدمها على كل شىء ٠٠ وقد كرس جهوده لاستصلاح الأراضى فى صحراء (الفيوم) بمصر !

★ ★ ★

◆ ولم تجد جهود الدكتور « ايزاكسون » فى انقاذ « ارماين » من براثن الغانية ٠٠ فان سذاجة الشاب وطيبة قلبه جعلتاه يشفق عليها من قسوة المجتمع ، ويأخذ على عاتقه عبء حمايتها من هذه القسوة ، مبررا ذلك -لنفسه- بأنه كان يوقن ان الحب كفيل باصلاح النفوس ، ويؤمن بانتصار الخير على الشر ، وان زواجه من الأرملة المفسودة ، التى كانت تكبره سنا ، سيوقظ الخير فى نفسها ، ويصلح من شخصيتها ، ويجعل منها امرأة طيبة صالحة !

وهكذا تزوج « نيجل » من « مسز تشبستو » - فأصبحت مسز ارماين - ورحل بها الى مصر ٠ وقبل ان يستقر بها المقام ، كانت قد كرهت البلاد التى أقصتها عن المجتمع الانجليزى وأضوائه ، وكانت قد بدأت تميل الى شاب أسمر التقت به على سطح الباخرة أثناء قدومها ، ثم قابلته فى الاقصر ، فعلمت انه من أب مصرى وأم يونانية ، وانه كان واسع الثراء ، يعيش فى بذخ مفرط

ولم تستطع روحانية الشرق أن تؤثر فىّ نفس « روبى » - مسز ارماين - ولكن جو مصر الحار أيقظ نزواتها وشهواتها ٠ ثم أقبل نبأ بأن شقيق « نيجل » قد أنجب توأمين ذكرين ، وبذلك تبدد حلمها فى أن يفوز زوجها بلقب « اللورد » وبالثروة ، وهما السلاحان اللذان كانت تطمع فى ان تحارب بهما المجتمع اللندنى لتثأر لنفسها مما تمرغت فيه من هوان ٠٠ فأيقظ هذا النبأ - بدوره - جشعها المادى ٠ ومن ثم شرعت مسز ارماين توجه اهتمامها

الى « محمود بارودى » ـ الشاب المصرى ـ طمعا فى أن تسيطر عليه ، فتستغل مكانته وثروته فى ارضاء مطامعها ، وفى اشباع نهمها الى الترف والبذخ !

وفى ذات يوم ، دعاها « بارودى » وزوجها لزيارة « دهبيته » النيلية ـ التى كان يدعوها « اللولية » ـ فبهرها ما شاهدت من خدم واثاث ونعيم ٠٠ ولفتت بصرها لوحة كتبت عليها آية قرآنية : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، فراحت تحدق فى الكلمات السحرية مبهوتة ٠٠ ثم رأت مخدع « بارودى » ، وحجرة كان يخصصها لخلواته و « مزاجه » ، فتمنت ان تقضى فى هذه الحجرة فترة وهى وحيدة ، ومن ثم تركها زوجها ومضيفهما ، وأغلقا باب الحجرة ، فسادت الظلمة المكان ٠٠ واستلقت الغانية الانجليزية على أريكة وثيرة ، ثم تركت لخيالها العنان ، فصور لها انها امرأة شرقية ، تعيش فى حريم رجل ثرى ، يمتلكها روحا وجسدا ٠٠ لقد لبثت سنين طويلة تستعبد الرجال ، ولكنها تاقت اذ ذاك الى رجل يستعبدها !٠٠ الى « بارودى » بالذات !٠٠ وكانت توقن ان بارودى سيكون قاسيا فى غرامه ، وانه لن يخضع نفسه لامرأة ٠٠ ومع ذلك فان نفسها هفت الى ان تكون جاريته ، وان تعيش فى حريمه ، وتتقلب فى ثرائه ونعيمه !

★ ★ ★

♦ وتدلهت مسز ارماين فى هوى الشاب المصرى « محمود بارودى » ، الذى كان ينحدر من أب تركى الأصل وأم يونانية ٠٠ واذا كان مولد توأمى لورد هارويتش ـ شقيق زوجها ـ قد حرمها من الأمل فى أن تغدو يوما « مركيزة » أو « كونتة » ، وان تنتقم لكرامتها من المجتمع الانجليزى الذى ازدراها فى ترديها ـ قبل زواجها من نيجل ارماين ـ فقد رأت ان تستعيض عن ذلك النصر بحياة توافق ميولها الخاصة ٠٠ حياة تستجيب فيها لنداء البدن ، وللأطماع المادية !٠٠ ولم يكن من سبيل الى ذلك مع « نيجل » ٠٠ ولا سبيل اليه أيضا مع « بارودى » مادام « نيجل » على قيد الوجود ٠ ولكنها لم تعد تقوى على التحول عن « بارودى » الذى أخذت توافيه فى لقاءات سرية يقودها اليها خادمها ابراهيم والمكارى حمزة ، اللذان تبينت أنهما كانا من صنائع الشاب الشرقى الداهية ٠٠ قط ما كانت تتصور انه ما زال فى أعماقها مثل هذا الاستعداد القوى للتأثر بالعواطف والنزوات الضارية !٠٠ وكانت تشعر كأنها فراشة حبيسة شبكة من نسج بارودى ٠٠ والقدر ! ولكن بارودى لم يطلعها قط على ما كان يدبر ، فقد كان من رأيه أن الرجل الشرقى لا يجب

ان يطلع النســاء على أسراره ٠ على انه حملهـا على أن تتخلص من وصيفتها الفرنسية ، ثم ان تغرى زوجهـــا على استئجار « اللولية » ـ دهبية بارودى الرائعة ـ والانطلاق فى نزهة طويلة على النيل

وفجأة ، مرض « نيجل » ٠٠ وقيل انه أصيب بضربة شمس ، ولكن الدكتور « ماير ايزاكسون » شــعر بشىء من القلق ٠٠ ورابه ان « نيجل » كان قد كتب اليه قبل ذلك مباشرة يؤكد له سعادته ، ويضرب الأمثلة على وفاء زوجته ٠٠ وكان من هذه الأمثلة ان مسز ارماين قد طردت وصيفتها الفرنسية !٠٠ فلمـــاذا ، وكيف ٠٠ وهى التى لم تســـتغن من قبل ـ فى حياتهـــا ـ عن وصيفة ؟٠٠ ثم ، ما هذا المرض الذى بلغه انه أوهن نيجل الى حد كبير ؟

وبدأ « ايزاكسون » يشعر برغبة قوية فى السفر الى مصر !

.. ..

والآن ٠٠ تعال نقرأ معا القسم الأخير من هذه القصة « الضخمة » :

———

بيلا دونا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز"، مؤلف حديقة الله

الجزء الثالث والأخير



تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون أى تصرف أو اختصار لأى سطر أو لفظ فيها !

المترجم

الفصل الثامن والعشرون



• **كان** اليوم التالى يوم الأحد ، فلم يكن ماير ايزاكسون مقيدا بمرضى أو بمواعيد ، اذ كان يستبقى هذا اليوم متعمدا ليدرس عددا من الخطابات ويجيب عليها .. كان يدفع ضريبة نجاحه العظيم ، فقد غدا واحدا من أكثر الناس عملا فى لندن . وكان فى بداية العام الجديد قد نبذ قاعدته التى ظلت حتى ذلك الحين محترمة ، فأصبح يستقبل مرضاه حتى الساعة السابعة والنصف ، فى معظم الأيام ، وقل تناوله العشاء خارج منزله .. ونادرا ما كان يرى فى الحفلات الموسيقية أو المسارح .. كان النجاح أشبه بوحش هائل أطبق عليه قبضته وحرمه من كل لهو أو متعة فى الحياة ، فقد أخذ عمله يزداد مشقة ، وراحت مكاسبه تتضاعف ، ومضى يرتفع قدما الى قمة مطامعه !.. فدعى – منذ عهد غير بعيد – الى البلاط الملكى للمرة الأولى فى حياته ، حيث نال الاطراء على خدماته الفنية وعلى شخصيته نفسها ، وأصبح المستقبل يكفل له – بلا ريب – لقبا من ألقاب النبل .. وتسابقت أرفع طبقة فى المجتمع

الى استشارته .. أجل ، لقد ارتفع درجات منذ سفر آل ارماين. وكانت رغبته القوية فى «الوصول» — وكان «الوصول» فى رأيه يعنى أكثر بكثير مما يعنيه فى رأى معظم الرجال — ومتعته الجارفة فى أن يضاعف ثروته، تدفعانه باطراد الى الأمام!..

وكان فى سويعات فراغه القليلة يعكف فى دأب وأناة على تأليف كتاب عن السموم ، الكتاب الذى كان يعد عناصره فى ايطاليا خلال أجازته الماضية .. وكان ينوى أن يكرس له بضع ساعات فى هذا الأحد ، ولكنه كان مضطرا الى أن « يخلص » من خطاباته المكدسة أولا

وما ان فرغ من تناول افطاره — فى سرعة — حتى اعتكف فى حجرة مكتبه . وكانت لندن تبدو ساكنة الى حد غريب .. كان المرء — حتى بين هذه الجدران الأربعة ، ودون القاء نظرة على العالم الخارجى — يشعر بأن اليوم يوم أحد ، ويشعر كذلك بأن الناس جميعا قد خرجوا من المدينة .. وكانت تخيم على العاصمة الساكنة غلالة من غيوم سنجابية اللون . فأضاء ايزاكسون النور الكهربائى ، ووقف أمام النار لحظة ، ما لبث بعدها أن ذهب الى مكتبه .. وكانت الخطابات التى يعتزم الرد عليها مرتبة فى كومة واحدة ، الى يمين حافظة النشاف ، وقد وصل عدد منها — بل معظمها — من أناس يرغبون فى استشارته ، أو من مرضى يكتبون له عن احوالهم .. ولكنها كانت تعنى المزيد من المال .. وكان بعضها مما يرد عليه ببطاقة مطبوعة ، ليس عليه الا أن يضيف اليها اسما وتاريخا ، فكان لذلك عملا رتيبا ، متصلا ، أخذ الطبيب يؤديه فى سرعة وخفة .. كان حشوا لبضع ساعات من حياته يجدها دانية فى متناول يده !.. وجلس فى مقعده ، وتناول حزمة من الاستمارات المطبوعة وقلما ، وضعهما أمامه ، ثم فتح واحدا من الخطابات فاذا فيه :

« ٤ شارع مانتون ــ مايفير
« .. يناير
« عزيزى الدكتور ايزاكسون : ان صحتى ... الخ ، الخ . »
ثم فض خطابا آخر ، فاذا فيه :
« ٢٠ . . بارك لين
« .. يناير
« عزيزى الدكتور ايزاكسون : لست أدرى ماذا دهانى ، ولكن ... الخ ، الخ . »
وتناول ثالثا فوجد فيه :
« ١ . س ــ ميدان بركلى
« .. يناير
« عزيزى الدكتور ايزاكسون : ان ذلك الشعور الغريب الذى كنت أحس به فى رأسى ، قد عاودنى من جديد ، وبودى أن أراك بشأنه ... الخ ، الخ . »

★ ★ ★

• **وكان** من عادته ان يجيب على مثل هذه الخطابات بنشاط وحمية ، دون برم أو نفور طبعا !.. كانت كلها من الخطابات التى يريدها ، وقلما كان يستكثرها !.. ولكنه اليوم أحس بشىء من السأم والكلال ، بل ماهو أكثر من السأم والكلال .. انه نوع من حدة الطبع وضيق الخلق والثورة على الحياة التى اختارها لنفسه والتى كان يلقى فيها نجاحا عجيبا !.. المرض ، والمرض دائما : الوجوه المتقعة الشاحبة ، والأعصاب المختلة ، وعسر الهضم ، والكآبة والانقباض ، وفقر الدم .. كل هذه الجحافل من الأمراض التى تكرب الانسانية كانت تتوافد دائما على حجرته .. يالها من صحبة يضطر اليها انسان ! .. يالها من صحبة حقا !.. وما لبث أن أزاح الأوراق من أمامه بغتة ، ووضع قلمه ، ثم نهض قائما .. وكان يعلم حق العلم ما الذى

شغل باله !.. انه ذلك الخطاب الذى تلقاه من النيل ! .. لقد أزعجه ـ فى بادىء الأمر ـ من ناحية واحدة ، ولكنه الآن يزعجه من ناحية أخرى .. **كان الخطاب نداء له من أرض يعرف أنه لا بد أن يحبها .. نداء من مكانه الطبيعي ، فقد كان أجداده من يهود الشرق ، بل ان بعضا منهم كان يقيم فى القاهرة .. كان نداء من أرض الشمس المشرقة .. انه ليذكر الآن ليلة كان يتحدث فيها مع نيجل عن مصر ، فقال نيجل : « يجب ان تذهب الى هناك .. انك ستكون فى مكانك الطبيعى هناك ! »**

فماذا لو أنه ذهب الى هناك ؟.. ماذا لو أنه ذهب فى أقرب فرصة .. بل حالا ، فى هذا الربيع ؟

ولكن كيف يستطيع أن يترك عمله فى الربيع ، وهو الفصل الذى يعود فيه كل امرىء الى المدينة بعد موسم الأجازات ؟.. وأجاب بنفسه عن هذا السؤال مسفها حيرته ، فالناس فى الربيع يذهبون الى الخارج : الى الهند ، الى صقلية ، الى الريفيرا ، الى النيل .. آه ! هاهو ذا يعود الى النيل من جديد ! .. ولكن كثيرا من الناس لا يرحلون الى الخارج . وقد يكون من الجنون لطبيب راق أن يرحل بعيدا ، عند حلول الموسم بالذات .. حسنا .. انه مع ذلك يستطيع أن يرحل لفترة قصيرة .. اسبوعين مثلا ، أو شيئا من هذا القبيل .. ليلتين من لندن الى نابولى .. وليلتين فى البحر باحدى البواخر الجديدة السريعة .. « هليوبوليس » مثلا .. ثم ساعات قليلة فى القطار ، واذا به فى القاهرة ! .. وستحمله رحلة خمس ليال الى الشلال الأول .. وسيكون وقتئذ فى غمرة الضياء الحقيقى!

وراح يحدق النظر فى المصابيح الكهربائية التى تتألق على جانبى المدفأة ، ثم انثنى ينظر صوب النوافذ ... تلك المستطيلات الجامدة التى تشرف على الضباب وظلمة النهار ! .. **الا ما أطيب هذا الأمر !** .. ما أطيب أن يكون المرء فى غمرة الضياء الحق !

وكان خطاب نيجل موضوعا فى مكان ما تحت خطابات المرضى ، فعاد الطبيب الى مكتبه وبحث عنه حتى وجده .. ثم رجع الى المدفأة ثانية وأخذ يدرس الخطاب من جديد : « هل تذكر عودتنا سيرا على الأقدام الى منزلك بعد الحفلة الموسيقية فى تلك الليلة ، وكيف أننى قلت : « شد ما أود أن أذهب الى النور .. النور الحقيقى » ؟ .. حسنا ، اننى فى غمرته الآن .. وشد ما أود لو تستطيع أنت وكل انسان غيرك أن يأتى اليه أيضا ! .. تعال الى النيل عندما تأخذ الأجازة المقبلة » ! .. ان ذلك يكاد أن يكون دعوة له للذهاب .. ليست دعوة تماما ، ولكنها تكاد أن تكون كذلك ! .. وخيل الى ايزاكسون انه قد حدس ان الرجل الذى كتب ذلك كان يتمنى أن يحضر صديقه ليشهد بنفسه دلائل سعادته ، ولكنه لم يجرؤ تماما على ان يسأله الحضور صراحة ، لأنه ـ كما خيل اليه ـ كان يوجس من ذلك التأثير المعادى له ـ أى لايزاكسون ـ والذى كان الكاتب خاضعا لسلطان صاحبته ، مما منع قلمه من الانطلاق ، وقيد عقاله !

« ترى هل تعرف هى بأمر هذا الخطاب ؟ » .. خطر هذا السؤال ببال ايزاكسون .. كانت كلمات الخطاب الاخيرة تشير ضمنا الى أنها كانت تعرف به ، وقد كان فى نية نيجل أن يخبرها عنه ، ولا بد انه اخبرها عنه فى ذات اليوم الذى كتبه فيه .. ولو أن ايزاكسون ذهب الى النيل ، لوجد على النهر شخصا لا يمكن أن يرحب بمقدمه ! .. كان يعرف ذلك جيدا ! .. بل لعل نيجل نفسه لم يكن يود ذهابه حقا ، فان السعداء من الناس لا يودون ان يحضر اصدقاؤهم من الخارج ليقتحموا الدائرة السحرية ويقاسموهم سعادتهم ! .. ولربما طلبوا اليهم ذلك بدافع من الطيبة والمجاملة ، بل لقد يخيل اليهم أنهم يتمنون حضور هؤلاء الأصدقاء ، بدافع من الحماس الوقتى .. ولكن السعادة الحقة انما تجد لذتها فى ان تكون مانعة ، وأن تكون

منطوية على لذاذاتها !

« ان ارماين يود أن أذهب لأرى أن كل شيء على ما يرام .. وعندئذ ، عندما أكون قد رأيت ذلك ، فسوف يتمنى أن يركلنى بقدمه خارجا » .. وعلى هـذا النحـو من التفكير ، لخص ايزاكسون شعور نيجل الحقيقى حيـاله فى تلك اللحظة . . وما كان ذلك ليستحق ان يتجشم عناء الرحلة من انجلترا ليرضى مثل هذه النزوة لدى الاناني السعيد ! .. من الخير ان ينحى الفكرة جانبا ، فقد كانت فكرة غير عملية .. و .. « وفضلا عن ذلك فانها فكرة مستحيلة ، لا ينبغى التفكير فيها »

وعند هذا الحد عاد الطبيب الى مكتبه ، وبدا يجيب فى عزم راسخ على خطاباته ، ويحدد المواعيد لأصحابها .. وظل يكتب ويكتب حتى فرغ من الرد على جميع الخطابات .. عليها جميعها عدا خطاب نيجل أرماين ! .. وعندئذ عاودته من جديد تلك الرغبة القوية فى أن يجيب على هذا الخطاب بشخصه . . أن يظهر ذات صباح على ضفة النهر حيث ترسو تلك الـ .. ترى ما اسمهـا ؟ . . آه ! .. « اللوليـة » ، وان يصعد الى سطحها فيقول : « اننى أهنئكما على سعـادتمـا » ! . . لشد ما ستكون دهشة صديقه وذهوله ! ولكن .. غريمته .. ترى كيف يكون شكل وجهها عندئذ ؟

لقـد كان ايزاكسون يعـد مسـز أرماين غريمـة له ؛ اذ أقحمت نفسها على حياته لتتجسس عليه .. وقد أحس أنها منذ اللحظة الأولى .. منذ أن رأته ، قد كرهته ! .. ولقـد انتصرت عليه ، وهى تعرف ذلك . ولكن ، لعلها الآن – وبسبب علمها بذلك – تحاول أن تحبه قليلا ، ما دامت قد ربحت قضيتها ضده ! .. ولكن هل ربحتها حقا ، لاسيما وقد رزق لورد هارويتش وريثا ؟

وفيما كان ماير ايزاكسون يجلس وأمامه خطاب نيجل ، انبعث فى أعماقه فضول حاد قوى .. لم يكن فضولا من النوع

المبتذل العادى ، وانما كان ذلك الفضول الذى يستشعره العالم النفسانى نحو الطبائع البشرية الغريبة ! .. فمنذ أن غادر آل أرماين لندن ، وعلم بزواجهما ، كان ايزاكسون كثير التفكير فيهما ، ولكنه كان تفكيرا غامضا مبهما .. كما يفكر المرء فى أناس خرجوا من دائرة حياته لوقت ما ، فقد كان عليه أن يركز تفكيره فى أعماله الخاصة .. أما الآن ، بعد هذا الخطاب ، فعلى الرغم من المسافة الشاسعة التى كانت تفصله عنهما ، الا أنهما كانا يبدوان قريبين منه تماما!.. وانبثقت فى ذهنه كل ذكرياته عن علاقته بهما .. ذكريات مليئة بالحياة ، تكاد أن تكون ضارية صارخة ... وذكر بوجه خاص تلك المرأة البارعة ، واستدارة وجهها الجميل، والنظرة التى تلوح فى عينيها فتناقض الصورة الرائعة لجانب محياها ، وابتسامتها الساخرة ، والرنين الساحر الذى يتردد فى صوتها المتراخى .. كما ذكر زيارتيه لها ، وكيف كانت تتحداه فى الخفاء ! .. واستعاد فى ذاكرته – فى وضوح وجلاء – تلك الهيئة التى بدت عليها عندما كان يودعها فى المرة الأخيرة ، قبل أن تتزوج من نيجل بثمانية أيام . كانت وقتئذ تقف بجوار المدفأة ، فى ثوبها الوردى ، وحلقات دخان السجاير تدور حولها وتحلق فوقها .. وكانت تبدو جميلة فاتنة فى انتصارها الخفى .. ولكنه وهو يمضى خارجا ، لاحظ تلك الغضون الخفيفة التى كانت حول عينيها ، وذلك الجفاف الطفيف الذى كان يكسو وجنتيها ، وذلك الذبول المجونى الذى كان يلم بركنى فمها !

وكان قد ذكر هذه الأشياء كلها عند ما علم بزواجهما ، وعندئذ توقع الكارثة !

* * *

• **وأخذ** يتحسس خطاب نيجل ، ثم تناول قلمــــه ليجيب عليه .. اذ أنه لم يكن ثمة مناص من ايفاد رسول عنه،

ما دام لن يقوى على أن يجيب بشخصه فيفاجىء صديقه بزيارته !.. على أن السكون الموحش الذى خيم على لندن فى ذلك الأحد أكربه وضايقه .. وألفى نفسه يرهف السمع فى شيء من القلق ، وكأن هذا السكون ضجيج عال خيل اليه أنه مضطر الى مكافحته قبل أن يقوى على الكتابة الى نيجل فى صدق واخلاص . فقد كان فى هذا السكون المظلم ، المليء بالضباب ، شيء يكاد يشل الحواس !

ترى لماذا كان يكدس الأموال ، ويتشبث بالشهرة ، ويسلم نفسه للسجن بين جدران مسكنه ، فى هذه المدينة المحرومة من الشمس ؟ ولماذا كان يجيع حبه للمال ، وحبه الغريزى للمغامرة ، وشعوره السريع بالانسياق للخيال ؟!.. ولكن ، ألا يزال هذا الشعور سريع الاستجابة ؟.. ان الأهواء التى لا تلقى تشجيعا ، لا تلبث ان تتلاشى ويقضى عليها احيانا !.. ولقد كان فى الواقع يجيع الكثير من أهواء نفسه ، عن عمد واصرار! .. **وعاودته الرغبة فى أن يخلى السبيل لاحدى رغباته القوية ، وأن ينسى – للمرة الأولى – أنه رجل يعيش تحت نير نظام صارم فرضته عليه عزيمته الصلبة .. أو أن يثور على هذا النظام!..وبدت أفكاره– للحظة وجيزة– أشبه بأفكار واحد من صبية المدارس .. ألا ما أجمل ذلك حقا !** ما أجمل أن يعد حقائبه فى عجلة ، وأن يقول لخادمه هنرى ، الذى ستعقل الدهشة لسانه : « أطلب لى عربة كبيرة ! » .. ثم يستقل العربة الى (شارنج كروس) .. ويلى ذلك شحن الأمتعة ، ثم ركوب القطار السريع مجتازا المناظر المطيرة ، ثم يمتد امامه البحر السنجابى الى ... وها هى ذى نابولى. ثم بحر أزرق ، وجبال (كريت) ، وسفوح (زانتى) الحديدية .. واخيرا ميناءضاحكة، بها زوارق ذات قلوع مثلثة منتفخة، يقودها رجال سمر معممون .. ثم تلك البيوت البيضاء ؛ ذات الأسقف المنبسطة ، ثم .. النخيل . لسوف يكون ذلك

جميلا ! سيكون رائعا فاتنا !.. ولو أنه رد على خطاب نيجل ، فلن يستجيب لتلك الرغبة قط .. أما اذا لم يجب عليه ..؟!

وبعد تردد طويل ، نحى الخطاب جانبا ، ثم أخرج من أحد الأدراج مخطوطات الكتاب الذى كان يؤلفه ، وبدأ يعد نفسه للعمل . وسرعان ما نسى أن اليوم من أيام الآحاد فى لندن ، بل انه نسى كل شيء عدا انه كان منصرفا الى العمل . ولكنه فى المساء ، وبينما كان يتناول العشاء بمفرده ، عاوده ذلك الحنين الى السفر . وعلى الرغم من أنه قال لنفسه انه لن يستسلم لهذا الحنين ، فانه لم يجب على خطاب نيجل .. ومع أنه كان يشعر بأنه بعدم الاجابة عليه انما يدع الباب مفتوحا امام متعته المحتملة ، الا انه لم يجب على هذا الخطاب قط !

وراحت الأيام تمر تباعا ، وراح هو يعمل فى نشاط جبار لا يلين ولا يسترخي . وكان يبدو شديد العناية بمرضاه ، شديد الاهتمام بشئونهم ، مثلما كان فى الماضى . ولكن ذهنه ظل ـ طيلة جلوسه فى حجرة الاستشارة، واصغائه الى وصف الأعراض ، وتقديمه النصائح والوصفات ـ يداعب فكرة الحصول على عطلة فى هذا الربيع ، يقضيها فى مصر !.. وكان ذا خيال حار شديد التحمس ، وان كان يحرص عادة على كبح جماحه . على انه أخذ الآن يطلق له العنان .. **ففى أشد الأيام حلكة ، كان يرى نفسه فى ضوء الشمس الساطع ! وكان اذا نظر الى الأشجار العارية المجردة ـ فى الحدائق ـ تمثلها وقد تبدلت فى لحظة واحدة الى نخيل أثقلتها الثمار .. بل انه كان يسمع الرياح الخفيفة وهى تداعب سعفها ! كان يخال اذ ذاك أنها تتحدث اليه من جوف الصحراء !** .. وما أذاقه خياله من قبل مثل هذه المتعة الواضحة الملموسة .. فهل ارتد طفلا صغيرا من جديد ؟ انه ليكاد يخال ذلك !.. آه لو عرف مرضاه حقيقة ما كان يعتمل فى نفس الرجل الذى

كانوا يرجون أن يقودهم الى الصحة ! آه لو علموا بشطحات خياله وهم يبوحون له بأمانيهم وهمومهم ! ولكن وجهه كان جامدا لا ينم عن شيء . . لم يكن يصيح فى وجوههم : « أننى الآن فى مصر ! » ، ومن ثم لم يخالجهم الانزعاج قط .

* * *

• **وتسلل** فبراير موليا أعقابه . ولو أن ايزاكسون كان قد عقد النية على الذهاب الى مصر بالفعل ، لما وجب أن يؤخر سفره .. فهل كان ينتوى الذهاب ؟.. لقد ظل طويلا وهو يتمثل هذا الحلم البهيج .. حلم الرحيل الى الشمس ، بحيث بدأ يقول لنفسه انه قد لقى ـ فى خياله ـ المتعة التى كان ينشدها ، وأن عليه الآن أن يقر فى مكانه راضيا مرضيا ! بل انه حدث نفسه بتلك الأكذوبة الشائعة التى تؤكد أن التفكير فى الشيء أوفر متعة مما يمكن أن يكون عليه الشيء نفسه ، ومن ثم فان مصر الحقيقية سوف تبعث فى نفسه شيئا من خيبة الأمل ، بعد مصر التى تخيلها فى أحلام الشتاء التى كانت تراوده ! وعندئذ استقر عزمه على ألا يذهب ، بل اقتنع بأنه لم يكن ينتوى الذهاب قط !

وفى اليوم الذى اتخذ فيه قراره هذا ، تلقى خطابا من احدى مريضاته ، وكان قد بعث بها لتقضى الشتاء فى ربوع النيل ، فكتبت اليه من (الأقصر) تخبره ببعض التفصيلات عن حالتها . وأخذ يقرأ خطابها فى عناية وتمهل . وقبل أن يبلغ ختام حديثها ـ الذى كانت تسوده روح الدعابة والهزل ـ انطلقت السيدة فى الثرثرة ورواية بعض الفضائح الصغيرة التى صادفتها بالفنادق المختلفة، ثم اختتمت خطابها بهذه الفقرة :

« وقد أثار وصول دهبية رائعة ـ تسمى اللولية ـ الى هنا ، ضجة شديدة .. فهى ، كما علمت ، أجمل مركب

على النيل ، ويتوق كل انسان هنا الى الصعود عليها . ولكن ليست هناك أية فرصة لأحد منا كى يفعــل ذلك ، لأنها — أولا — ترسو على الضفة الغربية للنهر .. الضفة التى تقع بها طيبة . ولأنها ، ثانيا ، مؤجرة طيلة الموسم لنيجل ارماين وزوجته ! **ولا شك أنك تذكر أن مسز ارماين هى التى كانت تدعى مسز تشبستو ، وانها لذلك منبوذة منــا تماما .. ولعلها وقد تزوجت الآن ثانية تظن أن فى وسعها أن تختلط بالناس ، ولكنها لن تجد من يرحب بها مطلقا !** .. ولربما كان ذلك ممكنا لو أن الحظ قدر له أن يواتيها يوما ، فتصبح « ليدى هارويتش » ، لان مركزا عظيما كهذا قد يدعو الناس الى تعـديل افكارهم ، لا سيما وان المرأة قد تزوجت الآن . ولـكن من العبث الحـديث فى هـذا الشـأن الآن ، اذ وجـه التوأمان — اللذان رزقهمـا لورد هارويتش — ضربة قاضية الى مثل هذا الاحتمال . ويقال انها جنت غضبا عندما سمعت بهـذا النبأ . ويبـدو ان زوجهـا لم يكن قد أشـار الى هذا الأمر — تصريحا أو تلميحا — قبل الزواج . فياله من رجل عاقل ! لابد أنه كان يعـرف صـاحبته مسز تشبستو تماما !.. ومهما يكن من أمر، فمن الواجب ان نعطى الشيطان حقه ! لذلك أذكر أننى سمعت أنها تبدو شديدة الاهتمام بزوجها . **وقد لمحته لحظة — منذ أيام ، وكنت أعبر النهر فى طريقى الى مقابر الملوك — فكان يبدو فى أشد حالات المرض ، كما كان وجهه شاحبا بدرجة غير مألوفة ، أو هكذا خيل الى ! أما هى فلم أرها ، ولكن يقال انها تبدو أصغر سنا مما كانت عليه فى أى يوم ، وأشد فتنة وجمالا مما كانت فى لندن . ولا ريب أن الزواج يلائمها ، ولو أنه يبدو غير ملائم له هو .. » الخ . الخ .**

وصل هذا الخطاب فى بريد المساء ، فقرأه ايزاكسون بعد أن فرغ من عمله اليومى .. وما أن أتم تلاوته ، حتى أخرج

من أحد الأدراج خطـــاب نيجل ـ الذى كان محتفظا به ـ وأخذ يقارن بين الخطابين .. ولم يكن من الضرورى أن يفعل ذلك ، فقد كانت كلمات نيجل منقوشة فى ذاكرته ، دون أن أن يدرى لذلك سببا أو تعليلا !.. وأحدثت رؤية الخطابين ـ جنبا الى جنب ـ فى نفسه أثرا قويا بغيضا . ولعله ، وهو يقارن بينهما على هذا النحـــو ، كان يبحث فى غير وعى أو شعور عن هذا الأثر !

« ما كنت قط من قبل طول حياتى فى مثل هـــذه الصحة الرائعـــة »

« .. كان يبدو فى أشد حالات المرض ، كما كان وجهـــه شاحبا بدرجة غير مألوفة »

فما الذى حدث بين كتابة الخطاب الأول وكتابة الخطـــاب الاخير .. خطاب نيجل ، وخطاب المريضة ؟ ما الذى احدث هذا التغيير ؟ .. وما لبث ايزاكسون ـ بعد دقائق ـ أن أودع الخطابين درج مكتبـــه ، ثم أغلقه فى رفق .. وكان قد تناول طعام العشاء ، وأصبح الليل ملكا خالصا له ، فأمر بأن يؤتى اليه بنرجيلته ، كما أخبر هنرى بأنه لا يود أن يزعجه أحد !

ولم يكن ـ منذ تلك الليلة من ليالى الخريف ، عندما قال له نيجل عن مسز تشبستو : « انها تتحدث عن الحضـــور الى مصر فى الشتاء » ـ قد تناول بيده ذلك الخرطوم الطويل الشبيه بالأفعى .. فلم يكن يلجأ الى النرجيلة الا عندما يكون عقله متيقظا بصفة خاصة .. عندما ينبض بالحيوية والانفعال ، وعندما يريد هو أن يدفع هذه الحيوية الى أقصى حدودها .. **عندئذ كانت يداه وشفتاه تحسان بالحاجة اليها ، بل ان عينيه كانتا تحتاجان اليها كذلك !.. كانت أنفاس الشرق تتردد فيه ، فتحرك الغـــرائز الموروثة ، والاحتياجات الموروثة ، وتبعث فيها الحياة .. وأطفأ الأنوار الكهربائية كلها ، وجلس فى وهج النار الخافت ، ثم تناول مرة ثانية ـ وفى شوق بالغ ـ**

خرطوم النرجيلة الأفعوانى بين يديه ، وأخذت المياه تقرقر فى « الجوزة » . . وكانت رئتاه تمتلئان بدخان « التمباك » اللذيذ ، ولا يلبث أن ينفثه من خياشيمه فى سحب متكاثفة !.. كانت لندن لاتنام ، وهو جالس فى مكانه لا يتحرك .. وكان نشاط عقله الزاخر الدؤوب يكاد ينطلق من عينيه المتألقتين ، ولكن لم يكن ثمة أحد ليرقبه .. لم يكن معه ثمة أحد ليعجب به أو يخشاه !

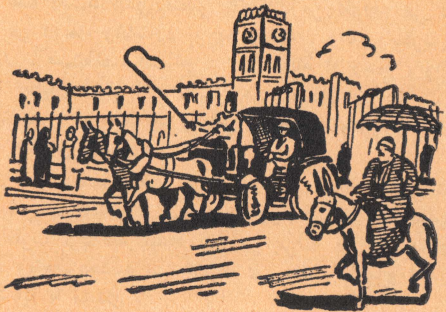
واخيراً ، وفى أعمق أعماق الليل ، نهض عن مقعده ، ثم جلس أمام مكتبه وأخذ يعمل حتى كاد الصبح أن يتنفس .. راح يكتب خطابات اعتذار للمرضى ، الذين كان يبحث عن أسمائهم فى دفتر مواعيده ، ويبحث عن عناوينهم فى الدليل أو فى الخطابات التى احتفظ بها منهم .. ومضى يدون حساباته ، ويدرس حسابه فى المصرف ، ويكتب الى مصرفه وسمساره ، والى المستشفيات التى كان متصلا بها ، والى الجمعيات الخيرية التى كان يتردد عليها .. وظل يقوم بهذه الأعمال وغيرها مما كان يمكن حقا ـ أم تراه لم يكن ممكنا ؟! ـ أن ينتظر حتى النهار !.. وما أن دبت الحركة فى المنزل أخيرا، منبئةباستيقاظ الخدم، حتى ضغط الجرس بأصبعه الطويل، فواتاه هنرى فورا ، وهو يحاول أن يخفى نظرة الذهول التى تبدت فى عينيه .. فقال الطبيب : « أود أن يسلم هذا الخطاب الى مكتب « كوك » بميدان بيكاديللى حالما تفتح أبوابه .. ويجب على الرسول أن ينتظر الرد ! »

ومد اليه يده بخطاب .. فقال هنرى : « حسنا يا سيدى ! » . فعاد يقول : « وهذه الخطابات كلها يجب ارسالها بالبريد » . وأجاب الخادم من جديد : « حسنا يا سيدى » . فاستطرد يقول : « وعليك أن تأمر آرثر بأن يعد لى الحمام » .. ثم نهض واقفا وهو يقول : « سأستقبل المرضى اليوم ، ولكنى سأغادر لندن غدا أو بعد غد على

الأكثر .. سأذهب الى مصر بضعة أسـابيع ! » .. فران الصمت لحظـة ، ثم نطق هنرى بعبـارته التقليدية ، فغمغم قائلا : « حسنا يا سيدى ! »

ثم استدار ومضى نحو الباب فى بطء شديد ، وقد انحنت كتفاه وكأن السماء قد سقطت .. فوقهما !

الفصل التاسع والعشرون



● رفض ايزاكسون أن يستقل الحافلة (الامنيبوس) التى أعدها الفندق لنزلائه فى محطة القاهرة ، واستقل الى فنـدق « شبرد » عربة « حنطور » يجرها جوادان هزيلان اشهبان طويلا الذيل والمعرفة ، ويقودها حوذى وطنى امتلأ وجهه ببثور الجدرى القديمة ، وقد وضع على رأسه الطربوش ، بينما ارتدى زيا اوربيا !.. وكانت الساعة قد شارفت الثالثة بعد الظهر ، وزخرت شوارع المدينة - المثيرة المغرية - بالجماهير من كل جنس . وكان ايزاكسـون يجلس منتصب القامة ، يتطلع حواليه بعينين تفيضان باللهفة والتشوق ، وقد سرى فى كيانه انفعال اخذ يهزه هزا ، اذ كانت هـذه هى المرة الاولى التى يتذوق فيها الحياة الشرقية .. فما سبق له قط من قبل ان وضع قدمه فوق « عالمه ومكانه الطبيعى » كما كان يسميه !.. وعلى الرغم من النشـوة التى كان التجديد ينثرها فى جوانحه نثرا ، فقد خالجه شعور عجيب من السعادة والارتياح لوجوده فى « موطنه » !.. وكان يرى هنا وهناك بيوتا ذات واجهات ناصعة البياض ، تتمايل امامها فروع النخيل .. بيوتا أدرك انه خليق بأن

يجد فيها راحته ٠٠ يجدها فى الأفنية الفسيحة ، والدرج المستقيم ، وسقوف القرميد ، والفسقية ، والأبسطة الصغيرة ، والأرائك ٠٠ والباب القاتم ذى النقوش البارزة ، والحاجز الخشبى العريض الذى يحجب الاقسام الداخلية ٠٠ انه لم يلج قط مثل ذلك المنزل الذى يقع هناك الى اليسار - مثلا - ومع ذلك فقد خيل اليه انه يعرفه حق المعرفة !

وهذا الحشد من رجال الشرق ذوى العيون السوداء الحادة البراقة ، والعيون المثقلة الجفون بالنعاس ، والعيون المتوهجة بنيران الجشع الصفراء ٠٠ هذا الحشد من ذوى البشرة الصفراء ، والبشرة السمراء ، والبشرة السوداء ٠٠ من ذوى الأيدى الدقيقة المعبرة ، والاظافر المصبوغة بالحناء ، والمعاصم النحيلة البارعة ٠٠ هذا الحشد الذى تنطلق الكلمات من أفواهه فى سرعة وغزارة ، والذى يكثر من الايماء والاشارة بوجهه ويديه ، والذى يتفرس متأملا فى غير وعى أو ادراك ، مستخلصا النتائج فى غير شفقة أو رحمة ، والذى تأخذ عيناه كل شىء ولا تعطيان شيئا !٠٠ أفليس من المحتمل ان يعثر - للمرة الاولى - على نفسه التائهة ، لو انه نبذ وسائل الراحة والمباهج المستعارة من أوربا ، وغادر العربة فاندس وسط هذا الحشد ؟!

وشعر بالأسف عندما وقفت به العربة أمام شرفة الفندق العظيمة ، ولكن صلته الروحية بتلك المناظر لم تنقطع ٠٠ ووضحت له هذه الحقيقة ، فى شعور من الجذل والطرب ، داخله عندما نزل من غرفته بين الرابعة والخامسة - من بعد الظهر - واتخذ مجلسه فى الشرفة الى جانب السياج الحديدى

- أتريد شايا يا سيدى ؟

فأومأ برأسه ايجابا للساقى الألمانى الذى عرض عليه خدمته ٠٠ وكانت احدى الفرق الموسيقية تعزف فى مكان ما قطعا أوربية ، ولكنه قرر ان يبحث فى الأحياء الوطنية - فى تلك الليلة - عن ألحان الشرق المشجية الخافتة التى تشبه الأنين !

وجىء اليه بالشاى ٠٠ ودنا منه وطنى يبيع الصحف ، فعرض عليه صحيفة فرنسية اسمها « سفنكس » تصدر فى القاهرة ، وبعض الصحف اللندنية كالتايمز والمورننج بوست ، فابتاع اثنتين أو ثلاثا منها وهو شارد الذهن ٠٠ وكان قلما ينتابه الشرود ، أما الآن - وهو يرشف الشاى الساخن - فقد كان الانفعال الذى سرى بين جوانحه ممزوجا بشىء آخر بدا مبهما غامضا مختلط المعالم ، وان كان - مع ذلك - لم يخل من نوع من السحر اللذيذ !٠٠ وكانت تتدفق بجوار السياج ، أمام ايزاكسون وتحته ، دنيا زاخرة بالكثير من أحلامه وأخيلته ٠٠ أحلام النرجيلة وأخيلتها ! كما أن قراره الفجائى بالحضور الى مصر ، وهو نصف ما فى هذه الرحلة من سحر وفتنة ، قد جعل

من وصوله للقاهرة عجيبة من العجائب ، وأحيا فى أعماقه مرح الصبى ولهفته، وان كان يقف الى جوار الصبى ، الرجل الحالم الخيالى !

كانت الشرفة ، بطبيعة الحال ، حافلة بالبشر ٠٠ كان الناس من مختلف الأمم يجلسون خلف ايزاكسون وحواليه ، وينطلقون صاعدين هابطين فوق ذلك الدرج العريض الذى يصل ما بين الشرفة والطريق ، محملقين بأنظارهم ، ملوحين بأيديهم ، لا يكفون عن الثرثرة ٠٠ وانبعث هنا وهناك رنين الأطباق وصليل الآنية ٠٠ كانت الفتيات المحجبات بخمر طويلة يأكلن الكعك والحلوى، ويلكن فى أفواههن المثلجات الوردية أو الخضراء الفاقعة أو التى بلون اللوز ! ٠٠ أما السيدات المتقدمات فى السن ، فكن يجلسن فى مقاعد منخفضة من الخيزران ، وقد استغرقن فى الفرجة والمشاهدة كأنهن تماثيل تجردت من الحياة !٠٠ وكان علماء الآثار يتجادلون ويتناقشون ويهزون أصابعهم السبابة التى لوحتها شمس الصحراء الساطعة بسمرة داكنة ، بينما كان رجال الاعمال الامريكيون - القادمون فى أجازاتهم - يدخنون سيجارهم الضخم ويدعون أصدقاءهم الذين حضروا من نيويورك أو بوسطن أو واشنطن ، الى العشاء ! امتلأوا بالمرح والحيوية ، وانطلقوا وراء التجارب !٠٠ ولم تكن العربات تكف ٠٠ وكان الفتيان الأوربيون يروحون ويجيئون - فى ثيابهم الأنيقة - وقد عن القدوم والوقوف ثم الانصراف ، بينما انهمك رجل وطنى - نحيل الجسم ، أشيب الشعر ، يرتدى حلة رسمية جميلة - فى تسجيل الساعات والمبالغ والأعداد فى سجل غامض ملء بالاسرار !٠٠ بيد أن ماير ايزاكسون كان مستغرقا فى مراقبة الشرقيين الذين كانوا يقبلون ويمضون فى الطريق الملء بالضجيج ، فلم يعن بأن يتأمل حشود السياح ، لعله يرى بينهم أحدا يعرفه ، من مرضاه أو أصدقائه أو أعدائه !٠٠ كان ذكاؤه الحاد ، المعروف به عند المتصلين به ، عاطلا عن العمل فى ذلك الحين للمرة الاولى !

على ان انتباهه لم يلبث أن انتقل من الطريق الى الشرفة ، اذ استدرجه الى هذه - على ما بدا له - رجل أقبل من الاولى ٠٠ فقد مرت أمامه وئيدا ، عربة من طراز (الفيتون) ، كانت من أجمل العربات التى وقع عليها بصره !٠٠ كانت بالغة الارتفاع والسعة - وان بدت خفيفة أنيقة - يجرها زوج من الجياد الروسية الممتازة ، حالكا السواد ، مليئان بالحيوية الضارية ، متماثلان تماما وكأنهما صبا فى قالب واحد ، وقد أوتيا قسطا وافرا من النشاط والتوثب ، حتى لقد كانت مشاهدتهما وهما يسيران متعة جميلة رائعة !٠٠ وكان الرجل الذى أثار انتباه ايزاكسون - فى اللحظة التالية - يجلس وحده فى المقعد الأمامى ٠٠ ولم يكن سوى محمود بارودى ، وقد ارتدى حلة رمادية زاهية ، ووضع الطربوش على رأسه ، بينما جلس فى المقعد الخلفى للعربة وصيف

(سائس) انجليزى ضامر الجسم ، انيق الهندام ، فى زى رسمى وقبعة عالية لامعة ، وسراويل للركوب ، وحذاء طويل ٠ وكانت العربة سوداء اللون ، بينما طليت عجلاتها بلون قرمزى ، والسروج المموهة بالفضة مصقولة لامعة ، والسلاسل التى تربط الجياد الى (العريش) القرمزى تشع بريقا ساطعا فى ضوء الشمس ٠٠ ولكن الذى اجتذب جميع الانظار ، وتعلقت به عينا ايزاكسون ، هو محمود بارودى نفسه ، بقوامه الفارع غير العادى ، ووجهه المثير الذى يعلوه طابع عدم الاكتراث ، وقيادته البارعة للجياد ٠٠ وكان قد جذب عنان الخيل فأوقفها أمام الدرج فى حركة رشيقة ، واذا بالوصيف يثب الى الارض فى اللحظة التالية ، فناوله بارودى عنان الجياد ، ومضى نحو الشرفة حيث وقف لحظة يجيل أنظاره حواليه فى هدوء ٠٠ وما لبث ان رفع يده اليمنى الى طربوشه ، اذ رأى جماعة من الاصدقاء الفرنسيين ، ثم انضم اليهم، فرحبوا به فى جذل واضح ٠٠ بل ان اثنين من الجماعة ــ وهما سيدتان باريسيتان كانتا ترتديان أبهى الثياب ــ افسحتا له مكانا بينهما ٠٠ وفيما كان يتخذ مجلسه والابتسامة تغمر وجهه ، لاحظ ايزاكسون حاجبيه الكثيفين المنحدرين ، وعنقه الرائع الذى كان يبدو قويا كعنق الثور !

ــ ايزاكسون ، ايها العزيز !٠٠ أهذا ممكن حقا ؟ لقد كان الأحرى أن أتوقع لقاء أبى الهول فى ميدان كليفلاند !

وكان المتكلم رجلا فارع الطول ، لا يتجاوز الثلاثين بكثير ، ذا عينين زرقاوين حالمتين ، وان كانتا مع ذلك ثاقبتين ، وقد وقف أمام الطبيب ٠ وما لبث أن جلس بجانبه بعد أن أضاف : « هل تسمح ؟ » ، وبعد ان صافحه فى حرارة ومودة !٠٠ فقال الطبيب : « ستارنورث ! انك واحد من القلائل ، بل أكاد اقول انك الوحيد الذى يسرنى لقاؤه فى هذه اللحظة !٠٠ من أين أنت قادم الآن ، أو الى أين أنت ذاهب ؟٠٠ فلست أعتقد انك تنوى الاقامة فى القاهرة » ٠٠ فأجابه الآخر : « لا ، لن أمكث ٠٠ لقد كنت فى سوريا وقدمت للتو من دمشق ، حيث كنت مع احدى القوافل ٠٠ أجل ، سأتناول قليلا من الشاى ٠٠ ولكنى سأرحل غدا أو بعد غد من مينا هاوس فى رحلة صحراوية صغيرة » ٠٠ فتساءل ايزاكسون : « صغيرة ؟٠٠ ترى كم يوما ستستغرق ؟ » ٠ فأجاب القادم الجديد فى غير اكتراث : « آه ، لست أدرى بعد ٠٠ ثلاثة أسابيع فى الذهاب وثلاثة فى العودة ــ على ما أعتقد ــ لزيارة واحة توجد بها خرائب وآثار عجيبة !٠٠ ولكن ما الذى أتى بك ، أنت ، الى هنا ؟ ما الذى أغراك بترك مرضاك العديدين ؟ » ٠٠ فأجاب ايزاكسون بعد شىء من التردد : « نزوة طارئة ! »

ــ يا للشيطان ! وهل يسمح الاطباء المشهورون لأنفسهم بأن تسيطر عليهم

النزوات ؟

وكان هذا الرجل ــ بازيل ستارنورث ــ رحالة انجليزيا انغمس منذ سنوات عديدة فى الشرق الذهبى ، فأصبح يجيد الكلام بالعربية واللغات واللهجات الشرقية العديدة ، واصبح أكثر شعورا بالألفة بين البدو منه بين اخوته ، ومعينا لا ينضب من المعلومات عن أهالى سوريا ومصر وشمال أفريقيا بأسره . كان يعرف كل شيء عن عواطفهم وعاداتهم وخرافاتهم وطرائق معيشتهم جميعا . وكان ايزاكسون قد عالجه من حمى الملاريا التى اصيب بها فى احدى رحلاته

وفى تلك الليلة تناولا العشاء معا ، فلما فرغا منه اصطحب « ستارنورث » ايزاكسون ليريه بعض الاحياء الوطنية فى المدينة .. وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ، عندما وجد ايزاكسون نفسه جالسا فى مقهى صغير بدائى، متوار ، فى صميم أحشاء القاهرة ، وصل اليه ــ مع صديقه ــ خلال دروب وممرات ملتوية .. دروب ملأى بنساء مخضبات الوجوه .. دروب تومض فيها الاضواء المنبعثة من شموع وضعت فرادى فى دهاليز ذات ألوان بنفسجية أو زرقاء أو قرمزية ، وفى منتصف الطريق بين طوابق الدور ، على درج ضيق طليت جدرانه بالجير .. وفى هذه الدروب الملتوية كانت تمتزج الصيحات البشرية ، والضحكات ، والدعوات الخافتة ، والمقايضات ، والرفض والاباء ، بموسيقى كانت تبدو متموجة كأنها أشرطة حريرية من الأنغام .. موسيقى تتأرجح بين الخشونة والصرير الحاد والخوار .. موسيقى ثاقبة نافذة ، كانت ــ فى الوقت نفسه ــ غامضة خفية .. موسيقى مثيرة محرضة ، ومع ذلك يشوبها الحزن والكآبة أحيانا .. كآبة الصحراء الغربية وحزن الرغبة الجامحة بين الرمال !.. وكان ذلك الخليط من الاصوات المنبعثة فى المقهى ، يمتزج بخليط آخر من الاصوات ، يجمع بين الانغام الرتيبة لألحان الرقص الشرقية ، وعويل الأرغول الافريقى ، وتغريد المزامير الصغيرة التى تنظم خطى الشركسيات الشاحبات ، وهمهمة « الدربكات » المكتومة !

وأحضر لهما شيخ وطنى ــ كان حاجا ــ القهوة من بين الرماد المتأجج رأسا ، بينما أخرج ستارنورث من جيبه علبة من التبغ ، وورق السجاير ، وراح يلف سيجارتين فى حذق ومهارة .. ولم يكن فى المقهى الا قليل من الناس ، كانوا جميعا من الشرقيين . وكانوا يتألفون من اثنين من المصريين ، وزنجى ، وثلاثة جنود من السودان حالكى السواد عجاف الاجسام كأنهم الثعابين ، ذوى بشرة جافة خشنة تبدو كأنها جلود بعض زواحف الصحراء ! .. وكان هؤلاء الشرقيون جميعا يجلسون بلا حراك ، ويبدون مستغرقين فى الاحلام . فقال ايزاكسون : « لماذا أتيت بى الى هنا ؟ » . فأجابه : « هل

يضايقك هذا المكان ؟ »

ـ كلا ٠٠ ولكنى أود أن أعرف لماذا اخترت هذا المقهى بالذات دون مقاهى القاهرة كلها ؟

ـ انه مكان عتيق ، وهو بالنسبة للشرقيين من أشهر مآوى مدخنى الحشيش ! ولعلك تلاحظ جدرانه القذرة المسودة ، وافتقاره الى الضوء ٠٠ فان مدخن الحشيش لا يبغى شيئا من الترف ولا ضوءا أكثر مما ينبغى ٠٠ انه يريد الاستغراق فى الاحلام ، وينال هذا الاستغراق هنا ٠ وقد لا تصدق ان بعض الاثرياء من أعلى طبقات المصريين ـ أولئك الذين تجدهم فى حفلات الاستقبال الرسمية ، والذين تراهم فى المراقص العظيمة بالفنادق الكبرى ـ يتسللون الى هنا خفية ليلة بعد ليلة ، ويندسون بين أحط طبقات الدهماء ليستغرقوا فى الخيال تحت هذه الأسقف المسودة ٠٠ وها هو ذا واحد منهم قادم الآن !

وبينما كان يقول ذلك ، ظهر محمود بارودى على باب المقهى ٠٠ كان يرتدى ثيابا وطنية حقيرة رثة : عمامة قذرة بالية ، و جبة طويلة من قماش حال لونه !٠٠ وبعد ان ألقى بالسلام فى همهمة مكتومة ـ انبعثت من حلقه ـ أوى الى أبعد أركان المقهى وأشدها ظلمة ، حيث جلس على الارض متربعا ٠٠ وأحضر له الشيخ الوطنى « الجوزة » ـ بعد لحظة ـ وهى غليون طويل أشبه بالنرجيلة ، فيما عدا الخرطوم الثعبانى ٠٠ فتناول بارودى الأنبوبة المصنوعة من الغاب ، وراح يجذب أنفاس الحشيش فى قوة وتتابع ، ثم ينفثها كثيفة من فمه وخياشيمه ٠ فقال ايزاكسون هامسا : « يبدو انه من فقراء المصريين ! » ٠ فأجابه صاحبه : « بل هو من أصحاب الملايين ٠٠ وبهذه المناسبة ألم تره بعد ظهر اليوم ؟ » ٠٠ فتساءل الطبيب : « أين ؟ » ٠٠وكان



الجواب : « فى شبرد ·· لقد كان قادما فى عربته « الفيتون » ، قبل ان ألقاك مباشرة ! » ·· واذ ذاك صاح ايزاكسون : « أهو صاحب الجوادين الروسيين ؟ هذا محال حقا ! »

ـ لقد كان بعد الظهر ذلك المليونير ذا المكانة الاجتماعية المرموقة · أما فى المساء فانه يغوص فى أعماق وطنه الشرقى !

ـ ومن تراه يكون ؟ ـ انه محمود بارودى !

فراح ايزاكسون يردد الاسم فى تؤدة وهدوء : « محمود بارودى ! » ·· وفى تلك اللحظة تسلل الى داخل المقهى شيخ بلغ أرذل العمر ، أخذ ينشد فى صوت حاد متهدج ، أغنية عن تدخين الحشيش ، وهو ينقر على دف من جلد الماعز ، بينما راح شاب فى ثياب فضفاضة يتمايل ويؤدى رقصا لا نهاية له ، يمثل الشخص الحالم الذى يقوده الحشيش الى عالم جميل عذب ملء بالاسرار والخفاء !·· واذ ذاك همس ستارنورث قائلا : « سأحدثك عنه فيما بعد ! »

★ ★ ★

◆ وفى تلك الليلة جلسا معا فى الفندق حتى دنا موعد صلاة المسلمين·· وقد اغتبط ستارنورث اذ وجد مستمعا يفوق كثيرا مجرد المستمع العادى المجامل ·· مستمعا يفهم حكمته الشرقية بعقلية الشرق ·· فانطلق يتدفق بمعلوماته العجيبة ، بينما كان ايزاكسون يستوعب هذه المعلومات ويتشبث بها كما لا يمكن ان يفعل سوى يهودى قح !·· وظل يصغى ويصغى ، دون أن يتكلم الا قليلا ، حتى بدأ « ستارنورث » يتحدث عن الجمود الغريب الذى كان يراه واضحا فى الاسلام ، وكيف أن الشرق لابد أن يظل أبدا هو الشرق، على الرغم من أشد المؤثرات الخارجية والنفوذ الخارجى قوة ·· وقال : « أو·· هذا ما يلوح حتى الآن ! » ·· ثم مضى يوضح رأيه ويؤكده بعدد من الأمثلة الصارخة ·· وكان يتكلم عن العرب وعن المصريين الذين عرفهم عن كثب وتوثقت صلته بهم ، والذين رآهم يقعون تحت شتى أنواع المؤثرات الأوربية، بل الذين رآهم قد « تفرنجوا » ـ على حد تعبيره ـ ولكنهم كانوا لا يلبثون ، عندما تحين لحظات معينة ، أن يظهروا بمظهر « أبناء البلد » الصميمين ·· ثم استطرد يقول : « بل ان الامر كذلك حتى عندى ذوى الدم الخليط ·· فمثلا ذلك الرجل الذى رأيته الليلة يدخن الحشيش ، وهو فى تلك الجبة العتيقة القذرة ·· لقد ولد من أم يونانية ، ومن المحتمل أن تكون لديه ـ بل ان لديه فعلا ـ بعض الصفات وبعض الميول اليونانية ، ولكنها كلها تخضع لسلطان ذلك الشرق الكامن فى اعماقه ، حتى ليوشك أن يبتلعها ! » · وهنا سأله ايزاكسون : « أوتعرفه ؟ »

ـ اننى لم اخاطبه قط ، ولكنى سمعت الكثير عنه ، من مصريين ومن أوربيين ·· وهو يلقى نجاحا وفيرا مع الانجليز ، ومع الاجانب عامة ! انه رجل شديد البراعة ، وعلى جانب كبير من الخلال الممتازة ـ فيما أعتقد ـ ولكنه من الشرق ! ·· فهو خليق بأن يثير فى المرء الذى لايعرف الكثير ، دهشة عميقة ·· وهو لا يفصح للأعين العادية عن أى شىء ·· أى شىء مما هو عليه حقا · بل انه يبدو هادئا ، مسيطرا ، عمليا ، بل جامدا باردا كرجال الاعمال · وهو على أعظم قدر من الاعتداد بالنفس دائما ·· كما انه حريص ، ولكنه كريم شفوق، لطيف ، مصقول ، دمث الاخلاق ، قليل الاكتراث ·· بل ان له نوعا من قلة الاكتراث طاغيا جبارا ·· وكثيرا ما رأيته فى المجتمعات ، فكان ـ حتى بالنسبة لى ـ يبعث فى النفس هذا النوع من الشعور !

ـ وما هى حقيقة الرجل ؟

ـ جمر متقد تحت الرماد !·· فهو فظيع فى كراهيته ، فظيع فى حبه !·· ولكنه يكره بروحه ، ويحب بجسده ، كما يقولون ! فهم يصفونه بأنه عبد لروحه فى البغضاء ، وعبد لجسده فى الحب !·· وقد ارتكب بعض الجرائم من أجل النساء ، اذا صح ما سمعته من أصدقائى الوطنيين ·· وأحسبنى واحدا من الأوربيين القلائل الذين يمكنهم أن يستخلصوا قدرا وفيرا من الحقائق من الوطنيين !

ـ أتقول « بعض الجرائم » ؟

فأجاب ستارنورث على طريقته العجيبة المتراخية ، التى توحى بأنه رجل خليق بأن يقوم برحلة مليئة بالمصاعب الرهيبة فى الصحراء ، وهو يرتدى قميصا للنوم ونعلا خفيفا : « نعم ·· ولكن ذلك لم يكن فى سبيل نسائه هو ، ولا فى سبيل ربات الجمال الشرقيات ·· ان بارودى واحد من المصريين الكثيرين الذين يجنون شغفا بنساء أوربا والدنيا الجديدة ، والذين يفقدون صوابهم لدى رؤية بشرتهن الناصعة البياض ، وشعورهن الملونة الوضاءة ·· وقد حدث أن كانت هنا احدى الراقصات ، فى موسم الأوبرا ·· وكانت دانمركية ، ذات بشرة نضرة مضيئة ، جمعت كل أسباب الجمال ، من ذلك الطراز الذى يوحى بشعاع من شمس الشمال ! » ·· فقال ايزاكسون : « أعرف ما تعنى » · فاستطرد صاحبه : « لقد أنفق عليها آلاف الجنيهات ·· بل انه أهداها يختا وأخذها فيه الى الجزر اليونانية والى نابولى ·· وما لبثت الدانمركية أن رغبت فى الزواج » ·· فقاطعه الطبيب متسائلا : « منه ؟ »

ـ من تاجر فى كوبنهاجن ، كان واسع الثراء · وقد رحب بارودى بالفكرة وأبدى سروره لها ·· وحضر التاجر الى القاهرة فى الموسم التالى للراقصة فى الأوبرا ، فأسبغ عليه بارودى رعاية عظيمة حتى أصبح صديقا له ، وتحدث

معه حديث رجل المال الراسخ القدم ٠٠ وأثر تأثيرا عميقـا فى الدانمركى بمميزاته العملية ، ثم زج به فى بعض « المضاربات » الرائعـة !٠٠ وكانت النتيجة : دمار الدانمركى دمارا شـاملا ، وعودته الى كوبنهاجن مجردا من ثروته ، ومجردا كذلك ـ بطبيعة الحال ـ من حبيبته !

ـ وما الذى حدث لها ؟

ـ لقد نسيت !٠٠ ولكن لا تظن اننى عرفت مصيرها قط ، فقداختفت من دار الأوبرا الى الأبد !٠٠ ولـكن اروع ما فى الامر ان الدانمركى ما زال حتى اليوم يقسم بحياة بارودى ، ويقول ان حمقه وجنونه هو ، هما السبب فيما حدث له !٠٠ ومع ذلك فهناك ما هو اسوأ من ذلك بكثير ، فان بارودى رجل لا يخشى شيئا ولا يقيم وزنا لأى اعتبار ، متى سرت فى جسـده نار الجنون باية امراة ، فمثلا ٠٠٠

وانطلق يروى القصص عن بارودى ، وهى قصص لا يعـرف الانجليز فى مصر شيئا عنها ، وانما كان بعض المصريين يعرفونها ويضحكون منهـا ٠٠ وكانت واحدة او اثنتان منهـا مما تمجه وتكرهه آذان الأوربيين ٠ ثم مضى يقول : « انه من الأتراك المصريين كما تعلم ، وينطوى على ذلك الدهاء القادم من البوسـفور ، و « المطعم » بالدهاء الكامن وراء جمود ابى الهـول وقلة اكتراثه !٠٠ وفى وسـعنا ان ندعوه : نبتا غير صالح » ٠٠ وكانت لهجتـه المتراخية ـ لهجة قميص النوم والنعل الخفيف ـ أشـد وضوحا عندما قال ذلك ٠٠ ثم استطرد يقول : « على أن للأتراك المصريين شريعة غير شريعتنا ، وصدقنى اذا قلت اننى معجب بالرجل !٠٠ فانه على قدر عظيم من الشجاعـة والحزم ٠٠ وهو فى عمله ، وفى حبه ، وفى بغضه ، مقدام حازم صعب المراس ، وأينما وجه نشاطه انتهى الى نجاح ما بعده نجاح !٠٠ ولكن ولعه بالنساء هو الذى يسيطر حقا على حياته ، كما يقول المصريون المقربون منه والذين يعرفونه حق المعرفة ٠٠ وهكذا الشأن مع الكثيرين من ذوى الدم الشرقى ، بل مـع كثرة تفوق ما يتصوره أى امرىء لم يعش بينهم ويعرفهم كما عرفتهم انا ٠٠ فالعرب يجن جنونهم متى رأوا وجها ناصع البياض ، وكذلك المصريون !٠٠ وهم اذا وقعوا تحت سلطانه مرة ، فانما يخضعون لهـذا السلطان الى مدى لا يمكن للانجليزى أن يفهمه ٠ وقد عرفت اعرابيـا فى الصحراء الكبرى ، حطم باب أحد الفنادق الريفية فى بلدة (الخلف) ـ وكان مصنوعا من جذوع النخيل ـ وقطع عنق المرأة الفرنسية صاحبة الخان ٠٠ قطعه رغم انها كانت تصرخ باقصى ما تبقى لها من قوة ، لا لشىء سوى الحصول على الفرنكات القليلة التى كانت بصندوق النقود ، كى يرسلها الى فتاة فى باريس كان قد التقى بها فى المعرض الكبير !٠٠ وكانت الفرنسية العجوز قد صادقت هـذا الرجل

أكثر من ستة عشر عاما ، بل لقد ربته مذ كان غلاما حدثا ، وكانت تكتب له الخطابات التى يبعث بها الى السياح والرياضيين الذين يعمل مرشدا ودليلا لهم . ومحمود بارودى خليق بأن يفعل ذلك فى سبيل امرأة ، متى سرى فى جسده الشغف الجنونى بها ، ولكنه عندئذ يفعله بطريقة أكثر تعقلا وأحكم تدبيرا !

ومضى ستارنورث يتكلم ويفيض فى الكلام .. وكان موعد الصلاة قد حان، عندما نطق أخيرا بتحية الوداع .. ولكنه فيما كان يهم بالخروج ، استدار عند الباب ، ونظر الى ايزاكسون بعينيه الحالمتين الباهتتين قائلا : « هذه شريعة غير شريعتنا .. كما ترى ! » . ثم غادر الحجرة وأغلق الباب خلفه فى رفق

★ ★ ★

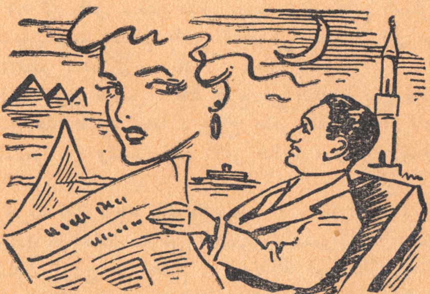
◆ وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرا ، وان ايزاكسون وصل فى ذلك اليوم من رحلته ، الا أنه كان يحس بنشاط دافق ، وقد فارقه كل سلطان للنوم .. ومع ذلك فقد كان مضطرا بطبيعة الحال الى أن يأوى الى الفراش ، فبدأ يخلع ثيابه فى بطء .. فى بطء وتردد واحجام !.. لقد كان فى القاهرة .. فى القاهرة فعلا !.. كل ما يحيط به فى هذا الليل البهيم انما هو القاهرة ، بمنازلها المليئة بالمصريين المستغرقين فى النوم ، وحريمها ، ومساجدها .. وغير بعيد منه ، كان أبو الهول يتطلع نحو الشرق بين الرمال !

وأخذ ايزاكسون يجول فى الحجرة فى تراخ وتبلد ، ويفعل كل شىء فى بطء شديد .. ومضت الحياة الشرقية - كما كانت تتدفق من بين شفتى ستارنورث - تتتابع أمام مخيلته فى شبه موكب عظيم غريب .. وفى خلال هذا الموكب كان محمود بارودى يقود جيادا روسية ، ويمشى فى جبته الكالحة كأنه أحد الشحاذين .. ثم توقف الموكب عن المسير ، ورأى ايزاكسون ذلك المقهى القذر فى أحشاء القاهرة ، ومحمود بارودى جاثما على الارض يجذب أنفاس الحشيش الى خياشيمه !.. وأخيرا ارتدى ايزاكسون منامته وتأهب للنوم ، ولكن عقله ظل متيقظا الى حد رهيب .. وكانت الصحف التى ابتاعها بعد الظهر ملقاة على المنضدة .. ترى هل يحسن أن يقرأ قليلا ، حتى يهدىء من سورة عقله ؟.. وتناول احدى الصحف - وكانت « المورننج بوست » - وفتحها ، ثم القى نظرة عابرة على الصفحات الوسطى ، واذا ببصره يقع على هذا العنوان : « وفاة اللورد هارويتش فجاة » !.. اذن فقد مات شقيق نيجل ! .. ولولا الغلامين التوأمين اللذين ولدا حديثا ، لأصبحت مسز ارماين فى هذه اللحظة « الكونتة هارويتش » !

وراح ايزاكسون يقرأ النبأ فى عجلة . وما لبث أن وضع الصحيفة جانبا

ومضى الى النافذة ففتحها ، اذ كان يريد أن يطلق لأفكاره العنان فى الهواء الطلق .. وفيما كان يطل من النافذة على المدينة الهاجعة ، سمع هتافا خافتا كأنه ينبعث من مكان سحيق ، فيدفع الدماء فى عروقه ، ويجعل قلبه يخفق فى عنف .. كان المؤذن ـ من فوق مأذنة بعيدة ـ يدعو المؤمنين الى الصلاة فى « الفجر » ، قبل أن تدفع الشمس الى كبد السماء ـ فى الشرق ـ أول تباشيرها من الضوء الفولاذى ، كأنه نصل رمح مشرع من بعيد : « الله أكبر ! .. الله أكبر ! »

الفصل الثلاثون



◆ كان ايزاكسون قد حضر الى مصر دون أن يعد خطة محددة .. كل ما يعرفه هو انه كان يزمع رؤية نيجل ارماين . ولم يكن قد أبرق الى نيجل أو كتب له ليخبره بحضوره ، كما انه ـ بعد أن وصل الى القاهرة ـ لم يحاول الاتصال باللولية ، بل رأى أن يذهب الى جنوب النيل ، ويهتدى بنفسه الى الدهبية الرائعة ، فيقف ذات يوم على الضفة السمراء أمامها ، حتى اذا رأى صديقه على سطحها ، هتف يناديه من بعيد ، ثم عبر « السقالة » ومضى الى ظهر السفينة .. ولسوف يذهل نيجل وتستبد به الدهشة ، ولكن .. ماذا يكون شأن مسز ارماين ؟.. كم من مرة ساءل نفسه ـ وهو على الباخرة التى أقلته من أوربا ـ عن النظرة التى سيطالعها فى عينى « بيللا دونا » ، عندما يمد يده اليها !.. لقد تحدته هاتان العينان من قبل ، وضحكتا منه فى سخرية وتهكم ، بل لقد لاحتا مرة وكأنهما تتوعدانه .. فأى نوع من التحية ستقدمان اليه فى مصر ؟

أما ان وفاة اللورد هارويتش قد تدفع نيجل الى العودة الى انجلترا ، فذاك أمر لم يفكر فى احتمال وقوعه .. فقد كانت الوفاة فجائية ، ومن المحال أن يتمكن نيجل من اللحاق بالجنازة فى الوقت المناسب .. وكان ايزاكسون يعرف وجهة نظر هارويتش فى علاقة نيجل بمسز تشبستو ، وماكانت الليدى هارويتش تراه فى هذه الصلة ، وتقوله عنها .. كانت زوى هارويتش صريحة جريئة الى أبعد الحدود ، ومن غير المحتمل أن يقطع نيجل رحلته فى النيل بسبب وفاة شقيقه ، وان لم يكن ذلك مستحيلا تماما ! .. كان ايزاكسون يدرك ذلك ، فلما التقى فى الفندق ، فى اليوم التالى ، بأحد معارفه اللندنيين - وكان رجلا يعرف كل شيء عن كل انسان - ذكر حادث الوفاة عرضا فى حديثه ، وهو يتساءل عما اذا كان نيجل سيغادر النيل الى انجلترا ، فكان الجواب : « انه لن يفعل ، فهو عليل بحيث لا يستطيع السفر ! » .. واذ ذاك تذكر ايزاكسون ذلك الخطاب الذى تلقاه فى لندن من مريضته التى تقضى الشتاء فى الاقصر ، فسأل صديقه : « وماذا به ؟ »

- يقال انها ضربة شمس ، فقد خرج فى الظهيرة بغير قبعة - ونيجل خليق بأن يفعل مثل هذا الشيء تماما - وراح يحفر منقبا عن الآثار ، ومن ثم أصابه مس من الشمس .. ولست أظن الامر خطيرا ، ولكن لاشك هناك فى انه مريض جدا

- وهل تعرف أين توجد تلك الذهبية .. « اللولية » ؟

- أعتقد انها فى مكان ما بين الاقصر وأسوان .. وأنت تعلم ان ارماين وزوجته عاشقان كزوج من الحمام !.. ولذلك فهما دائما يعتكفان عن الناس ، ويبتعدان عن الاماكن المزدحمة ، فلا يراهما أحد قط ، الا بمحض المصادفة . انها تمثل دور الزوجة المثالية ! وكم أتساءل : الى متى يدوم ذلك ؟

وشفع ذلك بضحكة تفيض بالشك والسخرية معا . وما كاد ينصرف لشأنه ، حتى بادر ايزاكسون بالذهاب الى مكتب « كوك » ، حيث حجز لنفسه مقصورة فى عربة النوم بالقطار السريع الذى يغادر القاهرة الى الاقصر فى مساء اليوم نفسه . ان بوسعه أن يرى المزيد من عجائب القاهرة ، وان يشهد الاهرام وأبا الهول وسقارة ، فيما بعد .. عندما يعود من جنوب النيل ، اذا ما اتسع له الوقت ، أو .. لا داعى لأن يرى شيئا منها قط ، فهو لم يغادر انجلترا لمجرد الفرجة والمشاهدة .. تلك هى الحقيقة ، وهو يدركها الآن تماما ، على الرغم مما كانت تثيره القاهرة فى نفسه ذات الفطرة الشرقية ، من حنين الى الانغماس فى الحياة التى عرفها أجداده وعاشوا فيها.. حياة اليهود الشرقيين ! .. وما أقواه من حنين ، ذلك الذى كانت تثيره القاهرة !.. القاهرة ذات البيوت الواهنة الانوار الزاهية الالوان ، وذات

الموسيقى الحادة حينا والخافتة أحيانا ، وذات الفتيات المخضبات والرجال المدمنين على تدخين الحشيش ، وذات الصوت الذى يصيح عاليا فى ساعة التجلى مسبحا باسم الخالق !

ولكنه كان يعرف هدفه الحقيقى من الحضور الى مصر ، وليس له ان يحيد عنه الآن !

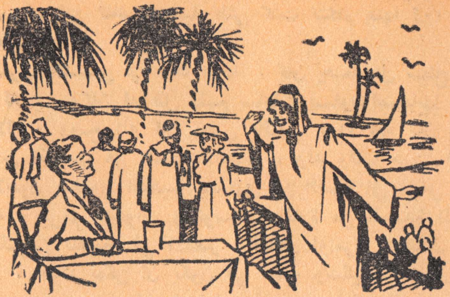
ومع ذلك فقد غادر القاهرة آسفا !.. وكان « ستارنورث » قد اقترح عليه أن يصحبه فى رحلة الاسابيع الستة فى الصحراء ، وشد ما كان يتوق الى ذلك أيضا .. فالواقع أنه قد تملكته ـ مع ذلك الانقطاع عن العمل ، وذلك التغيير الفجائى الشامل فى حياته ـ رغبة ضارية نحو الحرية والمغامرة .. لقد استيقظ فجأة ذلك الرجل الدؤوب المثقل بالعمل ، على تلك الحياة العظيمة الممتدة فى الخارج .. خارج حجرة استشارته ، وخارج البحر الرمادى الذى يحيط بالجزيرة المنيعة ، وخارج أوربا كلها .. استيقظ الرجل الدؤوب متعبا مكدودا ، وقد أثقلته المدنية حتى ضاق بها ، وانبعث فى أعمق أعماق نفسه صوت يصيح فى طلب الانطلاق والحرية التى لا حد لها .. فكأنما انهارت جدران عيادته فى ضوضاء عالية ـ كما فعلت جدران (اريحا) فى عهد اليهود الغابرين ـ فرأى خارجها ما كان يصبو اليه .. ما كان يشعر دائما ، فى عقله الباطن ، بحاجة اليه ، وان لم يكن قادرا على نيله !

ولم ينم ايزاكسون فى القطار الا لماما . وفى الصباح المبكر نهض من مرقده وارتدى ثيابه ، ثم شهد من نافذة القطار شروق الشمس .. واهتزت مشاعره حين شهد للمرة الاولى أعجوبة التلال الجرداء فى بلد شرقى .. فان التلال الممتدة على الضفة اليسرى للنهر ، والتى تألقت فى ألوان رقيقة .. هذه التلال ذات الفجوات التى تبدو كأنها « غمازات » على وجنات من حديد ، وذات الاطراف الخشنة والجميلة معا ، كانت تثير خياله ومشاعره ، وتجعله يتحسر على ما فات من عمره .. لماذا لم يحضر الى هنا قط من قبل ؟.. ولماذا ترك نفسه يقترب من الكهولة وهو محوط بالقيود من كل جانب ؟.. ان رجلا مثل ستارنورث أصدق فهما للحياة واستيعابا لها منه ، فهو حتى الآن ـ فى هذه اللحظة ـ لم يكن يستمتع بحريته كاملة !.. ثم راح يفكر فى « اللولية » .. ألم يكن فى الواقع رجلا يطارد شيئا ما ويلاحقه ؟.. هب انه تخلى عن تلك المطاردة ؟!.. ان أحدا لم يضطره اليها ولم يقسره عليها . بل انه حضر الى هنا ، ومعه وفرة من المال ، مستقلا كل الاستقلال .. ولو انه شاء أن يستأجر قافلة كاملة ، ويرحل بها الى ساحل الذهب ، لما كان هناك من يمنعه عن ذلك .. انه يستطيع أن يذهب اذا أراد الذهاب ، ناسيا أن فى العالم مرضى ، ناسيا كل شىء الا أنه فى حرية كاملة ، وفى البلاد التى يشعر بأنه على

سجيته فيها !٠٠ وهنا ، تحول يسائل نفسه عما اذا كان يمكن أن يقوى على نسيان أن فى العالم مرضى !٠٠ وعادت الى ذاكرته الكلمات التى قرأها فى خطاب مريضته ، والكلمات الاخرى التى سمعها من صديق فى فندق ، فأدرك أنه لن يقوى على ذلك ٠٠ ألم يكن يخف الى صديقه نيجل المريض ؟

وكما فعل ارماين وزوجته عند وصولهما الى الاقصر - اذ ذهبا الى الفيللا التى استأجراها سيرا على الاقدام - كذلك فعل ايزاكسون ٠٠ فقد رفض كل العروض الصاخبة لوسائل النقل المختلفة ، وانطلق الى فندقه ماشيا ٠ وكان موسم السياحة فى ذروته ، وقد غدت (الاقصر) مركزا لسياح من جميع الاجناس ، كانوا - حتى فى هذه الساعة المبكرة - يزحمون المدينة الصغيرة ! ٠٠ فلما بلغ ايزاكسون ضفة النيل ، رأى عندها مرسى عائما ترسو الى جانبه سفينة بخارية لشركة « كوك » ، وقد ازدحمت بالسياح الذين كانوا يتنزهون على سطحها ، أو يتناولون الافطار أو ينحنون فوق السياج ليساوموا أشخاصا سمر الأبدان باسمى الوجوه انتشروا على الشاطىء والمرسى ٠٠ وكانت خلفها سفينة للبريد أصغر حجما ، ثم صف طويل من الدهبيات التى تحمل أعلام بريطانيا وأمريكا وفرنسا وأسبانيا وغيرها من البلدان ٠ وكانت الحمير تعدو خببا ، حاملة المتفرجين الذين استخفهم الطرب والانفعال ، يتبعها الغلمان المكاريون صائحين مهللين ٠٠ وعند الضفة الغربية الرملية المنبسطة - التى كانت رمالها تذوب فى خضرة الحقول الممتدة وراءها ، والتى كانت تذوب بدورها فى ذلك الجدب القاحل الذى يضم خرائب طيبة - كانت ثمة دهبيات أخرى ترسو وقد ارتفعت صواريها العالية المدببة تشق زرقة السماء الصافية الخالية من السحب ، المبشرة بيوم بهيج وضاء ٠٠ ولم يكن الوقت قد جاوز التاسعة صباحا بكثير ، ومع ذلك فان الحرارة كانت قد بلغت درجة شديدة الارتفاع ٠٠ وطرب ايزاكسون لهذا الجو الساحر ، وشاع الجذل فى نفسه ٠ ولكنه كان يتوق الى أن يأخذ سوطا ذا سبع شعب ويسوق أمامه هذا القطيع من السياح السعداء حتى يخرجهم من البلدة !٠٠ كان يتوق الى أن يجد نفسه وحيدا مع أبناء النيل السمر الأبدان !

وما ان بلغ شرفة فندق « ونتر بالاس » ، حتى رأى أناسا يعرفهم ٠٠ وكانت الشرفة هلالية الشكل ، وقد حفل الخليج الرملى الممتد بين طرفى الهلال بحشد كبير من التراجمة ، بين واقفين ومتجولين ٠٠ واذ اقترب ايزاكسون منهم انفصل أحدهم عن الجماعة التى كان يقف بينها ، ودنا منه فحياه قائلا :
« طاب صباحك ياسيدى ٠٠ هل تريد دهبية ؟٠٠ بوسعى ان أهيىء لك دهبية طيبة ، ويمكنك أن تذهب عليها من اليوم ، فلا تقيم فى الفندق ٠٠ لن تقضى به سوى ليلة واحدة ، وعند ما يأتى الصباح نرحل عن هؤلاء الناس الذين



يثيرون ضجة عالية ٠٠ سوف نذهب بين المصريين ٠٠ اما هنا ٠٠ » ، ومد يده السمراء ـ ذات الأصابع المقوسة الى الخلف ـ نحو الفندق ، واستطرد قائلا : « اما هنا ، فالقوم من عامة الشعب كثيرو الضجيج !٠٠ انك لست سعيدا على الاطلاق هنا ياسيدى » ٠٠ لقد قرأ الوغد افكاره !٠٠ ولم يتمالك ايزاكسون ان ساله : « ما اسمك ؟ » ٠ فبادر الرجل مجيبا : « حسن بن احمد » ٠ فقال الطبيب يطمئنه : « لسوف أراك فيما بعد ! » ٠ وتحول يرقى الدرج ، ويلج الفندق الكبير

★ ★ ★

◆ وعندما انتهى من حمامه واستكمال زينته ، خرج ثانية ليستمتع بالشمس ٠٠ ووقف لحظة فى الشرفة ، مستمتعا ـ جسدا وروحا ـ بذلك السناء الوضاء ٠٠ ثم حانت منه نظرة نحو الخليج الرملى ، فرأى نواجذ « حسن » الطويلة البيضاء ، وقد لاحت خلال ابتسامة مليئة بالفهم وبالاغراء معا ! كان النهر وراء هذه النواجذ ، حيث كان « حسن » يدعوه فى صمت ، فنظر الى الصوارى المدببة ، وبدا عليه التردد ٠ وعندئذ كشف حسن عن المزيد من أنيابه ونواجذه !٠٠ وفى تلك اللحظة بالذات ، انقضت عليه السيدة المريضة ـ التى كانت قد كتبت اليه من ربوع النيل وذكرت نيجل فى خطابها ـ وهى تهتف فى دهشة وجذل ، فاستحوذت على انتباهه كله ٠٠ وظل زهاء ساعة يمشى من طرف الهلال الى طرفه الآخر ، وهو يجاذبها أطراف الحديث ، فلما اختفت ـ أخيرا ـ فى الطريق المؤدى الى معبد الاقصر ، يصحبها ترجمان خبيث الملامح ، كان فى رأيها « أذكى من فى الوجه القبلى وأشدهم سذاجة ! » ، أسرع ايزاكسون يهبط الدرج فى عزم مستقر ، حتى وقف على الرمال بجانب

حسن ، وقال : « اين تلك الدهبية التى كنت تتكلم عنها ؟٠٠ سوف أذهب لألقى نظرة عليها »

وقبل أن تغرب الشمس فى ذلك المساء ، كان يصعد الى سطح « فاطمة » ، وقد اصبحت له ٠٠ وكان قد ظل بضع ساعات يساوم اصحابها فى ثبات حتى ادركه الكلال ٠ ومع انه كان يحس بالتعب ، الا انه كان منتشيا بلذة الانتصار ، حين انتصب على السطح العلوى ، وقد وقف حسن فى خدمته ، بينما كان الملاحون يدفعون الدهبية بالمدارى من الضفة الى عرض النهر الذهبى ٠٠ ذلك لأنه ، برغم الدعوات والتوسلات الحارة من السيدة المريضة وغيرها من معارفه الكثيرين المقيمين فى الاقصر ، أصدر أوامره بالانتقال الى الضفة الغربية للنيل ، حيث يمكن أن يكون فى هدوء وسكينة ٠ وكان أصدقاؤه يصيحون به مودعين ، من الطريق أمام الحوانيت وأمام الفندق ٠٠ وكان المكاريون الذين لا يعرفهم يرفعون أيديهم بالتحية ، بينما كان السياح يقفون ليرمقوه بأنظارهم ٠٠ وراح يرد هذه التحيات ، ثم استدار الى الخلف ، وقد سرى فى نفسه شعور جديد ٠ وسرعان ما نسى ضجيج الاقصر وضوضاءها ٠٠ وكان « الريس » يقف على منصة مرتفعة فى مؤخرة السفينة ، جامدا ساكنا كانه تمثال من البرونز ، ممسكا بعجلة الدفة الكبيرة ٠٠ وكان الشراع الضخم يتدلى من الصارى الطويل متهدلا ٠ وفى تلك اللحظة ، لهثت الريح قليلا ، وبدأ الشاطىء يتراجع فى بطء ٠٠ وفي بطء كذلك أخذت « فاطمة » تزحف على ذهب النهر المجعد ، متجهة نحو ذهب الغرب المنبسط ٠ ووقف ايزاكسون وحده – مع رجاله المصريين – يشهد غروب الشمس على النيل للمرة الاولى ٠٠ وكانت الزوارق قادمة من (طيبة) على تلك الصفحة الذهبية فى طريقها الى الضفة التى خلفها وراءه ، وقد اخذ ملاحوها ينشدون أغانيهم العميقة الرتيبة التى تضبط ايقاع المجاديف ٠٠ لكم سمعت مسز ارماين هذه الاناشيد ، وها هو ذا ايزاكسون يسمعها بدوره ، فيتذكر النبض الخافق فى «سيمفونية» معينة – كان قد انصت اليها مع نيجل – ويفكر فى نبض الحياة الخفاق ، ويتأمل كذلك فى مصائر الرجال ومقاديرهم التى غالبا ما تكون قاضية مدمرة ! ٠٠ وما لبث أن غاص فى البهاء السحرى لذلك العالم القديم الذهبى الذى احاط به !

– لا أريد أن نرسو قريبا من أية دهبية أخرى !

فأجاب حسن : « حسنا ياسيدى » ٠٠ وأخرج الملاحون مداريهم من جديد ، بينما تجرد رجلان من ثيابهما ، وأسرعا يهبطان من السفينة ومعهما حبل غليظ ، ثم اخذا يعدوان على الشاطىء وهما يجذبان الدهبية ناحية الجنوب ضد التيار ، حتى بلغت موضعا منعزلا ، كان فيه رجلان يديران الشادوف فى

حمية واستغراق ٠٠ وفى هذا الموقع رست الذهبية لقضاء الليل

وأخذ الذهب يخبو رويدا ٠٠ وكان المنظر الخيالى الشبيه بالاحلام ـ والمؤلف من النهر والشاطىء وأحراش النخيل والجبال ـ قد غدا أقل تألقا واشد عمقا ٠٠ وكانت تلوح بعيدا ، هنا وهناك ، نافذة تلمع خلال هداة الغسق كلما مسها شعاع من الضوء الآفل ٠ واتكأ ايزاكسون على السياج ٠٠ كان فى هذه الأمسية ـ وبعد تلك الشهور الطويلة من العمل المضنى فى منزل بلندن محروم من كل ضياء حقيقى ـ يشعر كأنه رجل اقتيد الى السماء !٠٠ وكان الفلاحون العراة يتصايحون خلفه ، دون أن يحسوا بوجوده ، بينما كانت الاشعة الذهبية تخبو رويدا رويدا !٠٠ وظل فترة طويلة واقفا مكانه بلا حراك ٠٠ فقد اجتذب عينيه منزل أبيض على الضفة الاخرى للنهر ، فتعلقتا به ٠٠ كان منزلا منفردا ، يقوم وحده على الشاطىء ، بينما كان النهر يتدفق فى منحنى رقيق أمامه ، الى جانب دغلة منخفضة من الاشجار والخمائل ٠٠ وكانت نوافذ هذا المنزل تتألق بقوة كأنها جواهر مهتزة ٠٠ وأخيرا شد قامته واستوى واقفا بجوار السياج وهو يسأل حسن : « من الذى يقيم فى هذا المنزل ؟ »

ـ أحد النبلاء الانجليز ياسيدى ٠٠ اللورد ارمينيجل ٠٠ ولكنه ليس هناك الآن !

ـ وما نوع هذا المنزل ؟٠٠ ما اسمه ؟

ـ اسمه « فيللا أندرود » أيها السيد الكريم !

فهتف : « فيللا أندرود ! » ٠٠ اذن فهذا هو المكان الذى ذهب اليه ارماين لقضاء شهر العسل مع « بيللا دونا » ! ٠٠ وهذه النوافذ تتألق كأنها الجواهر التى أهداها اليها العديد من الرجال ؟!

وارخى الليل ستره ، وتلاشى غناء الفلاحين ، وبزغت النجوم من خدورها ٠ وكانت « فاطمة » تستقر حيث استقرت « اللولية » يوما من الايام ٠ وتناول ايزاكسون عشاءه منفردا على السطح العلوى ، تحت سماء مرصعة بالنجوم ٠٠ لسوف يبدأ فى فجر الغد رحلته الى جنوب النهر ٠٠ سيتبع « اللولية » حيثما ذهبت !٠٠ واذ فرغ من تناول عشائه ، صرف حسن لشأنه ، وراح يتمشى فوق سطح الذهبية وهو يدخن سيجاره الطويل ٠٠ وكانت أضواء الاقصر تتلألأ خلال الظلمة الرقيقة لهذه الليلة الساحرة ، كما كانت تنبعث من مكان ما أنغام خافتة لموسيقى وطنية بدائية

سوف يتبع « اللولية » غدا الى حيث ذهبت !!

وكانت السيدة المريضة قد افشت اليه ـ فى ذلك الصباح ـ كل ما كانت تعرف من أسرار وخفايا ٠٠ فان الثرثرة كانت احدى مسراتها الرئيسية فى الحياة ، وكان استمتاعها بالثرثرة لا يفوقه سوى استمتاعها بالصحة «المعتلة» !

٠٠ لذلك اطلعت طبيبها المحبوب « على كل ما هنـــاك من أنباء » ٠٠ وكانت أنباء أسرة ارماين هي ان نيجل ارماين أصيب بضربة شمس في (طيبة) ، وأنه كان « مريضا الى حد لا تستطيع الكلمات وصـــفه » ، وان « اللولية » مضت ـ بعد اقامة قصيرة على مقربة من الاقصر ـ جنوبا في النيل ، والمتوقع أن تكون الآن غير بعيدة عن معبد ادفو ٠٠ ولم يستطع أى شخص أن يضـع قدمه على ظهر الدهبية الرائعة ، سوى طبيب أمريكى شاب ، شـديد التأثر بسحر النساء ٠٠ كان هو الوحيد الذى سمح له بالصعود اليها ، وقد شخص المرض على أنه « ضربة شمس » ، ووصف لنيجل ارماين الدواء ، ثم عاد وقد انتابه « هذيان » الحمى بمسز ارماين !٠٠ مسكين ذلك « الأحمق المأفون » !

٠٠ وكان ايزاكسون يود لو استطاع أن يبادل هـذا الطبيب بعض الحديث ، ولكنه كان قد رحل الى أسوان !

وعلى سطح الدهبية الأسـفل بدأ الملاحون ينشـدون ٠٠ ومضى ايزاكسون يذرع السطح العلوى ذهابا وجيئة ٠٠ كانت هذه الحركة الرتيبة الخفيفة ـ التى تصاحبها الآن موسيقى رتيبة ولكنها غير رقيقة ـ تبدو وكأنهـــا تساعد على تنظيم أفكاره !٠٠ كان خليقا به ـ عندما فارق مريضته الثرثارة ـ أن يمضى الى مكتب البريد ويبرق الى« اللولية» ، فمن الممكن أن ترسل البرقية الى (ادفو) ٠٠ ومادام ينوى مغادرة الاقصر والاتجاه فى النيل الى الجنوب ، فمن المحقق ان الشيء الطبيعى الواجب عمله ، هو أن يخبر صديقه بمقدمه ٠٠ فلماذا لم يقدم على هذا التصرف الطبيعى ؟٠٠ الواقع انه قد تنكب الطريق السوى بوحى غريزى دفعه الى ذلك ٠٠ لو ان نيجل كان وحده على «اللولية» ، لكانت البرقية قد ارسلت حتما ٠٠ كان ايزاكسون يعرف ذلك ويدركه !٠٠ ولكن نيجل لم يكن وحده ، وانما كان معه جاسوس ، هو نفس ذلك الجاسوس الذى سعى الى الاتصال به واستطلاع أنبـــائه ، فى ميدان كليفلاند ٠٠ وقد يبدو ذلك سخيفا ، ولكن الواقع ان ذكر «بيللا دونا» هو الذى منع ايزاكسون من اعلان نبأ وجـــوده على النيل ٠٠ بل انه عزم على أن يسعى الى « بيللا دونا » كما سعت هى اليه ذات مرة ٠٠ لقد ظهرت فى ميدان كليفلاند وهى تطوى صدرها على باعثهـا الخفى ، ولسوف يظهر هو فى ظلال معبد « هوراس » ٠٠ وباعثه الخفى ؟٠٠ قد لا يكون لديه باعث ما يدرك كنهه ، فقد كان رجلا طالما قادته الغريزة ، وهدى خطاه الالهام !

ولقد كان شديد الثقة فى ريبته الغريزية فى بيللا دونا !

ولم تكن « فاطمة » دهبية رائعة كاللولية ، بل كانت صغيرة ، متواضعـة الأثاث ، خلوا من أسباب الترف ، تكاد لا تتوفر فيها وسائل الراحة الكاملة. ولقد رقد ايزاكسون ـ فى تلك الليلة ـ فوق حشـية بلغت من الرقة حـدا

جعله يحس بألواح الفراش تحته . وكانت المياه تغمغم بجوار رأسه ، وهى تحتك بجدار المركب ، فتبدو وكأن لها أصواتا عديدة ، أو كأنها تتبادل معا حديثا سريا فى سكون الليل الشامل !.. وظل طويلا يرقد مستيقظا فى الظلام .. شد ما بدت له هذه الظلمة مختلفة عن تلك الظلمة الاخرى فى لندن !.. وراح يفكر فى المعابد العظيمة الدانية منه ، وفى مقابر الملوك ، وفى جميع هذه العجائب التى ينبغى رؤيتها ، والتى يفد من أجلها السياح من أطراف الدنيا القاصية .. ومع ذلك فقد كان ايزاكسون يزمع الرحيل فى الفجر ، دون أن يرى منها شيئا !.. كان ذلك يبدو أمرا جنونيا !.. ولم يستطع أصدقاؤه أن يكتموا دهشتهم وذهولهم عندما اضطر لاخبارهم برحيله السريع !.. لقد كان يود ، بل انه كان مشوقا الى رؤية العجائب التى كانت أشد ما تكون قربا منه فى تلك الليلة : الكرنك ببواباته وأبهائه وتماثيله ، وبهو الاعمدة بتماثيله الجالسة جنبا الى جنب فى الخلاء والزرع النامى يحيط باقدامها ، وذلك الملك الراقد فى الرامسيوم ، وذلك الملك الحزين الذى يحدق الى الأبد فى الفضاء اللانهائى عند سفح الجبل !.. كان يتوق الى رؤية هذه الاشياء ، والكثير غيرها مما كان دانيا منه فى تلك الليلة .. ولكنه كان أشد شوقا الى أن ينظر لحظة فى عينى امرأة معينة .. وأن يمسك بيد رجل معين ويتفرس فى وجهه !

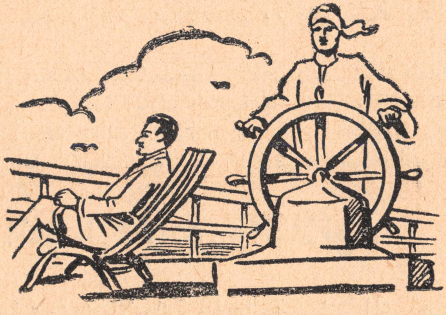
وهكذا كان بالغ الاغتباط عندما سمع فى انفجر وقع الاقدام العارية وغمغمة الاصوات فوق رأسه ، وعندما اهتزت الذهبية بعد قليل ، وترنحت ، فجعلت مياه النيل تتخاطب بلغة جديدة ، أشد حرارة ، وهى تحتضنها وتضمها الى صدرها !.. كان بالغ الاغتباط لأنه عرف انه ماض فى طريقه نحو (ادفو) !

الفصل الحادى والثلاثون

• **كثيرا ما** تحدث الأجازة الفجائية ، غير المتوقعة ، أثرا عكسيا فى الأيام الأولى منها ، على الرجل الدؤوب الذى ألف العمل الشاق واعتاده ، فتصيبه بالكلال والخمول ، بدلا من أن تشيع فيه القوة والنشاط . . وقد تنتج أثرها الطبيعى فيما بعد ، فتبعث فيه الحيوية وتجدد نشاطه وتشحذ همته !.. ويحس مثل هذا الرجل فى بادىء الأمر نوعا غريبا من الأعياء يدب فيه دبيبا ، وكأن شطرا منه قد أخلد الى

الرقاد والسبات ، بينما يستغرق شطره الآخر فى الأحلام والخيال !

وهكذا كان شأن ماير أيزاكسون الآن . . فقد نهض من فراشه الخشن نشيطا متوثبا، وصعد الى سطح الدهبية مليئا بحب الاستطلاع والترقب . ولكن ما ان أخذ اليوم يمضى — ذلك اليوم الطويل الملىء بضياء الشمس الذهبى — حتى كانت أحلام النيل تضمه الى صدرها فى هدوء وتؤدة . . كانت ساعات الفراغ الطويلة غريبة على هذا الرجل الذى كانت كل ساعاته مليئة مكتظة ، وكانت الوحدة غريبة عليه كذلك ، فقد صرف حسن ، وجلس وحيدا على السطح العلوى . . وحيدا الا من « الريس » الذى كان يقف خلفه جامدا كالتمثال ، ممسكا بعجلة القيادة الضخمة !



وكانت «فاطمة» ماضية فى رحلتها فى بطء وتمهل ، تزحف على سطح المياه السمراء المخضرة فيما يشبه دأب حشرة مائية هائلة وأناتها . . فقد كانت تبحر ضد التيار، كما كانت الرياح ضعيفة خائرة، وان كانت تهب من الشمال. وكان على الملاحين أن يقوموا بعملهم الشاق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وهم يسيرون عراة على الشاطىء وقد تعلقوا بالحبال الغليظة التى

يجرون بها الدهبية فى جهد شديد . وكان ايزاكسون يجلس فى مقعد طويل ويرقب كدهم المضنى .. **لقد ظل أعواما طويلة لايدرك كنه ذلك الشعور الذى يحسه من يرقب ـ فى بطالة كاملة ـ جهود الآخرين الشاقة .. كانت هذه الجهود تبرز وتضخم ذلك الجمود الذى يرين عليه، والذى بدأ عقله يشارك جسده فيه .. كان النيل يجرى على وتيرة واحدة ساحرة لذيذة ، حتى لقد بدأ يخضع لسحره ورقيته !** .. كان يسمع من بعيد ومن قريب، من الضفة الشرقية ومن الضفة الغربية، ذلك الصوت الرتيب الأبدى . . ذلك الصريف المنغوم المنبعث من السواقى ، تلك الدواليب المائية التي تدور بها الثيران .. كانت أشبه باللحن الأساسى فى مسرحية هذه الحياة الرغدة الكسول ، وكانت أنغامها المتواصلة عتيقة وسنانة، أشبه بأنين النائم ، لاتلبث أن تأسر لب المسافر المنفرد ، رويدا رويدا ، وتستحوذ على مشاعره !.. وكان رجال الشواديف ، فى صفوفهم الطويلة ، يتجهون بأنظارهم نحو الجنوب، وينشدون أغانيهم للسماء الصافية .. وكانت الحرارة القاسية تخيم فوق كل شيء ، وكل انسان !

أكانت هذه مطاردة حقا ؟ .. وأين كانت اللولبية ؟ .. والى أى مكان خفى زحفت ضد هذا التيار القوى المناهض؟.. لقد بدأ يلوح لايزاكسون أنه لايكاد يعنى بأن يعرف، بل انه أوشك أن ينسى سبب حضوره الى مصر ، وان ينسى صديقه .. و عدوه ! كان موشكا على نسيان كل شيء !.. واشتدت وقدة الحر ، وسكتت لهثات الريح وتلاشت . وقبيل الظهر ، أمر «الريس» بارساء الدهبية،حتى يستطيع الملاحون الذين كانوا يتصببون عرقا أن ينالوا قسطا من الراحة .. وأعدت مائدة على السطح ، فتناول ايزاكسون غداءه تحت مظلة من قماش القلوع .. فلما فرغ منه ، ورفع الخادم المصرى المائدة ، جاء حسن ووقف بجوار سيده ليسليه بالحديث . وكان

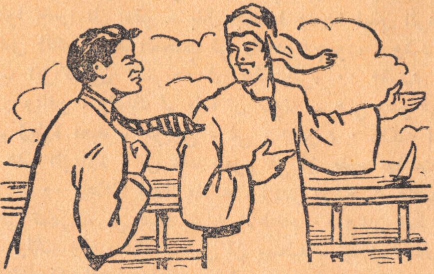
ايزاكسون فى تلك اللحظة ينظر ناحية الشاطىء ، حيث كانت ثمة ثغرة فى مقابل موقف الدهبية تماما ، يبدو خلالها عدد عظيم من الاشجار ، فسأل حسن : « هل توجد على النيل مزارع كثيرة للبرتقال ؟ »

فراح حسن يتحدث عن محمود بارودى .. ومن جديد عاد ايزاكسون يسمع عنه ، وعن ثرائه الفاحش الخرافى .. وتلا ذلك فيض من الحديث بلغة اختلطت فيها الانجليزية بالصينية أو العبرية أو ما شئت من الكلمات العجيبة . وجاء ذكر حمزة ، فعلم ايزاكسون بذهابه الى مكة لأداء فريضة الحج مع بارودى ، وبتفرغه – فى الوقت الحالى – لخدمة « السيد ارمينيجل » على « اللولية » .. ولم يقل ايزاكسون انه يعرف « السيد أرمينيجل » ، فقد احتفظ بسره وخططه ، وظل ينصت وينصت حتى نال الكلال أخيرا من بلاغة حسن ودلاقة لسانه !.. وكان الملاحون نائمين ، ومن ثم لم يكن الرحيل يبدو وشيكا . **وأراد حسن أن يهيىء لسيده نوعا من التسلية ، فاقترح عليه أن يقوم بنزهة على الأقدام فى بساتين البرتقال ، الى المنزل الذى تضمه بين أحضانها وتنهض على حراسته .. ووافق ايزاكسون فى تراخ ، فما لبث أن عبر الجسر مع دليله ، وسرعان ما اختفيا فى « فيللا ليلة الذهب » !**

وعندما هدأت سورة الحر ، وبدأ النهار يولى أدباره ، أخذت « فاطمة » تزحف من جديد فى طريقها . . كانت تمضى نحو الجنوب فى دأب وأناة كحشرة مائية ذات هدف معين يقود خطاها فى رحلتها . . واستدارت عند منحن فى النيل ، ثم اختفت عن الانظار !

وعلى طول ضفتى النيل كانت السواقى ترفع عقائرها بغنائها العتيق الحزين . . والصفوف الطويلة من الرجال السمر ينحنون وينشدون ويتجهون بأنظارهم نحو الجنوب !

الفصل الثانى والثلاثون



◆ فى الساعة العاشرة من ذات صباح ، وصلت « فاطمة » الى بقعة تجاه (ادفو) ، فبادر حسن الى مخدومه ينبئه ٠ ولم تكن اللولية قد شوهدت على صفحة النيل حتى ذلك الحين ٠٠ وكانت الدهبيات تمر - من آن الى آخر - على صفحة النهر المتألقة ، وهى تكاد تطفو بعرض النهر ، يحملها التيار الدافق السريع ، كما كانت بعض السفن التجارية تمر - من حين الى آخر - فتمخض مياه النيل وتحيلها الى زبد ، ثم تختفى مخلفة وراءها خطوطا بيضاء عريضة ٠ وعاد الحلم من جديد ٠٠ الحلم المغلف بالذهب ٠٠ الحلم الذى كانت أصوات الرجال السمر والسواقى تكسبه أنغاما ، والذى كانت أشجار النخيل تسبغ عليه ظلالا ، والنجوم ترمقه أحيانا ٠٠ ولكن « فاطمة » لم تمر بدهبية راسية ، وهى تمضى فى بطء ، وفى هدوء تام تقريبا ٠٠ ولو كان لايزاكسون ان يتمنى شيئا ، لما تمنى اسراعها قط ! ٠٠ كان النيل قد فرض سحره على الحساسية التى فطر عليها الطبيب ، فما شعر قط يوما بمثل هذا التأثير العميق لأى مكان زاره أو رآه ! ٠٠ كانت مصر قد وضعت عليه يديها ، فكأنهما يدا منوم مغناطيسى ! ٠٠ ولقد احتمل ضغطهما الرقيق دون مقاومة أو انفعال ٠٠ ودون مقاومة أو نضال أيضا أسلم نفسه الى تلك الارادة الجبارة التى راحت تتدفق منهما عليه تدفقا خفيا غامضا ! ٠٠ كانت الارادة الجبارة تهمس اليه ان يدع عقله يسترخى ، كما كان يجعل عضلاته تسترخى - فى لندن - كل يوم لفترة معينة ٠٠ وكانت تهمس اليه أن يكف عن نشاطه وحميته ، وعزمه وتصميمه ، ورغبته فى الكسب والاقتناء ، وأن يكون شديد الاستسلام ، مستغرقا فى الخيال والأحلام !

ولم ينزل الى البر لزيارة (اسنا) ٠٠ ولم يشأ ان يكون له شأن ببلدة (الكاب) ، فتملكت الدهشة حسن ، وهم بأن يراجع ايزاكسون فى هذا الأمر ، ولكنه ما لبث أن أحنى رأسه أمام مشيئة سيده الخيالى ٠ على أنه - حين وصلوا أخيرا الى ادفو - بذل جهدا جديدا ليثير الرغبة فى الفرجة والمشاهدة لدى ذلك السيد العجيب فى ركوده وجموده ، وشد ما كانت دهشته حين استجاب ايزاكسون لاقتراحه فى هذه المرة ٠٠ فقد كان شديد الحب للنقاء والجمال والفن ، ولذلك لم يشأ أن تفوته - حتى وهو فى غمرة استغراقه فى الخيال - زيارة معبد « حورس » فى (ادفو) ٠ ولكنه أبى على حسن أن يصحبه فى هذه الزيارة ، بل عقد العزم على أن يقوم بها منفردا ، غير عابىء بتقاليد النيل ! ٠٠ وهكذا تأبط مظلته ، ودس فى جيبه كتاب الدليل ، وغادر « فاطمة » فى تمهل ، بل فيما يشبه الاحجام ٠٠ وكان ثمة حمار ينتظره على ضفة النهر ، ولكنه وقف لحظة - قبل أن يمتطيه - يجيل أنظاره حواليه ٠وفيما كانت عيناه تتجهان ناحية الجنوب ، لمح على بعد سحيق صاريا مدببا لاحدى الدهبيات ، مشرعا فى ذلك الجو الوضاء ، مستقرا على الصفحة الزرقاء ٠٠ ولم يكن يتصل بالصارى شراع ما ، ومعنى ذلك أن الدهبية اما أن تكون راسية على الشاطىء ، أو انها قد خذلتها الرياح الخامدة واضطرتها الى الوقوف٠ وراح يتساءل فى عجب عما اذا كانت هى اللولية ، وعندئذ عاوده شىء من تحفزه المألوف ، وفكر لحظة فى أن يدعو اليه ذلك الساخط الحانق - حسن - فقد تستطيع عيناه الثاقبتان أن تتعرفا على الدهبية حتى وهى على هذا البعد السحيق ٠ كما فكر فى أن يعود الى دهبيته ، ويأمر رجاله باخراج مداريهم والمسير جنوبا ليتبين الأمر بنفسه ٠ وعندئذ عاد الحلم يطبق عليه مرة أخرى - فى هذا الدفء الذهبى - ويرفرف حوله ! ٠٠ فلماذا العجلة ؟ ولماذا يزعج نفسه ؟ ٠٠ وبدا ان التحفز أخذ يخبو ويذوب فى ذهنه ، وعندئذ حول عينيه عن ذلك الصارى البعيد ، وامتطى الحمار فسار به فى رفق الى المعبد ٠٠ وهناك ، لم يجد أحدا من السياح ، فصرف المكارى قائلا انه سوف يعود الى النهر ماشيا ٠٠ وكان يعلم أن شعوره بوجود أحد ينتظره ليرافقه فى عودته ، خليق بأن يحد من بلوغه ذروة الاستمتاع ، وقد تبين من فوره أنه على باب واحدة من أعظم المتع التى مرت بحياته ! ٠٠ ورضى الحارس الوطنى - بعد منحة جزيلة من المال - أن يدعه وشأنه ، بدلا من أن يقتفى خطواته ٠٠ وهكذا وقف للمرة الأولى فى احد المعابد المصرية القديمة !

ولبث بعض الوقت فى الساحة الخارجية ، حيث كانت أشعة الشمس الذهبية تتدفق فياضة ، بينما كانت الظلمة المقدسة - داخل المعبد - تبدو وكأنها

تدعوه اليها فى صمت ! ولكنه تمهل ريثما يتذوق طعم هذه المتعة على مهل .. فقد كانت أمامه فسحة من الساعات الذهبية الفارغة ، فما حاجته الى الاسراع ؟ .. وتقدم فى بطء نحو البهو ذى الأعمدة . وكانت أسراب الطيور تحلق حوله فى أشعة الشمس ، ولكن تغريدها الشجى وشقشقتها العالية كانت تقع على أذنين غير واعيتين كأن بهما صمما ، فان ذلك السكون العظيم الذى لازم الظلمة الممتدة أمامه كان يتدفق على ايزاكسون ويطوقه ويلفه فى غياهبه ! .. وبلغ الطبيب المدخل ، فوقف ، ثم استدار ينظر خلفه .. ومن خلال البوابة العالية الضيقة - بين الأبراج - لمح القرية الوطنية ، فاستقرت أنظاره لحظة على قباب أحد المساجد .. كان خلفه - فى القرية - أحد أماكن العبادة ، وكان أمامه مكان آخر لابد أنه كان يحتفظ بين ذراعيه الصخريتين بالمطامح الخفية ، والميول الصامتة ، والرغبات البراقة ، والصلاة الحارة المتواضعة للأقوام التى ولت عن بلاد الشمس هذه ، تاركة شطرا من حقيقتها خلفها لتحرك على مر الدهور نفوس الناس !

واستدار أخيرا ، ثم تقدم فى بطء - بل فى حذر - منتقلا من ضوء الشمس الى ظلمات المعبد .. وأفضت به الظلمة الى ظلمة أشد حلكة . وما شعر ايزاكسون قط من قبل ، فى أى مبنى دخله ، بهاتف يستحثه على التقدم بمثل هذا الالحاح الذى أحس به فى هذا المبنى ! .. ومع ذلك فقد تمهل لحظة ، وكان يقسره على التمهل هذا الكمال فى جمال الفن الذى طالعه فى ذلك المعبد .. وما حدث من قبل أن رأى شيئا من خلق الانسان يرضى النزعات الخفية لعقله وروحه بمثل هذه القوة الشاملة .. كان قد طغى عليه سلام يحمد ويثنى ؛ وسكينة تحب وتعبد .. فان هذا المعبد - الذى بنى للعبادة - خلق فى أعماقه الحاجة الى أن يكون عابدا .. وكان كمال فنه أشبه بصلاة كاملة ، تقدم طواعية الى الخالق الذى أودع فى الانسان مثل هذه القوة على الخلق ! .. ولكن الظلمة كانت تستحثه على التقدم - على الرغم من انه كان يحوم متمهلا ، وعلى الرغم من شعوره بالسكينة والسلام الى درجة غريبة - كما تدعو الصحراء الجواب الرحالة الذى يسافر فيها منفردا !

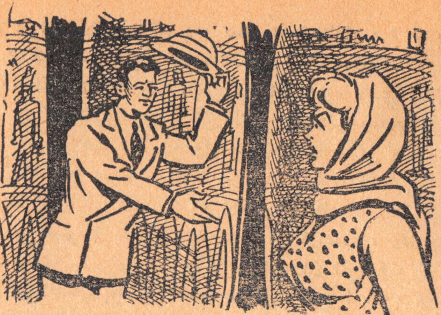
كانت تجذبه الظلمة المنبعثة من أعمق أعماق المعبد المقدس .. من قلب هذا البيت الالهى « للواحد المجهول » ، فمضى يتقدم بين الأعمدة وفوق الممرات الحجرية الضيقة . وعلى الرغم من أنه كان يوغل باستمرار ساعيا نحو ظلمة أشد حلكة وعمقا - والرجل العادى ترده الظلمة وتصده عادة أكثر مما تغريه وتغويه ! - فقد أحس كما لو كان يقترب من شىء مفرط فى الجمال ، بل شىء الهى ، وشىء كان منذ طويل ينتظره ويتمناه فى غير وعى منه أو شعور ! ..

فقد كان سحر المهندس الراحل يجثم فوقه ، كما كان « قدس الأقداس » يقع أمامه ٠٠ تلك الحجرة ذات الجدران الضيقة والسقف الأزرق ، التي تحوى مذبحا ومحرابا من الجرانيت ، والتي لا شك في أنها كانت تضم ، ذات يوم ، تمثال « حورس » ، اله الشمس ٠ وكان ايزاكسون يتوقع أن يجد في هذا المعبد المقدس شيئا يمثل ذلك « الكائن » الذى أقيم من اجله هذا المنزل الرفيع الشأن ٠٠ كان يخيل اليه ان الاله نفسه لابد وأن يكون ساكنا فى هذا السر الأخير من أسرار الجمال والظلام ٠٠ ومن ثم مضى يدخله فى رفق وسكون ، متأملا فى نظرات هادئة ، وان كانت عيناه منتبهتين يقظتين !

والى جانب الهيكل ، بل أمامه تماما ، كان يقف شبح أبيض !

وتحرك الشبح بينما كان ايزاكسون يهم بدخول المعبد المقدس ، وكأن دخوله قد أزعج ذلك الشبح ، بل روعه وأفزعه ٠٠ وسمع ايزاكسون حفيف الثياب ، فارتد الى الوراء ، وقد سرت القشعريرة فى أعصابه ٠٠ كان من الاستغراق فى التأمل ، كما كان ذهنه من البعد عن العالم الحديث ، بحيث أصابته هذه « الرؤيا » لشبح امرأة - لا ريب فى انهـا كانت من السياح مثله - بصدمة من أشد الصدمات المروعة التى لقيها فى حياته على الاطلاق !٠٠ وسرعان ما أحس كما لو ان ظهوره المباغت قد أصاب المرأة بصدمة بغيضة مماثلة ٠٠ فانها بعد الحركة المباغتة التى ندت عنها فى بادىء الأمر ، وقفت فى مكانها جامدة بلا حراك لحظة ، وهى تبدو فى الظلام مفرطة الطول الى حد خارق ! ٠٠ وما لبثت أن راحت تتقدم نحوه ، فى عزم قـوى ٠٠ وكانت مشيتها مألوفة لدى آيزاكسون على نحو عجيب ! ٠٠ وما كادت تبدأ فى السير حتى كان ايزاكسون قد سيطر على ذهنه سيطرة تامة من جديد ٠٠ وذهبت القشعريرة عن أعصابه ، وانبعث الرجل العادى فيه متحفزا ، رصـينا ، متسائلا !

ووصلت المرأة الى حيث كان يقف فى مدخل المعبد ، وراحت عيناها تتفرسان مليا فى عينيه ، وهى تهم بأن تمر ٠ ولكنها لم تمض ، ولم تتراجع الى الخلف ٠٠ كل ما فعلته هو أنها وقفت حيث كانت وراحت تنظر اليـه ٠٠ راحت تنظر اليه وكأنها ترى شيئا يقول لها عقلها - فى قوة وضراوة - أنها لا يمكن أن تراه ، وانها لم تكن تراه حقا ! ٠٠ وبعد لحظة من هذا التأمل ، أغمضت عينيها ٠ وقال ايزاكسون : « مسز أرماين ! » ٠٠ واذ تكلم ، فتحت مسز أرماين عينيها من جديد ، فعاد يردد : « مسز أرماين ! » ٠ ثم نزع قبعته ، ومد اليها يده ، وهو يستطرد : « اذن فاللولية هى التى رأيتها ؟! » ٠٠ وأعطته يدها ٠ وسرعان ما جذبتها ثانية ، ثم قالت : « أأنت فى مصر ؟! »



كانت مشيتها - رغم الظلام - مألوفة لديه ، ومن ثم فانها كانت قد أعدته للقاء « بيلا دونا » .. ولكن صوتها بدا غير مألوف لديه تماما ! .. كان قبيحا ، أشبه بالفحيح !.. وذكر أنه فى لندن كان يعد صـوتها من أعظم مفاتنها ، ومن أشد أسلحتها مضاء .. أتراه كان مخطئا ؟ .. أتراه لم يسمعه قط على حقيقته ؟.. أم تراه لا يسمعه الآن على حقيقته ؟ .. وأردفت تقول : « ماذا تفعل فى مصر ؟ » .. أجل ، كان صوتها قبيحا ، بشعا ، مروعا .. ولكنه أدرك الآن أن التغير الكامل الذى أصاب رنينه الأصلى ، انما تم تحت تأثير نوع من الانفعال استحوذ عليها وتملكها اذ ذاك !

وعادت تردد فى الحاح : « ماذا تفعل فى مصر ؟! »

وطهر ايزاكسون حنجرته ! .. وأدرك فيما بعد انه انما فعل ذلك بايحاء من تلك الخشونة الفظيعة التى كانت فى صوت مسز أرماين .. ثم قال : « لقد شعرت بثقل وطأة العمل ، وكنت متعبا ، فظننت ان من الخير أن أحصل على اجازة ! » .. فأخلدت الى الصمت لحظة ، وما لبثت أن قالت : « وهل أنبأت زوجى باعتزامك الحضور ؟ .. هل يعلم انك فى مصر ؟ » .. وكان صوتها وهى تقول ذلك قد غدا أشد قبحا وشناعة ، وأقل شبها بما كان عليه أصلا ، كأن الانفعال الذى سيطر عليها قـد ازداد وتضاعف فى تلك اللحظة ، وأصبح أشد حيوية وأكثر تعقدا .. فقال ايزاكسون : « كلا ، فقد غادرت انجلترا على غير توقع .. بدافع طارىء ! » .. قال ذلك فيما يشـبه الاعتذار ، دون أن يقصده .. فلما أدرك ذلك ، استعاد رصانته سريعا ، ثم استطرد فى برود ، وبلهجة مغايرة تماما : « اننى لم أخبر احدا بخططى ، وقد ظننت اننى سوف أقدم مفاجأة لنيجل ! » .. فهتفت : « نيجل ! »

عندئذ أدرك ايزاكسون أنه قد دعا صديقه ، لأول مرة ، باسمه الأول .. فقال : « ظننت اننى سوف أقدم لك ولزوجك مفاجأة .. وأرجو أن تغفرى لى ! » .. فأجابت بعد لحظة خالها دهرا : « وما الذى يستوجب الصفح والغفران ؟ .. ان كل امرىء يحضر الى النيل .. ولن يدهش المرء قط عندما يرى أى انسان يفد الى هنا ! » .. ولم يعد صوتها - فى هذه المرة - قبيحا مبحوحا .. كان قد بدأ يستعيد بعضا من ذلك الطابع الدافىء المتراخى الذى وجده عليه عند ما لقيها فى لندن ! .. ولكن ذلك السحر كان يبدو متعمدا ، وكأنما ألقت به فى صوتها بفضل جهد قوى من ارادتها ! وعادت تقول : « لقد استخدمت كلمة « يرى » ، ولكن الواقع أن المرء هنا لا يستطيع أن يرى أى شيء أو أى انسان بجلاء .. هيا بنا الى الخارج ! » .. وسارت خارجة من الهيكل الى البهو الذى يمتد خارجه ، وكان أقل ظلمة ، فتبعها ايزاكسون !

وألقى عليها ، فى ذلك الضوء الخافت ، نظرة سريعة .. كانت وقتئذ ، ترفع يديها الى خمارها الأبيض الكبير ، الذى كانت قد أزاحته فوق حافة قبعتها العريضة البيضاء . وقبل أن تسدله على وجهها - وان لم يخف معالمه تماما - استطاع ايزاكسون أن يرى أن ذلك الوجه كان عاطلا عن أية زينة ، وشاحبا ، كشحوب الأموات ! .. ولكن هذا الشحوب قد يكون طبيعيا ، فقد اعتاد أن يراها فى لندن فى أتم زينة دائما ، وكانت تستخدم المساحيق البيضاء .. ومن المحتمل أن يكون وجهها ، وهو خال من المساحيق والأصباغ ، ناصع البياض أيضا !

★ ★ ★

◆ ووقفت فى البهو ساكنة بلا حراك مرة أخرى ، ثم لم تلبث أن قالت : « انك شخص عجيب يا دكتور ايزاكسون ، فهل تعرف ذلك ؟ .. اننى لا أظن أن أى شخص آخر يمكن أن يظهر فجأة على هذا النحو فى مكان يعلم أن به صديقا له ، دون أن يخبر ذلك الصديق بحضوره !.. ولو لم تكن أنت ، لظن المرء حقا أن فى الأمر سرا غريبا ! » .. وأردفت عبارتها بضحكة يسيرة، ثم عادت تقول : « أحسب أن نيجل سوف يفاجأ بذلك مفاجأة شديدة ! » . فقال الطبيب : « أرجو ألا تكونى تعنين مفاجأة غير سارة ؟ .. فقد كنت أنوى ، كما قلت لك .. » . فقاطعته قائلة : « آه ، أجل .. أعرف ذلك كله . ولكن الواقع أن الأمر يبدو .. حسنا ، يكاد يبدو انه ليس مما يتفق وقواعد الصداقة أن تكون على ضفاف النيل ولا تخبر صديقك بحضورك على الاطلاق ! وفي رأيي ... ولكن كم مضى عليك فى مصر ؟ »

ـ اوه ! ٠٠ مدة قصيرة جدا ٠٠ ولا تظنى أننى قد تاخرت ، فاننى على العكس ٠٠

ـ لو انك تاخرت لكان الأمر معقولا تماما ٠٠ فانت لم تر مصر قط من قبل ، أليس كذلك ؟

ـ لم ارها قط ! ـ وكم قضيت فى الاقصر ؟

ـليلة واحدة ، على الدهبية بالشاطىء المقابل للاقصر

ـ وماذا رأيت هناك اذن ؟ ـ لا شىء على الاطلاق !

فرفعت يدها وراحت تعبث بخمارها فى رقة ، بينما كان يستطرد : « لقد خطر لى أن ارجىء مشاهداتى الى أن أعود فى النهر شمالا » ٠٠ فقالت : « ان معظم الناس يقومون بها وهم متجهون الي الجنوب ٠٠ ومع ذلك فقد وجدتك فى أحد المعابد ! » ٠٠ فقال : « انه اول معبد أطرقه ، فما كنت لأستطيع أن أمر بمعبد ادفو دون أن أدخله ! »٠٠وهنا تساءلت : « ولماذا ؟ » ٠٠ فأجاب : « لعلنى أحسست بأننى سألقاك فيه ! » ٠٠ قال ذلك فى رقة الرجل العصرى المهذب ، الذى يجامل امرأة حسناء ، ثم أردف : « وربما كان ملاكى الحارس هو الذى قادنى الى داخل قدس الأقداس لأنك كنت ٠٠ هل أقول : كنت مستغرقة فى التأمل بداخله ؟ » ٠٠ فتململت ، وخطت خطوة الى الأمام ، ثم قالت : « هل مكثت فى القاهرة طويلا ؟ » ٠ فأجاب : « ليلة واحدة ! » ٠٠ واذ ذاك توقفت ثانية عن المسير ، وهتفت : « يا له من تعجل عجيب ! »

ـ نعم ٠٠ لقد كنت مسرعا فى الحضور حقا !

ـ أحسب أن الوقت المتاح لك ، كى ترى كل شىء ، محدود ؟ ٠٠ ولعلك لم تأخذ الا اسبوعا أو اثنين كأجازة ؟

وأدارت رأسها ناحيته ، فخيل اليه ان عينيها كانتا تتألقان فى انفعال غريب ، وفى لهفة عجيبة ، تحت خمارها ٠٠ وعندئذ قال فى غير اكتراث : « لست أدرى ٠٠ ربما مكثت طويلا اذا طاب لى ذلك ! ٠٠ فالواقع ، يا مسز ارماين ، أننى بعد أن أقدمت على هذه المغامرة ، وهجرت مرضاى ، أصبحت أستمتع بوقتى على وجه مدهش ٠٠ فليست لديك أية فكرة عن ٠٠٠ » ٠ ولكنها قاطعته من جديد ، لتقول : « مرضاك ؟! ٠٠ ترى ما الذى سيفعلونه ؟ ٠٠ ولكن من المحقق أن عملك كله سوف ينهار ! »

ـ ما أرق شعورك اذ تشغلى بالك بهذا الأمر !

ـ اوه ، لست أشغل بالى ، ولكنى أتساءل فحسب ! اننى لا اعرفك حق المعرفة ، ولكنى اعترف بأننى ظننت انى قد فهمتك !

وقال يستحثها : « أجل ٠٠ وماذا فهمت ؟ » ٠ فأجابت : « لقد ظننتك رجلا واسع المطامع ٠٠ رجلا لا يتردد فى أن يتسلق الشجرة حتى قمتها ! » ٠٠ فتساءل : « والآن ؟ » ٠٠ فأجابت : « حسنا ٠٠ انك لا تسلك السبيل المؤدى الى هذا الهدف ٠٠ واننى ٠٠ اننى آسفة ! » ٠٠ قالت ذلك بلهجة عادية طبيعية تماما ٠٠ واذا كان ظهوره قد روعها ـ بل انه كان واثقا من انه روعها الى حد الفزع تقريبا ـ فانها كانت الآن تستعيد رباطة جاشها والسيطرة على نفسها ٠٠ واستطردت تقول : « ان النساء يستثرن السخرية أحيانا ، فهن دائما يعجبن بالرجل الذى يتقدم فى مدارج النجاح ، ويقتحم طريقه الى مقدمة الصفوف ! »

وراحا يسيران جنبا الى جنب فى بطء وتمهل ، حتى بلغا الساحة الخارجية الفسيحة ٠ ونسى ايزاكسون المعبد الرائع العظيم ٠٠ فقد كانت لهذه المرأة القدرة على أن تستحوذ على انتباهه كله ، وتستأثر به لنفسها ! ٠٠ وقالت : « ألا نجلس قليلا ، فاننى متعبة لفرط ما مشيت ! » ٠٠ ومضت فى تثاقل الى صخرة كبيرة يقع عليها الظل ، فجلست فى تراخ وهى ترفع فوق راسها مظلة بيضاء محلاة برسوم خضراء ٠٠ ولأول مرة منذ التقيا ،ذكر ايزاكسون وفاة اللورد هارويتش ، وعجب فى نفسه من الثياب التى كانت ترتديها ٠٠ واذا بها تقول : « آه ، أحسبك سمعت طبعـــا ؟ » ٠٠ وبوغت ايزاكسون لادراكها المفاجىء لما يدور فى خلده ، وقال : « سمعت ماذا يا مسز أرماين ؟ »

ـ بوفاة شقيق زوجى فجاة ؟ ـ لقد قرات النبأ فى الصحف

ـ حسنا ٠٠ لقد تصادف اننى لم أكن أحمل معى شيئا من ثياب الحداد !

وكان صوتها قد تبدل فى تلك اللحظة ، وغدا ـ وهى تقـــول ذلك ـ فى مثل صلابة الصخور ! ٠٠ وجلس آيزاكسون بالقرب منها ، ولكن الصخرة التى اتخذها مقعدا كانت تحت اشعة الشمس ٠ واستطردت تتابع كلامهـــا قائلة : « وفضلا عن ذلك فماذا يهم الأمر هنا ؟ ٠٠ ثم اننى لم أعـــرف هارويتش قط ، الا بمجرد النظر » ٠ ولم يقل ايزاكسون شيئا ، فأردفت تقول بعد هنيهة : « لذلك لم يكن بوسعى أن أكون شديدة الأسف لموته ٠٠ ولكن ذلك أزعج نيجل وروعه كثـــيرا ! » ٠٠ فسألها : « هل روعـــه حقـــا ؟ »

ـ الى حد فظيع ٠٠ واعتقد انك تعرف شدة حساسيته !

ـ نعم !

ـ ولم يكن فى مقدوره أن يسافر لحضور الجنازة ، فان المسافة جد بعيدة ٠٠ وما كان ليصل فى الوقت الملائم !

ـ أهذا هو السبب فى احجامه عن السفر ؟

ومن جديد ، رأى العينين تتفرسان فيه بحدة من تحت الخمار ٠ ثم قالت المرأة : « ان سفره كان عبثا لا طائل وراءه ٠ وقد أبرقت الليدى هارويتش لتقول ذلك ! » ٠ فغمغم : « لقد فهمت »

ـ لقد كانت دائما ضد نيجل منذ أن تزوجنى ٠٠ وانت تعرف احـوال النساء !

فأومأ برأسه موافقا ، بينما كانت تستطرد قائلة : « على ان هذا الأمر قلب كيان نيجل الى درجة مروعة ٠٠ وهذا هو السبب فى قدومنا الى هنا ٠ فقد أراد أن يفر بعيدا ، وأن ينأى بجانبه عن كل انسان ، ويظل وحـده معى !٠٠ بل انه لم يخرج معى هذا الصباح ، وفضـل أن يمكث فى الدهبية ٠٠ يا للمسكين ! ٠٠ انه لن يرى أحدا البتة مدة اسبوعين أو ثلاثة ! ٠٠ فقد هد هذا الحادث قواه ، لوقوعه فجأة ! » ٠٠ فقال : « اننى آسف لذلك » ٠ واذ ذاك أدارت رأسها ناحيته ـ وكانت وقتئذ تمسك بالمظلة منخفضة ـ ثم سألته فى تراخ : « كم من الوقت مكثت فى الاقصر ؟ ٠٠ لقد نسيت ! ولكن ألم تنزل فى أحد الفنادق ؟ وهل ذهبت رأسا الى سفينتك ؟ »

ـ لقد أمضيت بضع ساعات فى « ونتر بالاس »

ـ حقا ؟ ٠٠ ثم كرهت الاختلاط بهذا الحشد من الناس ، فيما أظن ؟

ـ انه لم يرقنى تماما !

ـ بوسعك اذن أن تتصور فزع نيجل المسكين منه فى هذه الظروف ٠٠ كما انه لم يكن فى صحة طيبة تماما فى الآونة الأخيرة ٠٠ كلا ٠٠ لم يكن مصابا بشىء ذى بال ـ لا شىء يدخل فى اختصاصك ! ـ انما أصابته ضربة من الشمس ٠٠ وكان ذلك ، بالاضافة الى هذه الوفاة ، مما جعله ينفر من كل انسان ٠ ولكنى مع ذلك سأحاول اقناعه بأن يقابلك فيما بعد ٠٠ ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة ، أثناء عودتك الى شمال النيل ٠٠ انك ستمكث بعض الوقت طبعا عند الشلال الأول ؟

فقال ايزاكسون : « هذا محتمل ! » ٠ فقالت : « اتفقنا اذن ٠٠ اثنـاء عودتك الى الشمال ٠ وسوف يسهل عليك أن تجـدنا ، فان مركبنا تدعى اللولية »

ـ اذن فقد أصابت زوجك ضربة من الشمس ؟

ـ نعم ، بينما كان يقوم بحفرياته فى الاقصر ٠ ومن الطبيعى اننى استدعيت طبيبا فى الحال ، وهو رجل لطيف يدعى الدكتـور بارنج هارتلى ٠٠ انه اخصائى عظيم الحذق ، من بوسطن ، وهو يتولى الاشراف على الحالة !

ــ أوه !٠٠ أهو يقيم على ظهر الذهبية ؟

ــ كلا ، فان نيجل ما كان ليرضى بأن يقيم احد من أجله ٠٠ ولكنه يشرف على الحالة ، وقد ذهب الى اسوان ليقابلنا اذا ما بلغناها ! ٠٠ هل تنوى الرحيل حتى الخرطوم ؟

وقال ايزاكسون : « ربما ! » ، فقالت : « لقد غدت هذه الرحلات ميسورة ! » ٠٠فغمغم : «نعم» ، بينما تابعت مسز ارماين حديثها قائلة : « لقد يسرت السكك الحديدية كل شيء ! » ٠٠ وغمغم ايزاكسون من جديد : « أجل ! » ٠ فاستطردت السيدة تقول : « اننى أهب كل شيء فى سبيل الذهاب الى الخرطوم ٠٠ فان الناس يقولون انها اشد روعة من أى شيء آخر حتى الشلال الأول » ٠٠ وهنا سألها : « ولم لا تذهبين اذن ؟ » ٠٠ فقالت : « قد نفعل يوما ، ولكن فى غير هذا الوقت ، فان نيجل ليس فى حالة معنوية تمكنه من القيام بشيء من هذا القبيل ٠٠ وفضلا عن ذلك ، ألا يبدو هذا امرا غير لائق ؟ ٠٠ أعنى قيامنا برحلة للمتعة والمشاهدة بعد وفاة اخيه بوقت قصير ؟ ٠٠ ان ذلك يبعث السأم الى نفسى ، طبعا ، ولكنى اظن ان نيجل على حق فى أن يخلد الى السكون ولا يقابل احدا مدة أسبوعين او ثلاثة » ٠٠ وقطع عليها استرسالها قائلا : « هل تسمحين لى بان أشعل سيجارا ؟ » ، فاجابت : « بالتأكيد ! » ٠

وعندئذ أخرج الدكتور ايزاكسون علبة سيجاراته فى بطء شديد ، وتناول منها سيجارا كبيرا ، ثم راح يتلمس علبة الثقاب حتى وجدها ، فأشعله ٠ وكان انهماكه فيما يفعل ــ وهو أمر كان يبدو طبيعيا وعاديا تماما ــ قد انقذه لحظة من الاضطرار الى الكلام ٠٠ فلما أشتعل السيجار وتوهج ، شرع يتكلم ، فقال فى بطء وتراخ ، كأنما كان من الرضى بحاله بحيث لا يهمه مصير شيء تحت السماء أو تحت الأرض : « ألا تظنين أن زوجك قد يحب أن يرانى ، ما دمت قريبا منه الى هذا الحد ؟ ٠٠ لقد عرف كل منا الآخر معرفة وثيقة طويلة الأمد ٠٠ كما أنك كنت الآن تتصورين أنه سوف يضايقه حضورى الى مصر دون ان اخبره » ٠٠ فاجابته فى فتور كأنما تبادله لهجته : « بالضبط ! ٠٠ ان الأمر كما تقول تماما ، فلو انه كان يتوقع حضورك لكان من المحتمل ألا تفرحه زيارتك فى شيء ! ٠٠ ولكن الدكتور بارنج هارتل الح بصفة خاصة فى ضرورة المحافظة على هدوئه وسكينته ، وأن نتحاشى أية صدمة له ، ولو كانت صدمة فرح وسرور ! »

ــ حقا ؟٠٠ أخشى ، والامر كذلك ، ان يكون فى حالة سيئة !

ــ أوه ، كلا ٠٠ لا شيء من ذلك ٠ انه يبدو أسوأ فى الظاهر مما هو

عليه في الحقيقة ، فقد بدل المرض لونه تبديلا اليما ، كما يحل به التعب سريعا ولأبسط مجهود .. ولكنه كان أسوأ من ذلك بكثير منذ اسبوع . اما الآن فانه يستعيد قواه يوما بعد يوم !

ـ هذا حسن !

ـ لقد أصر على القيام بحفرياته فى (طيبة) فى وقدة الحر ظهرا ، وقد رجوته الا يفعل ، بل توسلت اليه ، ولكن نيجل عنيد قليـــلا .. وكانت النتيجة اننى اضطررت لتمريضه !

ـ أظن ذلك قد أفسد رحلتك !؟

ـ أوه ، ليس هذا بأمر ذى بال ، ما دمت أرى نيجل فى تحسن !

فقال ايزاكسون ، وهو لايزال محتفظا بلهجته الفاترة ومسلكه المتراخى : « سيبدو مسلكى عجيبا حقا اذا أنا مررت به دون أن أقوم بزيارته .. فاننى أظن اننى سوف أمر بدهبيتكما . ولكن الا تزمعان الرحيل سريعا ؟ » .. فقالت : « ربما .. الحق اننى لا أدرى .. اذا أراد أن نرحل ، فســوف نرحل .. اننى سأفعل كل ما يريده ! » . فقال : « اذا رحلتما ، فسأمضى فى اثركما » .. وتمتمت وهى شاردة الذهن : « حسنا ! » . ثم اخذت تحرك مظلتها فى رفق ـ يمنة ويسرة ـ وهى تقول : « الواقع اننى اود لو كان فى استطاعتك ان تقــوم بزيارة نيجل ! » .. ثم اضافت فى نبرات تفيض بالود : « اصغ الى يا دكتور ايزاكسون ، دعنا نصل الى اتفاق ! .. سأعود الى الدهبية فأرى كيف حاله ، وبماذا يحس .. سأقوم بجس نبضه فى الواقع ، فاذا رأيت كل شىء على ما يرام ، فسأبعث اليك برقعة لتحضر الى ظهر الدهبية .. أما اذا وجدته متعبا ، أو غير ميال الى صحبة أحد ـ حتى ولو كنت أنت ـ فسوف أطلب اليك أن تدع هذه الفكرة وأن تؤجل زيارتك بضعة أيام قليلة ، وتحضر لزيارتنا فى أسوان .. ومع ذلك فان نيجل قد يرغب فى أن يراك ، بل قد تفيده هذه الزيارة .. لعلنى كنت مغـالية فى اللهفة على اطاعة أوامر الدكتور هارتلى ، مفرطة فى الحرص والحذر .. هل اتفقنا على ذلك ؟ » . فكان جوابه : « شكرا جزيلا »

ونهضت عن مجلسها ـ كما نهض هو ـ ثم أردفت قائلة : « ولو اننى اضطررت الى الرفض ، وما اظننى فاعلة ، ولكن .. لو حدث هذا ، فاننى أدرك انك ستفهم الأمر حق الفهم بطبيعة الحال ، فتمــر بدهبيتنا دون أن تزعج زوجى ، فانك كطبيب لن تسىء فهمى » .. فأجاب : « كلا ، بالتأكيد » .. واذ ذاك أرخت خمارها ثانية ، وهى تقول : « حسنا اذن ! » . وبسطت اليه يدها ، ولكنه قال : « آه .. سأمضى معك الى حيث يقف حمارك ..

اظنك جئت ممتطية حمارا ، أم تراك جئت فى القارب ؟ » .. فاجابت : « لا ، بل جئت على حمار » ، فقال : « اذن ، دعينى أبحث لك عن غلامك » .. ولكنها ردت عليه قائلة : « لقد ذهب ليزور بعض أصدقائه فى القرية .. ولكنه عاد ولابد .. وسوف أجده بسهولة ! »

بيد انه أصر على مصاحبتها ، فخرجا من الساحة الاولى ، خلال البوابة الضيقة العالية التى كانت لا تزال تحمل أطيافا من تلك الخضرة الزرقاء ، « لون الحب » الجميل الأخاذ ! .. ان هذا اللون يحدث فى النفس تأثيرا شبيها بذلك الذى يمكن أن تحدثه صيحة فرح رقيقة اذا ما ارتفعت فى معبد كئيب ! .. وأخذ ايزاكسون ينظر متأملا ، فخيل اليه ان ذلك اللون يوحى بما يجب أن تكون عليه المرأة فى حياة الرجل : شىء لذيذ ، رقيق ، سماوى ، ساحر أخاذ ، يحتاج للرعاية والحماية !.. وكان لا يزال يفكر فى « لون الحب » وفى رفيقته ، عندما وقف أمامها حمزة ، ساكنا هادئا ، جامدا كتمثال من البرونز فى ضوء الصباح الوضاء .. وكانت احدى يديه النحيلتين الرقيقتين موضوعة على العنان (اللجام) الاحمر لحمار قوى فخم المنظر ، بينما راح يتطلع اليهما بعينيه الشرقيتين المعبرتين الرائعتين ، اللتين كانتا - مع ذلك - لا تفضيان بشىء من أسراره وخفاياه جميعا .. فقال ايزاكسون لمسز أرماين بالفرنسية : « يا له من شخص عجيب رائع ! » .. فهتفت : « حمزة ؟ .. أجل ! » .. فسألها : « وهل يدعى حمزة ؟ » .. فأومأت برأسها ، ثم قالت : « انه من الاقصر .. والآن وداعا مرة ثانية ، وسوف أرسل لك الرقعة التى وعدتك بها فى وقت ما هذا الصباح ، أو قبيل المساء ! »

وفى حركة سريعة خفيفة - كأنها امرأة فى مقتبل الشباب - كانت قد استقرت فوق السرج ، وهى تستند الى يد حمزة .. وسمعها ايزاكسون تتنهد بينما كانت تمضى مبتعدة !

الفصل الثالث والثلاثون

◆ عاد ايزاكسون ثانية الى المعبد وحده ، ولكن سحر النيل كان قد تحطم .. كان الطبيب قد أوقظ من حلمه فى قسوة وعنف . بل لقد بلغ من حدة استيقاظه أن بدا الحلم وكأنه لم يحدث قط !.. وعاد ايزاكسون - من جديد - ذلك الرجل الذى كان فى لندن عادة .. رجلا غزير النشاط والتوفز ، يهودى الحس والشعور ، له عقلية الطبيب .. ووراء كل طبيب عظيم ، يكمن شرطى



عظيم !٠٠ وكان الشرطى هو الذى أخذ يمشى وحده الآن فى معبد (ادفو) ، والذى راح يسعى مرة أخرى الى الهيكل المظلم ، والذى مكث هناك فترة طويلة واقفا أمام المذبح المصنوع من الجرانيت ، ينصت بعقله - فى هـذا السكون المطلق - الى نبرات صـوت بشع قبيح !٠٠ حتى اذا اقتربت وقدة الحر فى الظهيرة ، عاد ايزاكسون أدراجه الى « فاطمة » ٠ ولم يتبين كم مضى من الوقت منذ أن فارقته مسز ارماين ، ولذلك سأل حسن - عندما صعد الى الدهبية - عما اذا كانت قد وصلته أية رسالة أو أية رقعة من الدهبية التى كانت ترسو الى الجنوب منهم ، غارقة فى الذهب الرجراج ٠٠ فكان الجواب مشفوعا بنظرة تنم عن الدهشة البالغة : « لا ياسيدى العزيز ! » ٠ فقال ايزاكسون فى صبر نافد وهو يشير ناحية النهر :

- هذه الدهبية هى « اللولية »

- اننى أعرف ذلك طبعا يا سيدى !

وكان صوت حسن يبدو مليئا بالاشفاق والازدراء !٠٠ فقال ايزاكسون : « حسنا ، اننى أعرف الناس الذين عليها ، فانهم ٠٠ أعنى ان واحدا منهم ، صديق لى ، وهذا كل شىء ٠٠ والآن ، لك أن تذهب الى السطح الاسفل ! » ٠٠ وبدأ ايزاكسون يذرع السطح ذهابا وجيئة ، بل انه دفع المقاعد الى الوراء ، فألصقها بالسياج ، حتى يفسح المكان لحركاته ٠٠ وعلى الرغم من أن وطأة الحرارة أخذت تشتد ، وأخذ العرق يتصبب من جبهته ووجنتيه ، رغم جفاف الجو ، فانه لم يستطع أن يكف عن المشى ٠ ولقد فكر مرة - فى دهشة وعجب - فى ذلك الجمود الشامل الطويل الذى كان يعتريه منذ أن غادر الاقصر ٠٠ كيف استطاع أن يبقى غارقا فى مقعده ساعات بعد ساعات ، لا يفعل

شيئا الا التحديق فى المياه الجارية حوله ، وفى ضفتى النيل المتشابهتين اللتين تجريان الى جانبيه على وتيرة واحـــدة ؟٠٠ وكان الى جوار « فاطمة » رجلان يديران الشادوف ، ولا يكفان عن الغناء والانحناء ، فهل كان غناء الشادوف يهدهده ويبعث فيه خدرا لذيذا ؟٠٠ هل كان يدفعه نحو الخيال والاحلام ؟٠٠ كلا ، انه لم يكن ليسمع فى أصوات هذين الأسمرين - وهما يغنيان - سوى نبرات القسوة والعنف ٠٠ ولم تكن حركاتهمـــا الرتيبة المنغومة تعبر ، فى نظره ، الا عن القسوة والعنف !

واذ حان موعد الغـداء ، تناوله فى عجلة ، دون أن يستسيغ شيئا مما كان يأكل ٠٠ وما كاد يفرغ منه ، حتى أحضرت له القهـــوة ٠٠ ولم يحضرها له « السفرجى » كالعادة ، وانما أحضرها حسن الذى لم يعد قادرا على اخفـــاء فضوله ودهشته ٠٠ فقال وهو يقف متفرســـا فى مخدومه : « لم تأت أية رسالة لك ياسيدى العزيز ! » ٠٠ فقـــال ايزاكسون وهو يتظاهر بعـــدم الاكتراث : « لم تأت ؟! » ٠٠ فقال حسن : « لقد كان الرجال جميعا نائمين فاستيقظوا ، و « الريس » على استعداد للرحيل ٠٠ ويمكننا ان نقف بجوار اللولية ونأخذ الرسالة بأنفسنا » ٠٠ فصاح الطبيب : « كلا ٠٠ لن أرحـــل فى الوقت الحاضر ، فما زال الحر شديدا ! » ٠٠ فكشر حسن عن نواجذه الطويلة التى كانت تبدو كأنيـــاب وحش ٠٠ وأدرك ايزاكسون انه ســـوف يسمع احتجاجا ، فأردف قائلا فى حزم : « سأصدر أمرى عنـدما أكون مستعدا للرحيـــل !٠٠ والآن ، اذهب الى حجرتى تجد عـــلى المقعد الملاصق للفراش منظارا مكبرا » ٠٠ ورفع يديه الى عينيه مقلدا حركة النظر من خـــلال منظار مكبر ، ثم استطرد : « فاحضره ! »

واختفى حسن لحظة ثم عاد يحمل المنظار ، فقال له ايزاكسون : « شكرا٠٠ هذا كل ما أريد ! » ٠٠ ولكن حسن ظل واقفا ينتظر ، فعاد الطبيب يقول : « لك الآن أن تنصرف ! » ٠٠ فمضى حسن فى تثاقل ، وكان جســـمه كله - لا وجهه فحسب - يفيض بالعبوس والتجهم ، كأنه فريسة غضب مرير !٠٠ وتناول ايزاكسون المنظار فرفعه الى عينيه محدقا ناحيـــة الجنوب فى النهر ، ولكنه لم ير الا منظرا مختلط المعالم لا يبين منه شىء ٠٠ فقـــد عبث حسن بالمنظار وبدل بؤرة عدساته !٠٠ وعصف الغضب بايزاكسون فجأة ، فكشف بذلك عن مبلغ ما كان يعتمل فى نفسه ٠ وبينما كانت اصابعه تعمل بسرعة لضبط بؤرة العدسات لتلائم نظره ، كان فى دهشة مما بدا من تهور فكره واندفاعه ٠٠ غير أن هذه الدهشة لم تلبث أن تلاشت ، ولم يعد ايزاكسون سوى ذلك المراقب الذى تركزت حواسه كلها فى المراقبة وانهمك بكليته فى الاستطلاع !



كان المنظار من نوع قوى جـدا ، وكان ايزاكسون يعرف ذلك بطبيعة الحال ·· ومع ذلك فقد تملكته الدهشة للقرب الذى بدت عليه « اللولية » خلال ذلك المنظار ، اذ أصبح بوسعه أن يتبين جمال معالمها ، وأن يميز لونها·· ذلك اللون الأبيض المماثل للون الحليب ، والمموه بالذهب ! واستطاع أن يرى علمين يرفرفان عليها ، أحدهما فوق قمة الصارى ، والثانى فى المؤخرة ·· كما رأى تلك المظلة التى كانت تخفى السطح العلوى !·· أجل ، استطاع أن يرى ذلك كله !·· وخفض المنظار قليلا ، فأصبح ينظر مباشرة الى الشرفة التى تتفرع من حجرة « الفسقية » ، وكانت تغطيها مظلة كبيرة ، ولكنجوانبها كانت مكشوفة كلها ·· ثم تبين شبحا ، أشبه باندمية ، يتحرك فى تلك الشرفة الى جوار السياج ·· اتراها مسز ارماين ، أم انه صديقه المريض ؟·· وراح يحدق فى امعان شديد ، حتى لقد احس بما يحس به من يبذل جهدا بدنيا قاسيا ، وبدات عيناه تؤلمانه ، وشعر بوخز فى جفونه ، فأخـذ يفرك عينيه قليلا ·· وما لبث أن رفع المنظار ثانية وراح ينظر من جديد !·· وفى هـذه المرة ، رأى قاربا صغيرا ينفصل عن اللولية ويزحف عـلى النهر زحفا غـير محسوس ·· وكانت الدمية لا تزال تتحرك بجوار سياج الشرفة ، ولكن ماكاد القارب يتقدم فى النهر شـمالا ، متجها ناحية ايزاكسـون ، حتى كف عن الحراك !

ووضع ايزاكسون المنظار جانبا ، وعندئذ حانت منه لفتة فرأى عينى حسن الخبيثتين ترقبانه من السطح الأسـفل ·· ولكم تمنى وقتئذ أن يلطم حسن لطمة تصرعه أرضـا ! ولكنه تظاهر بأنه لم يره ، وجلس على أحـد المقاعد الطويلة ، بعيدا عن متناول عينى حسن، وراح ينتظر قدوم رسول « بيللا دونا »

٠٠ ومع ان عقله البوليسى قد انباه بما لابد أن تكون عليه هذه الرسالة ، الا ان شيئا ما فى اعماقه ، وشطرا آخر من كيانه ، راحا يناضلان فى سبيل تكذيب نبأ رجل البوليس ، ويحتجان بأنه لا يستطيع ان يبت فى الامر قبل ان تصير الرسالة بين يديه فعلا ٠٠ وكان هذا الشىء المكذب المحتج هو ذلك الجزء من الرجل ، الذى تسوقه الى النشاط رغبته القوية المستترة ٠٠ الرغبة التى كان حبه الغريزى للحقائق المجردة للاشياء يعلن عدم جدواها ، ولكنها كانت تابى رغم ذلك ان تظل خاملة !٠٠ كان ايزاكسون يتوق - فى قرارة نفسه - الى أن تكون الرسالة على النحو الذى كان يعلم عن يقين أنها لن تكون عليه !

وأخيرا سمع خفق المجاديف على الماء بجوار « فاطمة » ، وأصوات الملاحين العميقة وهم يهمهمون بأنشودة رتيبة تضبط الايقاع للمجدفين ٠٠ ومع ان هذه الاصوات كانت ترتفع اليه من عالم ذهبى ، الا أنها كانت اشبه بأنشودة القضاء والمصير !٠٠ ولم يتحرك من مكانه ، كما انه لم يحاول النظر من فوق السياج ٠٠ وسكت الغناء ، وانقطع صوت المجاديف ، واحس بارتطام خفيف ، تلته أصوات خشنة تتبادل الحديث ٠٠ وان هى الا دقيقة حتى كان حسن يصعد الدرج المؤدى الى السطح ، وهو يحمل خطابا بين أصابعه المقوسة السوداء ، قائلا : « ها قد وصلت الرسالة ! » ٠ فتناولها ايزاكسون وقال : « لا حاجة بك الى البقاء » ٠٠ ولكن حسن لم يتحرك من مكانه ، وغمغم يقول: « اننى فى انتظار الـ ٠٠ » ، ولم يمهله ايزاكسون ، بل صاح : « امش من هنا ! »

وما حدث قط من قبل أن استخدم ايزاكسون مثل هذه اللهجة الجافة ، القاسية ، مع أحد من اتباعه !٠٠ فلما ذهب حسن ، فض ايزاكسون الخطاب بيد مرتعدة ٠٠ ولم يكن خطابا طويلا ، فاستطاعت عيناه أن تلما بكل كلمة فيه فى لمحة واحدة ٠٠ استطاعتا أن تلما بكل كلمة ، وان تحملا الى عقله ذلك المعنى غير المرغوب ، الذى يؤكد صواب غريزة الشرطى !

اللولية - النيل
يوم الاربعاء ٠٠٠

« عزيزى الدكتور : لقد وجدت من الأفضل ألا تحضر ، فعندما رجعت الى الذهبية ثانية ألفيت نيجل منكبا على قراءة بعض ما نشر عن وفاة هارويتش ، فتوسلت اليه أن يدع ذلك جانبا ، وألا يطيل التفكير فيما لا حيلة لأحد فى دفعه (فاننا لم نتلق الصحف التى تحدثت عن هارويتش الا بالأمس فقط) ٠٠ ولكنى أعتقد انه بسبب مرضه - يا للصبى المسكين ! - كان يميل الى

الاشياء التى تزيد من انقباضه واكتئابه !.. وما كان ينبغى لى أن أتركه ، ولكنه كان قد ألح على الحاحا شديدا فى أن أذهب لزيارة المعبد ، الذى لم أكن قد زرته من قبل .. وقد أقنعته بأن ينحى الصحف جانبا ، وهأنذا أكرس نفسى للتسرية عنه ، وادخال السرور على نفسه .. ونحن الآن نلعب الورق معا ، او أعزف له بعض الموسيقى ، أو أقرأ له بصوت عال .. واهم مايجب عمله الآن - الآن وقد بدأ يميل الى التحسن - هو الا نعرضه للانفعال والاثارة بأى شكل .. وانك ياعزيزى الدكتور - ومعذرة لهذا القول - لشخص مثير ! .. فان لك عقلية جبارة تثير عقل كل امرىء ، وقد كنت دائما ألاحظ منك ذلك .. ولما كان نيجل مولعا بك - كما هو شأنه دائما - فاننى أخشى فى هذه الآونة أن تسبب له ارهاقا شديدا ، وتنهك قواه ، لانه سريع التأثر والانفعال الى حد بعيد منذ أن أصيب بضربة الشمس .. وعلى ذلك أرجو أن تتجاوز عن زيارتنا ، وأن تتفضل بانتظارنا فى أسوان .. وسوف يكون فى وسعنا أن نستقبلك بعد أيام قليلة ، وعندئذ ، عندما يكون نيجل قد ازداد قوة ، فمن المحتمل أن تكون ذا عون عظيم له ، لا كطبيب - فانت ترى أن لدينا طبيبا لا ينبغى أن نتركه ، وهى تقاليد المهنة كما تعلم - وانما كصديق ! .. وان شعورنا بأنك ستكون فى (أسوان) ليبعث فينا السرور والغبطة .. أما اذا كنت على شىء من القلق من ناحية صديقك ، فيمكنك عندما تذهب الى أسوان أن تسأل عن الدكتور بارنج هارتلى - اذا شئت - فى فندق «كتاراكت» .. وسوف يطمئنك ويريح بالك ، كما أراح بالى.. فالمسألة كلها الآن لاتعدو الحاجة الى الراحة والهدوء الكاملين حتىيستعيد قواه - المخلصة : روبى ارماين »

« ملحوظة : لا تدع رجالك يثيرون ضجة كبيرة أثنـاء مروركم بنا ، فان نيجل ينام فى أوقات غريبة غير مألوفة .. ولعل من الأصـوب أن تجعلهم يدفعون الذهبية على طول الضفة المقابلة »

★ ★ ★

◆ نعم .. لقد كان الشرطى على صواب ، طبعا !

وعاد ايزاكسون يقرأ الخطاب من جديد ، ولكنه كان يقرأه متمهلا فى هذه المرة .. كان الخط كبيرا واسعا ، واضحا ، ثابتا ، ولكنه كان يبدو مرتعشا هنا وهناك ، كما كانت به كلمة مقلوبة .. وعندئذ خيل اليه أنه قد اكتشف علامات تدل على ....!

وقرأ الملحوظة أربع مرات .. واذا كان الخط قد ارتعش فى صلب الخطاب قليلا ، فانه استعاد ثباته فى سطور الملحوظة . وكان ايزاكسون وهو يحدق النظر اليها يشعر كما لو كان ينظر الى انذار !.. وسمع وقع أقدام خفيفة

خلفه ، كأنها وقع خطوات حيوان أملس القدمين يدب نحوه ٠٠ ثم سمع : « سيدى ، ان النوبيين ينتظرون ما تريد أن تقوله للسيدة الحسناء ! » ٠٠ فنهض ايزاكسون من مقعده وراح ينظر من فوق السياج ، فرأى تحته زورقا أبيض ضم اثنين من الملاحين ـ من الرجال السود ذوى الطلعة البهية والقوام الرشيق ـ وقد جلسا القرفصاء يدخنان ٠٠ وفى مؤخرة القارب ، كان حمزة يصلى ، خلف مقعد مريح ذى ظهر مرتفع ٠٠ فلما أطل ايزاكسون من أعلى الدهبية ، حياه الملاحان النوبيان ، ولكن حمزة لم يره ، فقد كان منحنيا يضع جبهته فوق الخشب ، ثم نهض جالسا وهو يضع يديه على فخذيه ، وما لبث أن عاد الى السجود ثانية ٠٠ وظل ايزاكسون لحظة يرقبه فى استغراق وانهماك !

ـ حمزه مكارى طيب جدا ٠٠ دائما يصلى !

كان ذلك صوت حسن !٠٠ فارتد ايزاكسون عن السياج قائلا : « سلهم عما اذا كانت السيدة تنتظر ردا ٠٠ انهم لا يتكلمون الانجليزية ، فيما أظن ؟ » ٠٠ فأجابه حسن : « كلا ياسيدى » ٠٠ ثم تحدث بالعربية ، فرد عليه أحد الملاحين ٠٠ ولكن حمزة لم ينقطع عن الصلاة !٠٠ وعاد حسن يقول : « لقد ذكرت السيدة انك ربما كتبت لها شيئا » ٠٠ فقال ايزاكسون : « لا بأس ! » ٠٠ ثم جلس وأخرج قلما وورقة ٠٠ ولكن ماذا ينبغى أن يكون جوابه ؟٠٠ وراح يقرأ خطاب مسز ارماين ثانية ٠٠ لقد كانت زوجة نيجل ، وسيدة دهبية نيجل ٠٠ ومن ثم فقد كان من المستحيل عليه أن يلح فى الذهاب الى تلك الدهبية ، بغير دعوة ٠٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد طلبت اليه عدم الحضور !٠٠ ومع ذلك ، ترى هل أخبرت السيدة زوجها بأن صديقه فى مصر ؟٠٠ الظاهر انها لم تفعل ٠ انها لم تقل ان كانت قد أخبرته أم لم تخبره ، ولكن الشرطى ـ فى أعماق الطبيب ـ كان موقنا بأنها قد أمسكت لسانها عن ذكره ! حسنا ، لقد كان الملاحان ينتظران الرد ، وحتى هذا « التمثال البرونزى » حمزة لن يظل يصلى الى الأبد !

عندئذ غمس ايزاكسون القلم فى المداد ، وأخذ فى الكتابة ٠٠ وما لبث أن قال لحسن وهو يعطيه الرقعة : « هذه للسيدة » ٠ فلما مضى يهبط الدرج ـ وهو يرفع أطراف « جلابيته » ـ نهض ايزاكسون وراح يطل من فوق السياج ثانية ٠٠ والتقت عيناه بعينى حمزة ، ولكن حمزة لم يحيه ! بل ان ايزاكسون لم يكن واثقا من ان حمزة قد رآه !٠٠ وألقى الملاحان بقايا لفافتيهما فى الماء ، ثم انحنيا فوق المجاديف ، وعندئذ اندفع القارب موغلا فى الذهب الرجراج٠٠ وعاد ايزاكسون يسمع تلك الهمهمة الخافتة للأنشودة التى توحى بنذير مشئوم ٠٠ وظل الصوت يخفت ، ثم يتضاءل ، حتى تلاشى أخيرا ٠٠ وبقى

ايزاكسون متكئا على السياج يرقب « الفلوكة » الزاحفة ، ويتمنى لو انه كان فيها ، ذاهبا لرؤية صديقه !٠٠ ترى ماذا هو فاعل الآن ؟

وبدأ يذرع السطح من جديد ٠٠ ان المسافة الى أسوان ليست بعيدة جدا٠٠ جبل (سلسيل) ، ثم (كوم امبو) ، ثم (أسوان) ٠٠ انهـا حوالى مائة وعشرة من الكيلو مترات ، تقطعها السفن البخارية عادة فى ثلاث عشرة ساعة ٠٠ ولكن « فاطمة » وهى تزحف ضد التيار ، ستستغرق وقتا أطول من ذلك بكثير ٠٠ وفى وسعه ـ عندما يصل الى أسوان ـ أن يبحث عن ذلك الرجل ، « بارنج هارتلى » ٠٠ ولكنها هى التى اقترحت ذلك ! ٠٠ وكم يشك فى هذه المرأة ولا يثق فيها البتة !٠٠ لقد كان ومسز ارماين يرتبطان بكراهية متبادلة، وقد أدرك عنـدما التقى بها فى لنـدن انهما قد يكونان كذلك ، أما اليوم فقد أصبح يعلم أنهما كذلك حقا !٠٠ لقد خيل اليه انه قرأ دخيلتها فى يسر ويقين غير عاديين ، وكان يعلم انها قد استشفت دخيلته فى يسر ويقين مماثلين ٠٠ كانت كراهيتهما أشبه بلوح من الزجاج الشفاف ، وقد راح كل منهما يتطلع الى الآخر من خلاله !

وتناول منظاره ثانية ورفعه الى عينيه ٠٠ كانت « الفلوكة » قد شـارفت اللولية الآن ، وعادت الدمية على الشرفة تتحرك بجوار السياج من جديد ٠٠ وكان واثقا من أن تلك الدمية لم تكن سوى مسز ارماين ، وانها كانت قلقة لا يقر لها قرار فى انتظار رده ٠٠ وما لبث القارب الصغير ان التقى بالدهبية حتى بدا كأنه قطعة منها ٠٠ وتحركت الدمية ثم اختفت عن الانظار ، وعندئذ أنزل ايزاكسون المنظار عن عينيه ، ووضعه جانبا !

لقد قبل ـ فى رقعته الى مسز ارماين ، وهى الرقعـة التى كانت تقرأها الآن ـ قرارها فى لهجة مؤدبة ، وأعرب عن عزمه على لقائهما فى أسوان ، ولكنه لم يكتب شيئا عن الدكتور هارتلى ، ولم يجب بشىء على ملحوظتها ٠٠ كان خطابه أقصر من خطابها ، ويحمل طابع قلة الاكتراث والفتور ٠٠ فقـد عنى ، وهو يكتبه ، بأن يوحى اليها بالشعور بأن الأمر كله كان طفيفا ، وانه لم يكن ينظر اليه باهتمام ٠٠ ولكنه ، هو أيضا ، كتب ملحوظة فى ختام خطابه، وكان نصها :

« ملحوظة : اننى أتطلع فى سرور الى تعارف حقيقى بينك وبينى فى أسوان»

والآن ، لو انه أصدر أمره للريس بفك رباط الدهبية ، ودفعها بعيدا عن الشاطىء ، واخراج المجاديف الكبيرة ، والعبور الى ضفة النهر الغربية ، فلن يلبثوا حتى يكونوا فى موازاة اللولية ٠٠ وبعد قليل تصبح اللولية وراءهم٠٠ ولا تلبث بعد قليل أن تختفى عن أنظارهم !

« والله وحده يعلم متى سيكونون فى أسوان ! » •• والفى ايزاكسون لسانه ينطق بهذه العبارة دون وعى •• كان يشعر بانه ما أن تستدير « فاطمة » عند منحنى النيل وتنساب مختفية عن الانظار – فى رحلتها البطيئة صوب الجنوب – حتى ترفع اللولية مراسيها وتنطلق صوب الشمال !• ولكن هل كان ذلك مجرد شعور فقط ؟•• كلا ، بل كان ايزاكسون يدركه عن يقين ، وكانه كان يراه أثناء حدوثه •• لذلك لم يلبث أن هتف : « حسن ! » • فلما لبى حسن النداء ، أمره بأن يخبر « الريس » انه ورجاله يستطيعون أن ينعموا براحة طيلة ما بعد الظهيرة • واستطرد يقول : « لسوف أذهب الى ادفو ثانية ، وربما قضيت بضع ساعات فى المعبد ! » •• فقال الرجل : « انه معبد جميل جدا » •• وكان جواب ايزاكسون : « نعم •• وسوف أذهب وحدى ، سيرا على الاقدام ! »

وبعد دقائق كان ينطلق فى طريقه نحو المعبد ، حيث مكث وقتا طويلا •• وعندما عاد الى « فاطمة » ، كان العصر يولى الأدبار •• وفى الفضاء الاثيرى الممتد أمامه ، كانت اللولية لا تزال قابعة بلا حراك •• وسأله حسن : « أنرحل الآن » ، فهز ايزاكسون رأسه نفيا • واذ ذاك ، عاد حسن يتساءل: « أنرحل فى المساء ؟ » ، فأجابه : « سوف أخبرك عندما أريد الرحيل •• ولا داعى للاستمرار فى القاء هذه الاسئلة على ! »

كان الترجمان قد بدأ يثير أعصاب ايزاكسون ، حتى لقد فكر فى أن يطرده على الفور ، بعد أن يجزل له العطاء ، وينزله الى الشاطىء فى تلك اللحظة بالذات •• وكان الدافع قويا ، ولكنه قاومه ، فقد يكون الرجل ذا نفع له وقتا ما •• وعندئذ راح ايزاكسون ينظر اليه متفحصا وهو يمعن فى التدبر والتفكير • وعاد حسن يسأله : « وما الذى أستطيع ان أؤديه للسيد ؟ » •• فأجابه : « لا شىء ، سوى ان تمسك لسانك ! »

وفيما كان ينظر الى حسن ، خطر لايزاكسون أمر ثم ما لبث أن نبذه •• كان قد فكر فى أن يرسل الترجمان برسالة الى « اللولية » •• وسيكون من اليسير أن ينتحل عذرا لهذه الرسالة ، وربما رأى حسن نيجل ، بل انه سيسعى الى رؤيته اذا ما أوحى اليه تلميحا بأن يفعل •• ولكنه سوف يرى أيضا مسز ارماين ، واذا لم تكن غريزة ايزاكسون والهامه قد ضلا السبيل فى برية من الخطأ والسخف ، فان المرأة كانت خليقة بأن تفيد من حسن أكثر مما كان يستطيع هو ، فقد كان الترجمان يحمل طابع الخيانة والغدر موسوما عليه !•• وكانت مسز ارماين أشد براعة وأوفر قدرة على استعمال سلاح الغدر من ايزاكسون •• وانه ليقدر ذكاءها ومهارتها حق قدرهما !

وبينما كان فى المعبد ، وصل الى قرار حاسم فيما بينه وبين نفسه •• اذ

انه بانفراده فى عزلة تامة - وفى تلك الظلمة التى سيطرت على أجمل وأهدأ صرح وجه فى حياته - قد عرف سكينة نفسه وهدوءها ، وتبين ما توحى به اليه غريزته فى هذه السكينة ٠٠ ولو لم يكن قد أنفق هذه الساعات الطويلة فى معبد (ادفو) لكان من المحتمـل أن ينكر ذلك الهاتف الملح المنبعث من غريزته ، أما الآن فقد اعتزم ان يصغى الى ذلك الهاتف ، موقنا من انه يسمع أذنا واعية ذات رأى سديد !٠٠ ورأى صارى اللولبية المدبب على صفحة الذهب السحرى الرقيق ، فى ساعة الغروب ٠٠ ورآه كذلك على صفحة أشد سحرا ، من الالوان المتعاقبة بين البرتقالى والأخضر الفاقع والاحمر الهادىء ، فى ساعة الشفق ٠٠ ثم رآه أسود كالمداد على صفحة ذلك الضوء الرمادى الداكن الذى يعتصره مقدم الليل من النهر ومن الارض ومن السـماء ٠٠ ثم لم يعد يراه اطلاقا ، اذ أطبق ظلام الليل على البطاح

وبدأ ملاحو « فاطمة » ينشدون أنشودة النيل ، وهم يجلسون فى حلقـة حول وعاء كان قد تنقل من يد الى يد ٠٠ وتناول ايزاكسون عشاءه فى عجلة٠ وما لبث أن أقبل حسن يستأذنه فى النزول الى الشاطىء ، قائلا ان له أصدقاء فى القرية يود أن يراهم ، فأذن له ايزاكسـون بالذهاب ٠٠ ولم تمض لحظة حتى كان شبحه الطويل يهرول فى ثيابه الفضفاضـة ، ويختفى فوق المعبر صاعدا الى الشاطىء !٠٠ ومضى الملاحون فى انشادهم ، وهم يطوحون برؤوسهم الى الخلف ، ويهزونها يمنة ويسرة ، بينما كانوا يتمايلون فى رفق الى الامام والى الوراء ، ومن جانب الى جانب ٠٠ كانوا سعداء ، مستغرقين فى انشادهم ونشوتهم !

وصبر ايزاكسون خمس دقائق ، ثم حذا حذو حسن ، فاجتاز المعبر وانساب



الى الشاطىء حيث وقف ساكنا على الارض المستوية التى تشرف على النهر ٠٠ وكان الليل دافئا ـ دفئا لذيذا ـ وساكنا سكونا مطبقا ٠٠ وكانت السماء صافية تماما ، خلوا من القمر ، وقد خيمت ظلمة رقيقة على النهر والسهول والجبال التى تحمى النيل من الجانبين ٠٠ وكان ايزاكسون يرى من موقفه أضواء دهبيته وهى تتألق فى الظلام ، ويسمع غناء رجاله العاصف الحزين ، ونباح الكلاب فى المنازل المختفية عن الانظار وهى تقوم بالحراسة ضد دخلاء وهميين ٠٠ وعندما نظر الى « فاطمة » تبين كيف كانت هذه الدهبية سكنه ووطنه ، وشعر بالوحشة فى مغادرته اياها للقيام بمغامرة فى ظلمة الليل !

ولكنه استدار نحو الجنوب وراح ينظر صوب النهر ، فرأى على مبعدة ـ أو هكذا خيل اليه بعد أن هبط الليل ـ وفى عزلة بين الظلمات ، وشيا من الاضواء تتوجه ، على ارتفاع مديد ، جوهرة زرقاء تبدو كأنها معلقة فى الهواء ٠٠ فأدرك ايزاكسون انها مصباح مثبت على صارى اللولية ، وعندئذ وضع يده على جيبه الخلفى ٠٠ نعم ، كان مسدسه فى مكانه هناك !٠٠ وأشعل سيجارا ، ولكنه ما لبث أن ألقى به بعيدا ـ وقد واتته فكرة طارئة ـ فانبعث من طرفه المتقد أزيز خافت اذ انغمس فى النهر ٠٠ وعاد ايزاكسون ينظر الى الجوهرة الزرقاء ، والى الوشى الأصفر تحتها ، وما لبث أن انطلق فى طريقه الى رحلته الليلية !

★ ★ ★

◆ كان يمشى ـ بادىء ذى بدء ـ فى بطء وحذر ، ولكن عينيه الثاقبتين الحديدتى البصر ، سرعان ما اعتادتا الظلمة ، فاستطاع أن يرى طريقه فى يسر وسهولة ٠٠ وكان بين حين وآخر يتلفت خلفه ، كما يفعل الرجل الذى يسير فى داخل نفق مظلم عندما ينظر خلفه الى المدخل الذى يظهر له ضوء النهار !٠٠ كان ينظر خلفه الى « بيته » ، فيخيل اليه فى كل مرة أنه يتراجع القهقرى مبتعدا عنه ٠ وأحس أخيرا بأنه شريد لا بيت له ، فلم يعد ينظر وراءه ، وانما مضى يتطلع الى الامام ، نحو ذلك الوشى المضىء الذى يعين موضع اللولية ٠٠ وكان كلما أمعن فى المسير ازداد احساسا ـ دون أن يعلم السبب ـ بأنه قد غدا شريدا لا بيت له ، ولعله كان فى ذلك فريسة وعيه بأنه يمضى نحو عدو له ٠ ان احساس الناس يختلف كل الاختلاف فى الظلام عنه فى الضوء ، كما أن تفكيرهم فى شخص معين ـ فى الظلام ـ يتخذ أشكالا غريبة غير مألوفة !٠٠ ولقد استيقظ خيال ايزاكسون الآن وأخذ يهبط بتفكيره الى سراديب معتمة رهيبة ٠٠ كانت الجوهرة الزرقاء المعلقة فى الهواء تلوح له وكأنها عين قاسية لامرأة جميلة تراقبه أثناء سيره ، بل أحس كأن « بيللا دونا »

قد ارتقت برجا عاليا وراحت تتجسس عليه وهو يتقدم فى ظلمة الليل !٠٠ كان وهذا الوهم الغريب يتباريان فى لعبة مروعة ، حتى نما فى أعماق ذهنه الاعتقاد بأن مسز ارماين قد تكهنت فعلا ـ على نحو أو آخر ـ بدنوه منها !٠٠ ولكن كيف ؟٠٠ ان للنساء أشد أنواع الالهام غرابة ، فهن يعرفن أشياء ـ اذا استخدمنا تعبيرا مهذبا ـ لا يمكن أن يدركن مأتاها !

من المحقق أن « بيللا دونا » كانت فوق برجها !

وعندئذ وقف عند حافة حقل من الذرة ٠٠ اذ ما جدوى التقدم الى الأمام أبعد من ذلك ؟٠٠ ونظر نحو الشمال ، ثم استدار وعاد ينظر نحو الجنوب ، وهو يقارن المسافة التى تفصله عن دهبيته ، بتلك التى تفصله عن اللولية ! ٠٠ وكان عقله يقول : « اذا كنت أقرب الى « فاطمة » فسوف أعود أدراجى٠٠ أما اذا كنت أدنى الى اللولية فسوف أمضى قدما » ٠٠ وانبأته عيناه ـ وهما تقيسان المسافتين فى امعان ـ انه كان أقرب الى اللولية منه الى دهبيته !٠٠ لقد ألقى النرد ، واستخبر طالعه ٠٠ فليمض فى سبيله قدما !٠٠ ومن المحقق ان « بيللا دونا » كانت تعرف بمقدمه ، وكانت تتجسس عليه من قمة برجها !

وعندئذ بلغت مسامعه جلبة عنيفة ، لم يعرف مصدرها ، انبعثت عن عدد من الفلاحين كانوا يتكلمون ـ على ما بدا ـ فى غضب شديد ، تحت جنح الظلام ٠٠ وكانت الجلبة توحى بأن جمعا من الناس كانوا فى انفعال شديد٠٠ كانت قريبة منه ، ولكنها لم تكن دانية ٠ وسمر فى مكانه ، وراح يصغى مرهفا سمعه ، محاولا أن يتبين المكان الذى كانت الجلبة تنبعث منه ، ولكنه لم يستطع !٠٠ كانت الاصوات قد ارتفعت بين أطواء الليل ، ومضت فى حدتها وضراوتها ، كأنها أصوات رجال أصابهم الجنون ٠٠ ولكنها ما لبثت أن تلاشت وسكنت فجأة ، كأنما ضجر الليل من قحتها فأطبق على المتكلمين وأخمد أنفاسهم !٠٠ وخيم الصمت والسكون بعد ذلك ، لا يخرقه سوى حفيف أعواد الذرة الخافت ٠٠ كان صمتا رهيبا يثير الذعر والهلع !

وأخذ ايزاكسون يغذ السير وقد تعلقت عيناه بهذه الأضواء البادية فى الجنوب ٠ وفيما كان يدنو منها ، أحس بنوع من الانفعال البارد ٠٠ بارد لأن التوجس كان فى قرارته ٠٠ وعندما ازداد قربا من أصحاب الضوضاء ، واستطاع أن يميز أشباحهم خلال الظلمات المدلهمة ، بدأ يبطىء فى سيره ، وما لبث أن وقف ساكنا ٠ وفى تلك اللحظة بالذات بدأ الملاحون النوبيون على ظهر اللولية ينشدون أغنيتهم التى يذكرون الله فيها ، والتى سمعتها مسز ارماين من حديقة « فيللا أندرود » فى أولى لياليهما بمصر العليا !٠٠ وبدأ « الذكر » بصوت منفرد ملء بالحرارة ، غريب الوقع على الآذان الغربية ، غزير التعبير ، أشبه بصوت مؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ٠٠ كان يصيح

عاليا : « ال ٠٠ له ! ال ٠٠ له ٠٠ الله » !٠٠ وكانت تصاحب هذا الصوت همهمة عميقة رتيبة ، ودقات مكتومة على « الدربكة » ٠٠ وما لبثت ان انضمت الى ذلك الصوت أصوات باقى الرجال من فرقة المنشدين !

وفيما كان ايزاكسون ينتحى جانبا على ضفة النيل المقفرة ، فى هذا الموضع المهجور - اذ كانت اللولية راسية بعيدا عن أية قرية ، وفى بقعة موحشة من النهر - أخذ يفكر فى أنه لم يسمع قط قبل الآن أية موسيقى مثل هذه ٠٠ فبينما هى صاخبة عنيفة ، اذا بها فى الوقت ذاته حزينة أليمة ٠٠ وبينما هى قاسية صارمة ، اذا بها تفيض باللوعة والحنين البدائى الساذج ٠٠ كانت تبدو مثقلة بأحمال القضاء والقدر ، وذلك الذى لا مفر للانسان منه ولا نجاة ، مهما يكافح بكل قواه ، أو يصرخ من أعمق أعماق قلبه !٠٠ وخيم الشرق على ايزاكسون أشبه بسحابة عظيمة قاتمة ، وهو يسمع أنشودة الرجال السود ، ولكن شيئا فى أعماقه كان يستجيب الى هذه الاصوات - وهو واقف وسط السحابة - ويستجيب الى الارواح التى كانت خلفها ! ٠٠ وتذكر ما حدث ذات صباح فى لندن ، اذ أضجرته الحياة الرتيبة التى كانت تحيط به ، فراح يتوق الى أحداث عظيمة ، فظيعة ، بل رهيبة مروعة فى مجانبتها للمألوف والعادى ، وفى ايغالها فى العنف بحيث ترفعه الى ذروة نشاطه ومقدرته ٠٠ فهل تحققت هذه الأمنية ٠٠ الآن ؟

ومد يدا نحيلة سمراء فجذب عودا من أعواد الذرة - المحملة بالكيزان المليئة بالحب - من قمته ، بينما كانت الاصوات تمضى فى انشادها ، وتمضى ، ثم تمعن فى المضى ٠ وفجأة ، انقطع الانشاد فى بتر مباغت ، حاد ٠٠ « الـ ٠٠ » ، ثم الصمت المطبق ٠٠ كأنما كان اسم رب الرجال السود قد أعدم على شفاههم !٠٠ وترك ايزاكسون عود الذرة ، وانتظر قليلا ٠٠ فلما استمر الصمت المطبق مخيما على المكان ، أخذ يتقدم الى الامام حتى غدا الهيكل الخارجى للسفينة الكبيرة واضحا أمام عينيه ، وحتى رأى ان الضوء الازرق كان ينبعث من مصباح معلق فوق صار ضخم طويل مدبب ٠٠ كان يرى ذلك كله ، ومع ذلك كان يخيل اليه انه لا يزال يرى « بيللا دونا » فوق برجها٠٠ « بيللا دونا » الجاسوسة الأبدية ، التى كانت عيناها الجميلتان تنقبان عن أسراره بين جدران عيادته !

وراح يسير فى حذر بالغ ٠٠ وتطلع حواليه فى حيطة وحرص ، ولكنه لم ير أحدا على ضفة النهر التى لم تكن مرتفعة فى هذه البقعة ، فكان فى وسع ايزاكسون - دون اضطرار للهبوط - أن يرى ما بداخل قمرات اللولية ، ما لم تكن مصاريعها موصدة فى وجه الليل ٠ وكان من الغريب حقا أن يكون قريبا من نيجل الى هذا الحد ، بينما كان نيجل يظنه فى ميدان كليفلاند ،

ما لم تكن مسز ارماين قد صارحته بالحقيقة ٠ وفى تلك اللحظة ، رأى شيئا يتحرك على الضفة ، متسللا نحو الانوار ، كأنه لا يقوى على مقاومة اجتذابها اياه ، رغم أنه كان خائفا موجسا ٠٠ ولم يكن ذلك المتسلل سوى كلب طريد بائس ، يكاد يموت جوعا بينما كانت عيناه ترمقان المكان الذى يحوى طعاما ٠٠ كلب كذلك الذى سبق أن زحف بقرب مسز ارماين حين كانت تجلس فى حديقة « الفيللا » ، بينما كان نيجل يرقب النجوم فوقها !٠٠ فلما دنا ايزاكسون منه ، تحول جانبا وهو يرتعد فرقا ـ دون أن يبتعد كثيرا ـ ثم رقد فى مكانه ، وجسده لا يكف عن الارتعاد ٠٠وكانت أضلاعه بارزة واضحة ، أشبه بأضلاع سفينة محطمة !

★ ★ ★

◆ كان ايزاكسون قريبا من اللولبية الآن ٠٠ كان يستطيع أن يرى الشرفة التى فى المؤخرة ، والتى كانت الدمية تتحرك فيها بجوار السياج ، وكان يضيئها مصباح كهربائى صغير ، كما لم تكن جوانبها مقفلة بالقماش ، ولو انه كان يعلوها سقف من قماش القلوع ٠٠ وكان ايزاكسون يستطيع أن يرى وراءها ـ من خلال فتحتين واسعتين ـ ضوءا أشد سطوعا ، يتألق فى الحجرة المؤدية اليها ٠٠ ووقف ساكنا فى مكانه مرة أخرى ، فقد رأى على الشرفة هيكلا طويلا ٠٠ هيكل مقعد طويل من مقاعد السفن ، كما رأى شبحا ممددا فوقه ٠٠ وفيما كان يمعن النظر فيما يراه ، مزق السكون صوت الموسيقى من جديد ، ولكنها انبعثت فى هذه المرة من الحجرة المضاءة ٠٠ أنغام البيانو العصرية الباردة !٠٠ لقد نزلت « بيللا دونا » اذن من فوق برجها !٠٠ أم تراها لم تصعد اليه قط ؟

وراح ايزاكسون يصغى وهو يحدق النظر فى الهيكل الطويل ٠٠ كان عقله مليئا بتلك الموسيقى الاخرى ، صيحات الاسلام فى ليالى افريقيا ٠ أما هذه الموسيقى الأوربية فكانت تبدو فى غير موضعها هنا ٠٠ تبدو « نشازا » متنكرا تحت النجوم !٠٠ ولكنه ما لبث أن راح ينصت فى انتباه شديد ٠ وتقدم خطوة الى الامام ٠٠ كان ينقب فى ذاكرته ، وكان يتساءل عما تعبر عنه هذه الموسيقى ، وعن المعنى الذى تنقله اليه ٠٠ انها لم تعد تافهة ، رخيصة ، مبتذلة ٠٠ وانما كان فيها ـ حتى وهى تؤدى على المعزف ـ حتى وهى تسمع فى هذا الليل وفى هذا المكان الموحش بين صحراوين ، نبرة توحى بعناصر الطبيعة !٠٠ كانت « بيللا دونا » تعزف ذلك الجزء من أوبرا « حلم جيرونتيوس » الذى تصرف فيه روح الانسان الى خالقها !٠٠ « امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم ! »

كانت تعزف هذه القطعة ، وكان الشبح الممدد فى المقعد الطويل يصغى اليها ٠٠ وفى تلك اللحظة شعر ايزاكسون بالسرور يغمره لمجيئه الى مصر ٠٠ ولكنه سرور من نوع جديد : « امضى ٠٠ أيتها الروح ٠٠ اذهبى من هذا العالم » ! ٠٠ وما كاد ايزاكسون يتمثل صوت الكاهن العميق القاطع - فى الأوبرا - حتى بدا فى الموسيقى التفكك والانحلال ٠٠ كانت الذرات فيها تنفصل وتتفكك ، وكان المعبد يتهاوى ليدع ساكنه ينطلق خارجا !٠٠ وما لبثت الموسيقى أن توقفت ، وبلغت أذنى ايزاكسون غمغمة خافتة ٠٠ واحتجب أحد المستطيلين المضيئين وراء الشرفة ، بقطعة من الظلام ، ثم خرجت هذه القطعة من الظلام الى الشرفة فانحنت فوق الشبح الممدد فوق المقعد ٠٠ وبعد لحظة أطفىء المصباح الكهربائى الذى كان يضىء الشرفة ، وبقى نيجل وزوجته معا فى الشرفة المعتمة بينما كانت الحجرة التى خلفهما مضاءة

وعندما أطفىء النور ، نهض الكلب الطريد خلسة وزحف مقتربا من اللولبية ٠٠ ولمح ايزاكسون هذه الحركة الخفية ، فأحدثت فيه أثرا غير سار٠٠ لقد راح يوازن بينه وبين هذا الحيوان الصغير ، فأحس بأنه هو نفسه شخص طريد منبوذ ، بسبب هذا الذى يفعله ٠٠ ولكن شيئا ما فى قرارة نفسه - شيئا أقوى بكثير من حكمته وتعقله ، ومن « الشىء الصواب » الخليق بالرجل المهذب المحترم أن يفعله - هو الذى ساقه الى هذا المكان فى ظلمة الليل ، وأبقاه هناك ، بل واستحثه على أن يحذو حذو الكلب الجائع ، وأن يقترب شيئا فشيئا من هذين الاثنين اللذين كانا يحسبان نفسيهما منفردين فى الظلام !٠٠ واستقر عزمه على سماع صوت الشبح الممدد فى المقعد الطويل ٠ وكان النور المنبعث من حجرة الفسقية يلقى ضوءا خافتا على قسم من الشرفة ٠٠ وسمع ايزاكسون غمغمة صوت مسز ارماين من جديد ٠ وما لبث أحد المستطيلين المضيئين أن احتجب من جديد بقطعة من الظلام ، ثم اذا بالحجرة بعد ذلك تسبح فجأة فى الظلام ٠٠ فلما عادت مسز ارماين ، تسلل ايزاكسون فوق الضفة المنحدرة حتى اتخذ مكانا ملاصقا للنافذة الاخيرة فى تلك الحجرة٠٠ وكان الخدم والملاحون جميعا على السطح الاسفل - فى مقدمة السفينة - وكان كله محاطا بالقماش السميك ٠٠ أما السطح العلوى للسفينة فكان خاليا من كل انسان ، ولو أن مسز ارماين أطلت من النافذة بعد أن أطفأت النور لكان من المحتمل أن ترى شبح رجل ٠٠ ولكنها لم تطل من النافذة ، وأحس ايزاكسون بأنها لن تفعل ٠ وكان فى موضعه هذا بمنجى عن عينى أى أحد فى الشرفة ، على الرغم من انه كان من القرب منها بحيث يكاد يكون واقفا فوقها ٠٠ وكان النيل يجرى بالقرب من قدميه ، فى غمغمة خافتة ، وكأنه يلعق الضفة فى ظلمة الليل ، ولم يكن ثمة أى صوت آخر ليحول بينه وبين

الصوتين الآخرين

وسمع حفيف ثوب ، فتذكر الهيكل الداخلى فى معبد (ادفو) .. وبعد ذلك سمع صوتا غريبا خلوا من الحياة ، لم يستطع أن يعرف صاحبه ، يقول: « آه !.. هذا أفضل بكثير ، فانى أكره هذا الضوء القوى حقا » .. فقال ايزاكسون لنفسه فى دهشة : « ولكن من يكون هذا الجالس فى المقعد اذن ؟ .. أتراهما قد اصطحبا أحدا معهما على الذهبية ؟ » .. وانبعث صوت خافت يقول : « ان الضـوء الكهربائى يضايق كثيرا من النـاس ! » .. وعرف ايزاكسون الصوت الذى نطق بهـذه العبارة .. كان صـوت مسز ارماين الرقيق ، الرخيم ، الملىء بالاغراء .. وعندئذ تذكر ذلك الصـوت الأجش البشع الذى سمعه فى المعبد هذا الصباح !

وقال الصوت الآخر : « تعالى فاجلسى بجانبى ! » .. أيمكن أن يكون هذا صوت نيجل حقا ؟.. لقد كان الصوت ـ فى هذه المرة ـ يحوى نبرة مألوفة الى حد ما لايزاكسون .. نبرة كان يسمعها بنفس الايحاء الذى يداخل المرء حين ينظر الى خيال ويسائل نفسه : « أهذا خيال صديقى ؟ » .. وسمع حفيف ثوب ، تلاه صرير مقعد من الخيزران .. ثم قالت مسز ارماين : « ألا تظن انك أحسن قليلا الليلة ؟ » .. فتأوه الآخر قائلا : « كلا »

ـ لقد قال الدكتور بارنج هارتلى انك ستشفى سريعا

ـ روبى ، انه لا يفهم حالتى .. انه لا يستطيع أن يفهمها !

ـ ولكنه يبدو واثقا منها ، ثم ان له شهرة عظيمة فى أمريكا

ـ بل انه لا يفهم شيئا .. اننى أشعر الليلة ، وقد شعرت بذلك عندما كنت تعزفين « جيرونتيوس » ، بأننى سأمضى سريعا .. « امضى أيتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم » .. لقد أحسست كأنما كان هـذا القول موجها الى من مكان ما !

وهتفت المرأة : « نيجل ! » ، ولـكنه استطرد قائلا : « من الغريب اننى ـ أنا الذى كنت أحب الشمس دائمـا ـ تصرعنى الشمس أخيرا .. أليس كذلك ؟.. من الغريب أن ما يحبه المرء قد يكون هـو الذى يدمره ! » .. فقالت : « ولكن .. ولكن ذلك ليس صـحيحا يا نيجل .. انك فى طريق التحسن ، رغم انك لا تظن ذلك ! » .. فهتف : « روبى ! » .. وكادالصوت ان يكون صارما .. وفى هذه المرة كان أشد شبها بالصـوت الذى يعرفه ايزاكسون .. ومضى صاحب الصوت يقول : « روبى ، ان حالتى تزداد سوءا .. فانا أشعر اليوم بأننى فى طريقى الى الموت ! » .. واذ ذاك قالت المرأة : « دعنى أبرق الى الدكتـور هارتلى .. سأرسل القارب الى ادفو فى فجـر الغد ! » .. وتنهد الرجل قائلا : « لو ان ايزاكسون كان هنا ! »

وخيم الصمت لحظة ، ثم قالت مسز ارماين : « وما الذى كان فى وسع الدكتور ايزاكسون أن يفعل أكثر مما فعلناه ؟ » . فأجابها : « انه رجل عجيب .. وهو يرى ما لا يراه الآخرون .. اننى أشعر بأنه قادر على أن يكتشف ما بى ! » .. فهتفت : « يكتشف ؟!.. ولكنا نعلم يا نيجل انها الشمس .. أنت نفسك .. » . فقاطعها قائلا : « نعم .. نعم ! »

– لسوف أبرق غدا الى الدكتور هارتلى ليحضر من أسوان على الفور

– ان هذا الأرق الفظيع هو الذى يحطمنى . لقد كنت طول حياتى أنام نوما عميقا .. وهناك تلك الآلام الروماتزمية .. كيف يمكن أن تكون الشمس هى .. ؟ روبى .. اننى أفكر أحيانا فى أنه لا شأن للشمس بما أصابنى !

– ولكن ، ماذا يمكن أن يكون اذن ؟. أنت تعلم انك كنت تحب أن تعرض نفسك لها ، رغم اننى طالما رجوتك وتوسلت اليك أن ...

– ولكن الحرارة ليست شيئا جديدا بالنسبة الى .. لقد ظللت شهورا طويلة فى الفيوم ، أعمل فى وهج الشمس وهى فى عنفوان قوتها ، فلم يصبنى منها أذى قط !

– انها الشمس يا نيجل !.. فقد يفعل المرء الشىء تسعا وتسعين مرة ، ولكنه فى المرة المائة يدفع الثمن غاليا !

وسمع ايزاكسون صرير المقعد ، ثم صوت مسز ارماين تقول : « أتريد ان تغير وضعك يا نيجل ؟ .. انتظر ، فسوف أساعدك ! » .. فهتف متضجرا شاكيا : « أليس فظيعا أن يفقد المرء كل قواه بهذا الشكل ؟ » .. فقالت : « انها ستعود اليك ثانية .. مهلا .. انك توشك أن تنزلق عن المقعد .. دعنى أضع ذراعى خلفك » . فقال بصوت واهن : « أجل .. أعطنى يدك أيتها العزيزة » . وبعد أن ساد الصمت لحظة استطرد يقول : « روبى ، أيتها البائسة !.. ما أقسى الزمن عليك !.. انك ما كنت تتصورين قط ان تتزوجى من شقى عليل منهار .. أليس كذلك ؟ »

– ولكنك لست كذلك ، فكل انسان معرض لأن يصاب بضربة الشمس.. ولن يمضى أسبوعان أو ثلاثة حتى تضحك من هذا كله !.. سوف تنسى كل شىء بمجرد شفائك !

– ولكننى أحيانا ينتابنى شعور .. أعنى .. أنه .. شعور بالموت !

– متى كان ذلك ؟.. متى ؟

– فى الليلة الماضية .. أثناء الليل . فقد شعرت بأننى رجل يحتضر !

– لم يكن ينبغى لى قط ان أدع الدكتور هارتلى يذهب الى أسوان ..ولكنك قلت انك تريد ان تكون وحدك معى ، أليس كذلك يا نيجل ؟

– بلى .. كنت أشعر ، على نحو ما ، بأن هارتلى هذا لن يكون ذا نفع لى ، وان أى رجل عادى لن يستطيع أن يفعل شيئا .. كنت أشـعر كما لو ان القضاء حم ، وكأنما يجب أن نكافحه معا ، انت وأنا !.. كنت أشعر كأنما.. ربما .. استطاع حبنا أن ..

ولكن الصوت سكت بغتة دون أن يتم عبارته .. فشدد ايزاكسون الضغط على قبضتيه وتراجع خطوةالى الوراء ، واذ ذاك أجفل الكلب الشريد المرتعد ،وانسل بعيدا ، وكأنما خشى أن تصيبه لطمة .. وعندئذ قال نيجل : « ماهـذا ؟ » . فسألته زوجته : « هل سمعت شيئا ؟ » .. وأجاب : « أجل..وقع أقدام ! » .. فقالت : « أوه ، انه أحد الرجال بلا شك !.. هـل أعزف لك المزيد من الموسـيقى ؟ » .. وكان جوابه : « هل تستطيعين أن تفعلى ، دون اضـاءة النور ؟ .. اننى أخشى الضوء الآن ، و .. يا لله !.. لكم كنت أحبه ! ».. وقالت المرأة : « سأحاول » ، فقال : « ولكنك ستضطرين الى رفـع ذراعك عنى !.. انتظرى لحظة ، أواه يا روبى ! هذا مخيف ! اننى الليلة أشعر كما لو كنت رجلا يقف على حافة هوة سحيقة ، وكمـا لو كنت أوشك أن أتردى فيها ، ما لم تمتد يد فتسندنى !.. اننى ... »

وسمع ايزاكسون حشرجة فظيعة ، ثم لم يلبث الصوت ان استرد طبيعته فى الحال ، وقال : « ما فكرت قط ، مطلقا ، فى اننى سأبلغ هذه الحال يوما، يا روبى ! » .. فقالت : « لا بأس يا عزيزى .. كل انسان ... » . ولكنه قطع حديثها قائلا : « أجل .. نعم ، اننى أعرف ذلك !.. ولكننى أكره أن.. ان ذلك ليس خليقا بالرجل !.. هيا اذهبى واعزفى لى ثانية » .. فقالت : « لن أعزف « جيرونتيوس » ، فانها تجعلك تفكر فى أمور كئيبة حزينة مروعة !» .. ولكنه قال : « بل اعزفيها ثانية .. لقد كانت « نوتتها » موضوعة فوق معزفك فى ذلك اليوم .. عندما ذهبت لزيارتك فى لندن .. اننى سـأظل أقرنها دائما بك ! » .. وانبعث حفيف الثوب من جديد ، وهى تهم بالنهوض !

ولم يتردد ايزاكسون لحظة واحدة .. فقد أسرع يصعد الضفة ، حتى اذا ما بلغ قمتها ، وقف ساكنا لحظة .. كانت أنفاسه لاهثة ، وكان المعزف يرسل أنغامه بالقرب منه .. ان « بيللا دونا » لم تره ، كما انها – دون أن تراه – لم تحدس وجوده بالقرب منها ، وفى وسعه أن ينصرف الآن – وهى مستغرقة فى العزف – وبذلك لن يقدر لها قط أن تعرف انه كان هناك يسترق السمع فى ظلمة الليل .. بل ان أحـدا لن يعرف ذلك البتة .. ولسـوف يعود ثانية ، علانية ، عند شروق شمس الغد ، متحديا رجاءها ورغبتها .. سوف يعود فى جرأة ويسأل عن صديقه !

« امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم » !

سوف يعود غدا ، ويرى وجه صاحب هذا الصوت المتبدل .. الصوت الذى لم يعرفه الا بعناء !

« امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم » !

وخطا الى الامام ليذهب الى تلك الاضواء البعيدة التى تبين موضع «فاطمة» بجوار ادفو ، والكلمات تتردد فى رأسه : « امضى .. اذهبى من هذا العالم » ! .. أكان ذلك صوت الكاهن ؟.. أم تراه كان صوتا حازما لاحدى النساء ؟.. وبغتة ، هدأت أنفاس ايزاكسون المتهدجة ، وأرخى قبضتيه المشدودتين .. وخيل اليه أن موجة - فقد كانت أشبه بذلك ! - من ضبط النفس القوى قد غمرته !.. لقد كان يقف فى الظلام على ضفة النهر الآن طبيب عظيم .. وهذا الطبيب لا شأن له بالاضواء البعيدة بجوار (ادفو) .. لقد كانت مهمته ورسالته فى مكان آخر !

« امضى .. اذهبى من هذا العالم » !

ومشى على الشاطىء ، ثم انحدر معه الى المعبر الذى يصل الضفة بسطح اللولية ، ونحى جانبا ذلك الستار المسدل على الباب ، وفى اللحظة التالية كان يخطو فوق السطح .. ومضت عيون سوداء عديدة تنظر اليه فى رصانة، حتى نهض حمزة أخيرا وانفصل عن تلك الجماعة من ذوى العمائم ، ثم تقدم الى حيث كان ايزاكسون واقفا .. فقال له هذا : « احمل هذه البطاقة الى سيدك وسله ان كنت أستطيع أن أراه ! » .. فقال حمزة : « نعم » .. الكلمة الانجليزية الوحيدة التى كان يعرفها !.. ثم مضى بالبطاقة . وانقضت لحظة . ثم سكت صوت المعزف دفعة واحدة !

الفصل الرابع والثلاثون

بعد ان انقطع صوت الموسيقى ، مرت فترة خيل الى ايزاكسون انها قد استطالت دهرا ،ولكنه لم يشعر خلالها بأى انفعال .. فان الانفعال ، مع رجل من طرازه ، انما يتولد عن التردد ، وقد فارقه الآن كل تردد بشأن ما اعتزم أن يفعله .. فانتظر ساكنا عودة رسوله ، فى هدوء ، وعزم ، وثقة بنفسه ، مثلما كان يجلس فى حجرة استشارته ليستقبل عالم المرضى .. وكانت العيون السوداء العديدة تحدجه بانظارها فى تهيب ،

فيبادلها النظر ، وقد أدرك أنها لاتستشف من عينيه أكثر مما كانت عيناه تستشفان منها .. وكان حمزة ـ عندما انصرف بالبطاقة ـ قد أغلق الباب الذى يقع فى نهاية الدرج ، والذى كان يفصل قمرات اللولية عن سطحها .. فراح ايزاكسون ـ عندما لم يجد احدا يأتى اليه ـ ينظر الى هـذا الباب ، واذا به يرى فوقه تلك الكتابة العربية المنقوشة والتى كان بارودى قد ترجم معناها لمسز أرماين ، فأخذ يتساءل عمـا يمكن ان تعنيه !

كانت عيناه قد تعلقتا بها ، وأحس بأنها ولا بد ذات مغزى، وان الرجل الذى رآه جالسا القرفصاء تحت السقف الأسود ـ فى مقهى مدمنى الحشيش ـ انما وضعها هنا لتكون شعارا لسفينته الجميلة الرائعة .. ولكنه لم يكن يعرف العربية، ولم يكن معه من يترجم له معنى هذه الحروف المذهبة .. فقـد كان ابراهيم متوعكا فى تلك الليلة ، وكان نائما متدثرا بعباءته !

وفتح الباب الأبيض فى خفـة ورفق ، وظهر حمزة خلاله وهو يشير الى ايزاكسون يدعوه الى التقـدم نحوه ، فأحس ايزاكسون بأنه يستجمع قواه عن وعى وعمد ، كما يستجمع المناضل قواه متأهبا للنضال ! ثم سار فوق السطح ، وهبط الدرجات المنخفضة ، حيث قاده حمزة الى حجرة الاستقبال الاولى فى اللوليـة . . تلك الحجرة التى كان بارودى يدعوها «وكره» ، والتى اتخذتها مسز ارماين كقاعة للاستقبال ملحقة بمخدعها . وكانت الحجرة مضاءة ، وبابها الثانى ـ ذلك الذى يقع خلف المائدة ـ مغلق.. وكانت مسز ارماين واقفة بجوار منضدة الكتابة ، وهى تمسك ببطاقة ايزاكسون فى يدها ، فما كاد ايزاكسون يجتاز عتبة الباب ، حتى خرج حمـزة وأغلقه خلفه فى هدوء .. كانت مسز ارماين ترتدى ثوبا اسود اللون، كما كانت على وجنتيها بقعتان حمراوان صارختان ، من طلاء صناعى لم تحسن وضعـه ، فأيقن ايزاكسون انهـا أسرعت



مندفعة من أمام المعزف ، لتصلح زينة وجهها ، عندما علمت بمقدمه !.. وكانت تنظر اليه فى تساؤل قاس ، وهى ترفع يدها فى الوقت نفسه وتقول فى صوت منخفض : « صه . أرجوك !.. أنه لايعرف أنك هنا .. وهو نائم الآن ! »

واخذت عيناها تتفحصان وجهه وتتنقلان بين أساريره فى سرعة مروعة ، وهى تستطرد : « لقد كنت أعزف بعض الموسيقى .. كنت أعزف له لينام ! » . وكأنما تذكرت انها لم تحيه ، فمدت يدها الى ايزاكسون ، فمضى نحوها فى رفق ، وتناول يدها فى يده .. وفيما كان يفعل ، ندت عنها حركة غير ارادية ، يكاد يخالطها شيء من العنف ، وكأنما ارادت ان تسحب يدها ثانية . ولكنها سرعان ما ضبطت مشاعرها ، وتركت يدها فى يد ايزاكسون وهى تزم شفتيها بقوة . ولمح فى أحد جفونها عرقا ينبض .. وكان يمسك بيدها فى عزم رقيق حان ، وهو يقول مقلدا طريقتها المتحفظة فى الحديث : « أحسب أن قدومى فى هذه الساعة قد أدهشك كثيراً ! . اننى ارجو المعذرة ، ولكن .. » ، فقاطعته قائلة : « لماذا تجاهلت رسالتى ؟ » . فقال : « هل لى أن أجلس أولا ؟ .. ما أبدع هذه الطنافس ! . وما أروعها من سفينة ، هذه الذهبية ! » . فقالت : « آه ، نعم .. اجلس ! .. هاك الأريكة ! اجل ،

ان الطنافس جميلة .. طبعا ! » . وأسرعت نحو أقرب أريكة اليها .. وكانت تهرول وقد فارقتها رشاقتها المعتادة ، فتبعها ايزاكسون .. وجلست على حافة الأريكة دون أن تسند ظهرها . وكانت بطاقته قد سقطت منها على الارض .. وقالت: « لقد قرأت خطابى .. حسنا ، ماذا اذن ؟ »

* * *

• **وخيل** الى ايزاكسون أن فى أعماق جليسته ـ فى تلك اللحظة ـ نضالا عنيفا ، وان فكرها كان فى حيرة من أمر المسلك الذى ينبغى أن تتخذه الآن ، وفى الحال .. كأنما كان شىء فى أعماقها يصيح بها أن تكافح وتتحدى ، بينما كان شىء آخر يهيب بها أن تخلد الى الملاينة والكياسة .. **كان يحس أن بالقرب منه جمرا يتقد بالعنف والقسوة ، فكان يتساءل عما اذا كانت نيرانه ستذكو ويشتد أوارها .. كان يتساءل فقط، ولكنه لم يكترث لذلك أو يبالى به ، فقد كان يعلم أن مسلك جليسته ـ مهما يكن ـ لن يغير شيئا مما استقر عليه عزمه. وحتى فى هذه اللحظة ـ التى كانت أشبه بشىء أسود سلطت عليه انوار ثاقبة ـ كان يستمتع بعقليته الشديدة اليقظة ، كما يستمتع الرياضى بقوته البالغة وهو يتأهب لتوجيه لطمة قاسية حتى ولو رأى منظرا يوقظ فيه الذعر والفزع !**

وعادت تردد وهى تتكلم فى صوت خفيض ، ولكنه لا يصل الى درجة الهمس : « حسنا .. ماذا اذن ؟ » .. وفى تلك اللحظة انبعث صوت الساعة الصداحة ، فوثبت من مكانها وهى تغمغم : « هذه اللعينة ! » .. ومضت الى حيث كانت الساعة، فانتزعت بابها الصغير ، ودست أصابعها فى الفتحة . وسمع على الاثر صوت تمزيق وتحطيم . وما لبثت ان عادت وعلى اصابعها قطرات صغيرة من الدم ، ثم قالت : « انها تكاد تصيب نيجل بالجنون ! كان يجب أن أسكتها منذ زمن طويل ! ..

انك تلقيت رسالتى ، كما تلقيت أنا اجابتك ». فقال :« وانت ترين – بالطبع – انه ما كان ينبغى لى أن أحضر الليلة ! »

فنظرت اليه لحظة ثم عادت الى الجلوس ثانية .. ولقد أدرك من الطريقة التى جلست بها انها قد استقرت على رأى معين فى المسلك الذى تتخذه . وقالت : « أحسبك شعرت بالقلق فأحببت أن تستفسر منى عن المزيد من المعلومات .. أكان الامر كذلك ؟ » . فقال : « أعترف بأننى شعرت بشىء من القلق » . فتساءلت : «وكيف اتيت الليلة؟» . واذ اجاب : « لقد مشيت » ، هتفت : « مشيت ؟ .. وحدك ؟ » . فأجاب مؤكدا : « وحدى تماما ! » .. فقالت : « كل هذه المسافة ؟ .. **سوف أرجعك فى الفلوكة** » . ولكنه قال :« آه. بل ساعود كما جئت ! » . فردت : « كلا ، كلا . . سوف تستقل الفلوكة » . ومست جرسا كهربائيا ، فظهر حمزة للتو. واذ ذاك قالت له : « الفلوكة يا حمزة ! » ، فقال: «نعم» .. ثم انصرف من فوره ، فاستطردت تقول : **« لسوف يعدونها فى الحال ! »**

وراحت تحرك بعض الوسائد ، فلاحظ ايزاكسون امتقاعا شديدا حول صدغيها ، بين ركنى العينين وعظام الخدين .. وكان الشطر الاكبر من وجهها خاليا من الطلاء أو المساحيق ، رغم ظهور بعض آثار قليلة من «البودرة» فضلا عن «الاحمر» .. وعادت تردد : «لسوف يعدونها بعد لحظة » . ثم تحولت نحوه وهى تبتسم بغتة ، قائلة : « اذن فقد شعرت بالقلق ، وأحببت أن تسمع المزيد ، ففضلت أن تحضر ليلا حتى لا تروعه أو تزعجه ! . لقد كان هذا جميلا منك . والواقع أننى لم أخبره بأننى قابلتك اليوم .. لقد كنت أنوى ذلك ، ولكننى عندما عدت الى هنا عدلت عن هذه الفكرة » .. فسألها : « ولماذا ؟ » . فقالت : « لقد قرأ ما كتبته الصحف عن هارويتش ، فسبب له ذلك ازعاجا شديدا ؟ »

وعندئذ لاحظت فجأة قطرات الدم الصغيرة على اصابعها، فشهقت ، ثم مدت يدها الى صدرها وأخرجت منديلا جففت به اصابعها وهي تقول : « يالي من حمقاء ! » . وظهر اذ ذاك حمزة ، فقالت : **« آه ! .. لقد أعدت الفلوكة ! » .. ولكن ايزاكسون اضطجع الى الوراء فى مجلسه ، وأراح نفسه على الأريكة العريضة ، فقالت : « بعد لحظة يا حمزة »**

وانصرف حمزة بينما كان ايزاكسون يقول : « يا له من شخص عجيب ، هذا الذى تستخدمينه ! » .. وعلى الرغم من انه كان يتكلم بصوت خفيض ، فانه تعمد أن يضفى على صوته تلك النبرات الهادئة التى يتسم بها رجل المجتمع المهذب، الذى يروق له المقام والذى يمتد امامه نصف ساعة آخر يقضيه فى هذه الجلسة المريحة .. ثم اردف : « لقد رايته يصلى بعد ظهر اليوم » . فتساءلت : « يصلى ؟ » . وأجاب : « اجل ، عندما أحضر لى رسالتك ! » . فلاحت فى وجهها لمحة من الفزع ، ما لبثت أن تلاشت على الفور ، ثم قالت : « آه ! ان هؤلاء القوم جميعا يصلون ! »

وكانت تجلس على حافة الأريكة ، فازدادت ميلا الى الأمام، كما يفعل الشخص حين يهم بالنهوض . ولكن ايزاكسون وضع ساقا فوق أخرى ، ثم قال وهو يترك عالم الاسلام بغتة : « ان ما أخبرتنى به هذا الصباح قد أثار فى نفسى القلق نحو زوجك » . فأسرعت تقول : « لابد ان اكون قد اسأت التعبير اذن » .. وكانت ـ طيلة الوقت الذى قضياه فى الحديث ـ لاتكف عن الحراك والتململ ، ولم تجلس ساكنة قط .. فقال ايزاكسون : « اذن فأنت غير قلقة على حالته البتة ! » . فقالت : « اننى .. لم أقل ذلك ! فمن الطبيعى أن تكون الزوجة على شىء من القلق اذا ما كان زوجها مريضا .. ولكنه الآن أحسن كثيرا مما كان عليه ، بحيث أصبح الانزعاج ضربا من الحماقة ! »

ـ ولكنى أعترف بأنك قد أثرت قلقى كطبيب، فى هذا الصباح
ـ اننى فى الواقع لا أرى سببا لذلك !
ـ حسنا .. أنت تعلمين أننا معشر الاطباء نغدو شديدى التيقظ والانتباه ازاء بعض العلامات والأعراض .. وقد ندت عنك اليوم كلمة أو كلمتان جعلتانى أخشى أن يكون زوجك أسوأ حالا مما تظنين !
ـ ان الدكتور بارنج هارتلى يشرف على الحالة
ولكن ايزاكسون ظل فى جداله قائلا : « حسنا ، ولكنه ليس هنا » . فقالت : « انه قادم غدا » .. ولم يثبط ردها من عزيمته ، فقال : « لقد فهمت ايه ينتظركما فى اسوان ، وأرجو ان تغفرى لى جرأتى على التطفل فى هذه المسألة ، ولكنى كصديق قديم لزوجك .. » . فقالت بلهجة حازمة : « ان الدكتور هارتلى فى أسوان ، ولكنه سيحضر فى صباح الغد ليرى مريضه . ويبدو انك لا تعلم ان أسوان قريبة جدا من هنا .. انها بعد منحنى النهر تماما » .. فقال متجاهلا ما كانت ترمى اليه : « اننى اعلم انها لا تبعد عن هنا الا بمائة وعشرة كيلو مترات فحسب ! » . فقالت : « وهى مسافة لاتكاد تذكر اذا ما قطعت فى زورق بخارى او بالقطار .. سيكون الدكتور هارتلى هنا فى الصباح »
واتخذ ايزاكسون اتجاها جديدا فى جدله المنطقى ، اذ قال : « اذن ، فلا بد ان زوجك اسوأ حالا من ذى قبل ؟ » . فبادرت مكذبة : « كلا .. البتة ! » . فقال : « ولكنك ارسلت فى طلب الدكتور هارتلى » .. ولم ترتبك ، بل قالت : « اننى لم أفعل ذلك الا لاننا قررنا ان نبقى هنا فى الوقت الحاضر ، بدلا من الذهاب الى أسوان كما كنا نعتزم ، اذ أن نيجل يستمتع بالسكون ، وأعتقد أن ذلك خير له .. أنك تنسى أنه قد فقد شقيقه الوحيد منذ قريب » .. فقال : « اتعنين ان اللياقة تعوزنى اذ أزج بنفسى فى حزنكما المشترك ؟ » . وكان يتكلم

فى بساطة وهدوء تامين ، وان شابت صوته نبرة تنم عن عزم لا يلين . فأجابت : « لست أرمى الى هذا القول ! » . وكان صوتها أشد صلابة من صوته

– ولكنى أعتقد أنك ترين ذلك .. سأكون صريحا معك يا مسز أرماين : ان صديقى هنا ، يعانى أشد المرض ، بعيدا عن كل عناية طبية !

– فى اللحظة الراهنة فقط !

– ليكن .. انه فى اللحظة الراهنة ، اذا شئت ، بعيد عن كل عناية طبية ، وفى مكان مقفر !

فرفعت حاجبيها وهى تقول : « يا عزيزى الدكتور .. أن من يسمعك تقول ذلك ، يظن اننا فى أقصى مكان من العالم ، فى حين اننا فى وسط المدنية والحضارة وبين حشود من الناس » . فقال : « وها هنا ، بمحض المصادفة .. » ولمح اذ ذاك شفتيها تلتويان فى غضب جعلها تبدو فجأة كامرأة فى أواسط العمر . ولكنه استطرد : **« وها هنا بمحض المصادفة صديق حميم ، له به معرفة قديمة .. ثم اننى – اذا جاز لى ان أقول ذلك عن نفسى – طبيب ذائع الصيت . أفليس من الطبيعى اذن أن أحضر لارى حال المريض ؟ »** .. فقالت : « آه ! تماما .. ولقد أخبرتك الآن عن حاله ! » . فقال : « أليس من الطبيعى أن أطلب رؤية المريض نفسه ؟ »

وارتخى فمها دفعة واحدة ، وراحت تضغط بيدها على احدى الوسائد .. ثم قالت : « كلا ، لا أظن ذلك طالما أن زوجته هى التى تطلب اليك ألا تحضر لزيارته ، لأن هذا سيزعجه أشد الازعاج ، ولأنه أخبرها بصفة خاصة بأنه لا يرغب فى ان يرى احدا لمدة اسبوعين أو ثلاثة » . فسألها : « أواثقة انت تماما من أن زوجك لا يريد أن يرانى ؟ » فكان جوابها : « انه لا يريد أن يرى أحدا قط لمدة أيام قلائل » .

فعاد يسألها : « وهل أنت واثقة تماما من انه لن يرغب فى رؤيتى ، اذا علم بوجودى هنا ؟ » . فهتفت : « وكيف يمكن بحق السماء .. أن يثق المرء تماما مما يفكر فيه غيره من الناس او يريده؟» . فقال : «ولماذا لاتتحققين من الامر اذن؟» . واذ ذاك تساءلت : « أتحقق من الأمر ؟ ! »

ـ نعم .. بأن تسأليه هو ! .. انني قطعا لست بالرجل الذى يفرض نفسه على صديق له رغم مشيئته .. ولكنى أكون شاكرا لك اذا تفضلت باخبار زوجك بأننى هنا ، وسؤاله عما اذا كان يود أن يرانى !

ـ معنى ذلك أنك تريدنى على أن أوقظ رجلا مريضا ، فى غمرة الليل ، وفى نفس الوقت الذى ذهب فيه للنوم ، كى يستقبل زائرا ! . حسنا اذن ، اننى أرفض ذلك رفضا قاطعا!

ـ أوه .. هذا اذا كان نائما حقا !

ـ لقد قلت لك اننى قبل أن تحضر كنت أعزف له على البيانو لينام ، وأنه استغرق فى النوم .. اننى لا أراك منصفا تماما الليلة يا دكتور ايزاكسون !

ثم نهضت من مجلسها ، وهى تستطرد : « اننى اعتقد ان الطبيب خليق بأن يكون اكثر ادراكا .. » . وكان العرق الذى فى جفنها ينبض بقوة وعنف ، فنهض ايزاكسون بالمثل وهو يقول فى هدوء بالغ : « ان الطبيب فيما أظن يدرك ـ خيرا ممن هو ليس طبيبا ـ كيف يعامل رجلا مريضا .. وان ما قلته لى فى المعبد هذا الصباح ، وما سمعته عندما كنت فى القاهرة ثم فى الاقصر قبل أن أرحل جنوبا ، قد أقلق بالى نحو صديقى ، ولا بد لى من أن اطلب السماح لم برؤيته » .. فتساءلت مأخوذة : « فى القاهرة والاقصر ! .. وما الذى سمعته فى القاهرة والاقصر ؟ »

ـ سمعت فى القاهرة من أحد الرجال أن زوجك كان من شدة المرض بحيث لا يستطيع السفر ، ومن ثم لم يكن

ليستطيع – مهما تكن الظروف – أن يذهب الى انجلترا عندما سمع بموت أخيه .. وفى الاقصر سمعت من احدى السيدات نفس القصة تماما !

– طبعا .. وربما مع الكثير من الوشى والتزويق والمغالاة !

– ربما .. ولكن ضربة الشمس يمكن ان تكون شيئا خطيرا !

– اننى ما سمعت قط أنك أخصائى فى ضربة الشمس !

– وهل الدكتور بارنج هارتلى ، الذى يشرف على الحالة من أسوان ، أخصائى فيها ؟

واخذ كل منهما يحدج الآخر بأنظاره فى صمت .. وما لبثت أن قالت : « ربما كنت جائرة الليلة قليلا ، فقد لقيت قدرا كبيرا من العناء أخيرا ، مما أتلف اعصابى .. اننى اعلم أنك تحب نيجل ، وأنا جد شاكرة لك هذه اللهفة المنبعثة عن الصداقة .. ولكن ، لعلك لا تدرك انك قد عبرت عن هذه اللهفة بطريقة من شأنها .. حسنا .. طريقة تبدو كأنما تلقى اللائمة على شخصى ، وعلى مسلكى . وأية امرأة .. بل أية زوجة ، لابد أن تستنكر ذلك ، وان تستنكره بشدة » . فقال ايزاكسون بلهجة فاترة : « اننى آسف .. كيف ترينني ألقيت اللوم عليك ؟ » .. فقالت : « بكلماتك ، ومسلكك كله .. انها جميعا تبدو كما لو كانت محملة بالشك فى عنايتى بنيجل وقلقى عليه .. وانا أستنكر ذلك ! » . فعاد يقول ثانية ، فى برود أشد من برودة الثلج : « اننى آسف ! »

وارتعدت شفتاها وهى تقول : « لعلك – باعتبارك رجلا – لا تستطيع أن تدرك كم تتألم المرأة التى تمر بأزمة عصبية ، عندما تجد بعض الناس يقتحم عليها الباب، من الخارج وينكر كل ما كانت تفعله ، ويحقر – ولو تلميحا – من عنايتها وتفانيها وتضحيتها بنفسها ، ويحاول – أو يبدو كأنما يريد ان يحاول – أن يزج بنفسه فى مكانها الطبيعى » . ولم يغب عن ايزاكسون اتجاهها الجديد ، فقال : « اوه ! انك تغالين كثيرا يا مسز

ارماين ، فلست أريد شيئا من هذا القبيل .. وكل ما أرغبه هو أن يسمح لي باستخدام تلك الموهبة الطبية التىمنحها الله لى ، فى خدمة زوجك وصديقى ! » . فكفت شفتاها عن الارتعاد ، وقالت : « لست أقوى على أن أهين الدكتور بارنج هارتلى ، بالموافقة على ادخال طبيب آخر منوراء ظهره »

وكان صوتها عندئذ باردا قاسيا حاسما كصوته!ثم أردفت تقول : « وانى لفى دهشة من عدم اكتراثك الى هذا الحد بتقاليد مهنتك ! » . فأجابها : «سأسوى هذا الامر مع الدكتور هارتلى فى اسوان » .. ولكنها قالت : « لن تكون بك حاجة الى ذلك ! .. » فصاح : « هل تعنين انك سترفضين تماما السماح لى بأن أرى زوجك ؟ » . وكان جوابها : « نعم .. ومهما يكن من امر فانك لن تستطيع ان تراه الليلة ، لانه مستغرق فى النوم »

* * *

• **وسكتت** فجأة ، فقد دوى خلال الصمت الذى كان يخيم على السفينة ، ذلك الرنين الحاد الذى ينبعثمن جرس كهربائى .. وما لبثتمسز ارماين ان استطردت تتم حديثها فى سرعة وفى صوت غير متزن : « لأنهمستغرق فىالنوم ،ولأن الدكتور هارتلى سيكون هنا غدا ، وسأعمل بما يشير به ! . فاذا ما رغب فى استشارة اطباء آخرين .. » وفى تلك اللحظة عاد الجرس يدوى عاليا من جديد، فقطبت حاجبيها .. بينما ظهر حمزة من الباب المؤدى الى الممر، واجتاز الحجرة — فى هدوء وبغير جلبة — الى الباب الواقع فى طرفها الآخر، ففتحه واختفى خلاله وهو يوصده خلفه فى سرعة وخفة حارقتين ، كأنه طيف لايمت الى البشر بصلة !

ومضت تتم عبارتها قائلة : « فسيختلف الأمر عن وضعه الحالى ، وسيسرنى حقا ان أحصل على رأيك ، فانى أعرف

قيمته ! » . ونظرت نحو الباب الذى اختفى حمزة وراءه ، ثم استطردت : « ولكن الواجب يدعونى الى ان أعامل الدكتور هارتلى بما ينبغى من الاعتبار والمحافظة على شعوره .. أما الآن فانى ارجو لك ليلة سعيدة » .. وكانت تتكلم فى عجلة . كما أسرعت تمد اليه يدها وهى تردف : « ستحملك « الفلوكة » الى مسكنك .. وفى الغد ، بمجرد أن يحضر الدكتور هارتلى وأتحدث اليه وأعرف مايراه ، فانى أبلغك كل شىء ! .. وانه لجميل منك أن تزعج نفسك بهذا الأمر »

ولكن ايزاكسون لم يتناول اليد الممدودة ، بل قال بغتة : « ان زوجك مستيقظ !. فسقطت يدها الى جانبها ، بينما كان يستطرد قائلا : **« وأظن ــ بل أعتقد أنه اذا علم بوجودى هنا فسوف يسره أن يرانى .. وأعتقد انك سوف تخبرينه وتتركين له ان يقرر بنفسه مايشاء ! »**. فقالت ببرود : « ولكنى موقنة من انه نائم .. لقد تركته نائما . . فقال : « وهذا الجرس ..؟ » . فابتسمت قائلة : « أوه ، أنه لم يكن من نيجل . لقد كانت وصيفتى الفرنسية هى التى قرعته ، فهى تلقى هنا الكثير من التبجيل والتمجيد ، وتجعل من حمزة تابعا لها يتفانى فى خدمتها » . . وفيما كانت تقول ذلك تذكر ايزاكسون ماجاء بخطاب نيجل من كلمات فى هذا الصدد : « لقد طردت وصيفتها الفرنسية حتى تكون فى حرية تامة » . . فقال : « آه .. وصيفتك ! » .. وبدا صوته أشد ما يكون برودة وصلابة .. فقالت : « أجل ! »

ــ ولكن من المحتمل حقا ان يكون زوجك هو الذى قرع الجرس !

ــ كلا ، لست أظن ذلك .. بل اننى واثقة تماما من أنه ليس هو ، فان نيجل متى استغرق فى النوم لايستيقظ بسهولة !

ــ ولكنى ظننت أنه يعانى من الأرق !

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أدرك أنه قد ارتكب خطأ

جسيما .. ولم يتسع له الوقت ليصلح هذه الزلة ، اذ أسرعت تقول فى حدة : « لماذا ؟.. ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ ». فشرع يقول : « انك . . » ، ولكنها قاطعته قائلة : « اننى لم أقل ذلك قط .. أننى لم أقل كلمة واحدة من شيء كهذا ! »

وذكرت ما قاله لها نيجل من أنه سمع وقع خطوات عندما كانا فى الشرفة معا ، وعندئذ تحول لون وجنتيها رماديا تحت طلائهما الاحمر .. وعادت تقول وهى تحدجه بنظرات ثابتة : «اننى لم أقل قط كلمة واحدة عن ذلك».. فقال : **« بل قلت انك كنت « تجلبين له النوم » ، وانك « تعزفين له لينام» .. وكان من الطبيعى اذن ان أعتقد انه مضطرب النوم .. والنوم شديد الأهمية بالنسبة اليه .. وهناك أيضا تلك الساعة »** ، وأشار الى اللعبة السويسرية المحطمة، ولكن وجهها ظل مربدا رمادى اللون ، فأدرك أن محاولاته فى تفسير زلة لسانه كانت عقيمة ، وانها أيقنت أنه سمع حديثها مع نيجل . . فليكن ! ان هذه الحقيقة قد تساعده على اجلاء الأمور ، ولكنه لن يظهر انه أدرك شيئا !.. فاستطرد يقول: **« أن ضيقك بهذه الساعة الصداحة قد أثبت ان المريض ينام نوما سيئا وانه يتأثر لأقل جلبة »**

فانفرجت شفتاها مرتين ، وكأنها تهم بالكلام ، ولكنها كانت تطبقهما دون أن تقول شيئا .. وما لبثت أن قالت فى جهد عنيف ، وبذلك الصوت الأجش البشع الشبيه بما سمعه منها فى المعبد : « ان الوقت متأخر الآن ، كما اننى متعبة حقا ، ولم يعد فى وسعى الاستمرار فى الحديث بعد ذلك .. لقد قلت لك أن نيجل نائم ، واننى أرفض أن أوقظه من أجلك او من اجل أى شخص !.. كما أن الطبيب الذى يفهم حالته والذى اختاره هو نفسه ليتولى هذه الحالة ، سيأتى فى وقت مبكر غدا ».. واشارت الى الباب القريب وهى تتابع القول : « ان الفلوكة هنا ، وستحملك الى الشمال .. ولا بد لى من أن أطلب اليك



الرحيل ، فانى متعبـة! » . وأرخت يدها وهى تضيف : « ان هذه الدهبية منزلى يا دكتور ايزاكسـون ، ولا بد لى من أن أطلب اليك بشدة ان تبارحها ! » . فقال : «ولابد لى أيضا من أن ألح ـ كطبيب ـ فى رؤية زوجك »

كانت كل مصانعة بينهما قد زالت، وغدا الأمر نضالا عنيفا وجها لوجه . فقـالت : « هذه قحة شـديدة ، وانى أرفض ما تطلبـه . وقد قلت لك دوافعى ! » . فقـال ايزاكسون : **« انى سأبقى هنـا حتى أرى زوجـك ! »** . ثم جلس على الأريكة مـرة ثانية فى هدوء وعزم ، وقال : « واذا احببت فان بوسعى ان أخبرك بدوافعى ! »

ولكنها لم تسأله عن هذه البواعث .. وكان ينظر اليها من خلال الحاجز الزجاجى ، فيخيـل اليه أنه يرى أرنبـا طريدا مذعورا .. وما لبثت أن قالتوهى تبتسم فجأة، وقداستعاد صوتها نبراته الجميلة : « من السخف ان نمضى فى كل هـذا الجدل حول لا شىء ، فمن الواضح انك كنت ضحيـة بعض الأقاصيص المضحكة فى القاهرة والأقصر ، وما من ريب فى أن بعض الناس « الطيبين » راحدا يتكلمون كما كان يتكلم أناس «طيبون» آخرون فى لندن !.. وهانتذا تصدق كل ما قالوه ،

كما كنت تصدق كل ما كان يقال فى لندن .. وأظنهم قالوا ان نيجل موشك على الموت ، واننى أهمله، أو شيئا من ذلك النوع من الهراء .. وهكذا تقدمت أنت ، أشبه بدون كيشوت من نوع جديد — دون كيشوت طبى ! — فنحيت مبضعك جانبا ، وهرعت لانقاذ من تحسبه فى حاجة الى النجدة !.. ولكنك لاتعرف نيجل اذا حسبت أنه سوف يشكر لك هذا العمل!. » .

وغدا صوتها فى هذه العبارة الاخيرة — رغم احتفاظه بنبراته المتراخية الجميلة — مشوبا بلمحة بشعة مقيتة. ثم استطردت تقول فى هدوء : « ان نيجل يعرفنى كما لايعرفنى العالم كله ، وان الشخص الذى يخطىء فى معاملته لى ، ولا يرعى الاحترام الواجب نحوى كزوجته ، سيجد أنه فقد نيجل كصديق ! »

وأحس ايزاكسون بمثل ما يحس به رجل يجد عدوه يكشف بغتة عن بطارية من المدافع المضادة ، ويجد نفسه فى مواجهة فوهات المدافع الضخمة . بينما اردفت المرأة تقول فى رفق وتدبر ، وهى تؤكد قولها بانحناءة صغيرة من رأسها : « انك لاتعرف نيجل !.. ومن الافضل ان تفعل ما أطلب اليك أن تفعله يادكتور ايزاكسون .. واذا أردت أن تكون ذا نفع لنيجل، فمن الخير ألا تحاول أن تشق طريقك بالقوة فى منزلى ورغم ارادتى ، وفى مثل هذه الساعة من الليل ، فى حين اننى متعبة وقد رجوتك ان تنصرف !.. ومن الافضل ان تدعنى أطلب الى الدكتور هارتلى غدا أن يعقدندوة استشارية،وأخبر نيجل ، ثم أدعوك الى الحضور . . هذه هى الخطة المثلى اذا شئت ان تؤدى صنيعا لنيجل »

وعادت تجلس على الأريكة — على مقربة منه — الى جوار الباب الذى خرج منه حمزة، ثم اردفت تقول فى هدوء رقيق: « ثم اننا — نيجل وأنا — قد بحثنا هذا الأمر معا » .. فتساءل: «بحثتما هذا الأمر معا ؟ » .. كان قد تبين — بسرعة بديهته المعهودة — مدى القوة الحقة لهذا الوضع الاستراتيجى الذى

اتخذته فجأة ، وعلى غير انتظار .. وكان يريد فى تلك اللحظة أن يكسب الوقت ، ولكن عزمه الأول لم يهن أو يضعف أمام تقديمها لنيجل على أنه الرجل المؤمن بها المصدق لما تقول !.. وكان يقدر ـ بحكم معرفته بصديقه ـ صدق حكمها على نيجل حق قدره ، فان ما قالته كان صحيحا كل الصحة ، وكان صدق قولها يبرز حادا نفاذا ، كأنه رأس الحربة ، وسط الأكاذيب الكثيرة التى تحيط به !

ـ بحثتما هذا الأمر معا ؟.. كيف يمكن أن يكون ذلك ؟

ـ انه جد بسيط ، فعندما يتحاب شخصان ، فانهما لايدعان شيئا دون ان يناقشاه ويبحثاه معا .. حتى اعداءهما !

ـ يا عزيزتى المسز أرماين ، لا داعى لهذه التمثيليات المثيرة من فضلك

ـ تمثيليات أو غير تمثيليات ، يادكتور ايزاكسون ، فانى أؤكد لك تلك الحقيقة الواقعة ، وهى ان أصدقائى هم أصدقاء نيجل ، وان أعدائى سيجدون فى نيجل عدوا مبينا لهم ، بكلمة صغيرة منى !

ـ اذا كنت تعنيننى ، فان زوجك لن يكون عدوا لى البتة !

ـ هل تعرف لماذا لم يخبرك قط بعزمنا على الزواج ؟

ـ لم يكن ذلك من شأنى !

ـ لقد أنبأته غريزته بأنك لاتثق بى ! ومضى على ذلك وقت طويل حافل بالأحداث . ثم ان الرجل الذى يحب زوجة ـ أثبتت وفاءها له وتكريسها نفسها من أجله ـ لايعبأ البتة بأولئك الذين لايثقون بها أو يسيئون الحكم عليها ، فان ارتيابهم فيها وسوء حكمهم عليها يبدوان كما لو كانا ينطويان على نقد مرير ، لا لحبه فحسب ، بل لكبريائه كذلك !.. وانى انصح لك ـ اذا ماأتيت الى نيجل كطبيب ـ ان تأتى اليه كصديق لى ، والا فلست أظن أنه ستتاح لك اية فرصة لأن تكون ذا نفع كبير له !

كان ايزاكسون يواجه ندا عنيدا لبراعته ، تلك البراعة التى كان يستمدها من الدماء اليهودية الجارية فى عروقه . وقد تمثل هذا الندفيما أوتيته المرأة من دهاء متحد، لم يخذلها حتى فى تلك الليلة، وهى فى غمرة الشكوك والريب .. فلماذا - وهى على هذه القوة - تجعل من حياتها مأساة مختلطة المعالم ؟.. ولماذا ، وهى على هذه القوة ، لم تكن قادرة قط على أن تمضى قدما فى الطريق المؤدية الى السعادة؟.. ولكنها أسئلة لاجدوى منها ، اذ لابد من البحث عن جوابها بعيدا فى أغوار الخلق البشرى !.. والآن ؟.. وعادت المرأة - فى تلك الاثناء - تقول: « اذا أتيت الى نيجل عندما أدعوك للمجىء ، فسوف يكون كل شىء على ما يرام .. أما على غير هذا النحو فصدقنى اذا أكدت لك ان العاقبة لن ترضيك ! »

وكانت تجلس على الأريكة فى استرخاء ، وقد تلاشى اللون الرمادى الداكن من وجهها ، فبدت أوفر ما تكون عليه من الرضى والارتياح . . وذكر ايزاكسون كيف استطاعت هذه المرأة أن تنال منه فى لندن ، وكيف كانت تبدو ، وهى تقف فى حجرتها بفندق سافوى ، بينما كان يودعها لآخر مرة قبل ان تتزوج من صديقه !.. كانت يومئذ ترتدى ثوبا وردى اللون، أما الآن فانها ترتدى السواد ، حدادا على هارويتش .. وكان يبدو أنها قد استحضرت بعض الثياب خصيصا لترتديها فى المساء ، وهى من ثياب « الحداد المخفف » !

فهل يدعها تنال منه مرة ثانية ، وتنتصر عليه ؟

وعندئذ أجابها فى صراحة : « ولكنك لن تستدعينى » . فسألته : « ولم لا ؟.. اننى أثق فيك كطبيب » .. فقال : « ومع ذلك فانك لن توجهى لى هذه الدعوة ! »

- اذا كان الدكتور هارتلى يرغب فى المشورة، فأعدك بأننى سأدعوك ، ولكنى أرجو الا تغالى فى تقدير أتعابك بما يبهظ كاهلنا .. فلا بد أن تذكر اننا الآن قوم فقراء !

وكان من النادر ان يتغير لون ايزاكسون ، ولكن هذه الكلمات جعلت وجهه الأسمر يتورد شيئا فشيئا .. وبدأ يقول : «اذا كنت تحسبين انني .. انني أسعى وراء كسب مالي .. » ، ولكنها قاطعته قائلة : « ما أجمل ان يستطيع المرء ، عند ما يحصل على اجازة ، أن يربح ما يفي بمصاريفه!.. ولكني أعلم انك لن تحمل نيجل اكثر مما يطيق » !

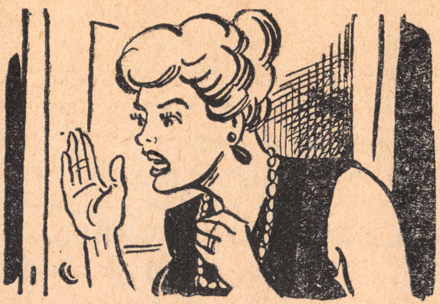
فهب ايزاكسون واقفا .. كانت غريزته قد أوحت اليه بالانصراف، والابتعاد على الفور عن هذه المرأة .. ونسي لحظة ذلك الصوت الذي سمعه في غمرة الليل ، ونسي الكلمات التي نطق بها ذلك الصوت،فلم يعد يسمع الا صوت أثرته وكبريائه، وهو يهيب به ان ينصرف !

واستطاعت ان تقرأ خواطره ، فنهضت هي الأخرى من مجلسها وسارت مبتعدة عن مكانها بالقرب من الباب، ثم قالت وهي تبتسم راضية قريرة : « أمنصرف أنت ؟ » .. ونظر اليها ، فرأى في عينيها تلك النظرة التي رآها فيهما عندما كان يودعها في فندق سافوي بعد مهمته الفاشلة..وعادت تسأله: « أمنصرف انت ؟ » . فقال: « اجل.. انني ذاهب !.. ذاهب لأرى زوجك ! »

وقبل أن يتسع لها الوقت للكلام أو الحراك ، كان قد بلغ الباب الذي مر منه حمزة ، وفتحه ، ثم اختفى وراءه وهو يغلقه خلفه في رفق !

الفصل الخامس والثلاثون

◆ كان مسلك ايزاكسون الحاسم من المباغتة والدهاء ، كما كان تنفيذه قراره الفجائي - وهو قرار ربما استوحاه من خبث غريمته وحقدها القاسيين الجامدين - من السرعة والبراعة ، بحيث فقدت مسز ارماين لحظة كل سيطرة على قواها ، بل كان يبدو أنها فقدت كل سيطرة على افكارها وارادتها .. فعندما اغلق



الباب وألفت نفسها وحيدة فى الحجرة ، وقفت جامدة حيث كانت ، لا تستطيع أن تحرك أصبعا .. كانت تحس تبلدا فى الفهم ، وجمـودا فى المشاعر ، وكأنها وسنانة يداعب النعاس أجفانها !.. وكمـا يحدث للمرء وهو يحس بذلك الخدر الذى يفصل بين اليقظة والسبات - اذ يستعيد أحيانا فكرة معينة لا ترتبط فى الظاهر بأية فكرة أخرى ، ولا تتصل بأية عادة من عادات العقل الواعى - فانها وجدت نفسها تتمثل بعينى خيالها تلك الكتابة العربية المنقوشة فوق باب اللولبية ، وأخذت تردد - فى صمت وتبلد - تلك الكلمـات التى اختارها بارودى شـعارا للسفينة التى وقع فوق ظهرها ذلك الشىء العجيب المداهم - ذهاب ايزاكسـون الى نيجل ! - تلك الكلمات التى تقول : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » !

نعم ، انه كذلك .. بل لابد أن يكون كذلك !.. وفى اسـتجابة بدنية غريبة للمعنى الذى لم تكن تفهمه فى تلك اللحظة الا فى غموض وابهـام ، تركت جسمها يلين وينثنى ، فانحنت كتفـاها الى الامام كما لو كانت شخصا ألقى على منكبيه حمل ثقيل .. أو كأنما كان مصيرها وقدرها معلقين حـول عنقها !.. ولكن هذه الحركة ، رغم ضآلتها ، أعادت الى الوعى تلك المرأة التى تحدت العالم وأدمته .. التى تحدت عالم النسـاء ، وأدمت عالم الرجال ! وسرعان ما قفزت الى ذهنها فكرة كأنها الكائن الحى : « اننى المرأة الوحيدة على ظهر هذه السفينة ! »

عندئذ شدت من قامتها ، وأقامت كتفيها ، وزايلها ذلك الخدر ، بل لعلهـا طرحته عنها فى غضب وحنق !.. وفتحت الباب ومرقت منه فى سرعة خاطفة الى الممر الطويل المؤدى الى حجرة الفسقية وهى تصيح : « نيجل ! نيجل ! ما قولك فى هذه المفاجأة التى أعددتها لك ؟ » .. وكان فى صيحتها حماس

وجمال !٠٠ واندفعت الى الحجرة فى خفة رقيقة غزيرة الأنوثة !٠٠ وكان الرجلان هناك ٠٠ كان نيجل جالسا فوق الأريكة ، وقد اتكأ على بعض الوسائد ، بجوار المعزف المفتوح الذى نشرت فوقه النوتة الموسيقية للحن « جيرونتيوس » ٠٠ وكان ايزاكسون واقفا أمامه ، وقد انحنى فوقه ، وأمسك بيديه فى قوة وعلى نحو يكاد يبدو عنيفا ضاريا ٠٠ وكانت النافورة خلفه — فى ذلك المقر الشرقى الذى ابتدعه محمود بارودى — ترسل رشاشها عاليا ، كما كانت الكرة المذهبة تعلو وتهبط متراقصة فى حركات طائشة عابثة !

ولم تكن مسز ارماين تتبع فكرة أو تدبيرا ، وهى تدخل على هذين الرجلين، وانما كانت تعمل عفو الخاطر ، وبوحى من غريزة تمرست بالحياة طويلا ٠٠ لم يكن فى أعماقها أى جدل أو نقاش عقلى ، ولم تكن تعرف كم قضت من الوقت واقفة وحدها ، ولا هى ساءلت نفسها عما اذا كان الوقت قد اتسع أمام ايزاكسون ليقول شيئا ، أو — اذا كان الوقت قد اتسع له — ماذا كان خليقا بأن يقول ٠٠ كل ما فى الأمر أنها قدمت الى الحجرة فى ذلك الاندفاع الهادىء الرقيق ، فمضت الى زوجها وجلست الى جانبه تتلمسه بأناملها ، وتحيط كتفيه بذراعها وهى تداعب عنقه بأصابعها قائلة : « ما رأيك فى مفاجأتى هذه ؟٠٠ لقد جرؤت على اعدادها لك ٠٠ أفتراني أخطأت ؟ وهل سببت لك ازعاجا ما يا نيجل ؟! » ٠ وفيما كانت تخاطبه ، راحت تنظر الى وجه ايزاكسون ، فتبينت أنه لم يقل شيئا ، واذ ذاك سرت فى وجنتيها حمرة طبيعية ضاعفت حمرة الطلاء ٠٠ ثم استطردت تقول : « ينبغى أن تصفح عنى يا نيجل ! » ٠٠ فهتف : « أصفح عنك ؟! »

وكان صوته الضعيف ينبعث فى نبرات أقوى مما كانت تبدو فى صوته عندما كان يجلس فى الشرفة ، فترك ايزاكسون يدى صديقه ، وتحرك قليلا وقد اختفت من مسلكه تلك اللهفة العاطفية الحانية التى كانت تهتف بصديقه فى نداء صامت : « سوف أنقذك ٠٠ اليك يدا ٠٠ اليك يدين قويتين ، لانقاذك من الهاوية ! » ٠ ووقف ساكنا منتصب القامة ، ولكنه ظل يرمق صديقه بنظرات ثابتة متفرسة ٠٠ لم يسبق له قط من قبل ان نظر الى أحد مرضاه فى عيادته بلندن ، كما أخذ يحملق فى نيجل ارماين بهاتين العينين المتفرستين الثاقبتين ٠٠ وكان وجهه يقول للرجل المضطجع أمامه : « هلا بحت لى بأسرارك ؟٠٠ اننى أريد معرفتها جميعا ! » ٠٠ وعاد نيجل يردد : « أصفح عنك ؟! » ٠ ومد يده الضعيفة المرتعدة يتلمس زوجته ٠٠ وكان يبدو مبهورا ذاهلا ، وهو يردف : « والليلة عندما ٠٠ عندما كنت أقول « لو ان ايزاكسون كان هنا » ، هل كنت تعرفين اذن ؟ »

— انه قادم الى هنا ؟٠٠ نعم ، كنت أعرف ، وكنت أوشك ان أخبرك ٠٠

كانت الكلمات تكاد تنطلق من شفتي ! .. ولكن ، هأنتـذا ترى ان المرأة تستطيع أن تحتفظ بالسر !

فسألها : « وكيف عرفت ؟ » ، ونظر الى ايزاكسون ، ولكن ايزاكسون ترك لها تدبير الاجابة ، لأن وجوده مع صديقه هو كل ما كان يعنيه ، فلم يكن يبالي بأى شيء آخر .. كما انه كان الآن يؤدى مهمة الطبيب فحسب .وقالت مسز ارماين : « لقد التقينا هذا الصباح فى معبد ادفو ، فأخبرت الدكتور ايزاكسون باصابتك بضربة الشمس، وطلبت اليه أن يحضر الليلة لزيارتك ! » .. كانت تكذب بتلك الجرأة العجيبة وذلك الاعتداد الهادىء اللذين عرفهما ايزاكسون عنها ذات ليلة فى فندق سافوى بينما كان ثلاثتهم جالسين حول مائدة العشاء .. لقد راحت اذ ذاك تلقى اليه بالاكذوبة تلو الاخرى فى هدوء وسكينة وهو يعلم أنها أكاذيب صارخة .. كانت تهدى اليه تلك الاكاذيب.. وكما تقبل هداياها اذ ذاك ، أخذ يتقبلها الليلة ، مع فارق يسير ، هو انه الليلة كان عميق الاهتمام بنيجل ، عميق الانتباه الى حالته !

ما الذى كان يدل عليه هذا اللون الغريب ، وهذا المعصم المرتخي ، وهذا الهزال الفظيع ، وهاتان اليدان المرتعشتان ، وهاتان العينان اللتان تثيران الشجن ، وكأنهما تصيحان فى طلب النجدة ؟.. بل لقد كانت تبدو على نيجل أعراض أخرى ، أشد قوة ووضوحا ، تكاد تتصدى للطبيب وتهاجمه ، وكأنها تصيح لتستجلب انتباهه ، وتناضل فى لهفة لكى تروى له قصتها !

وسأله نيجل : « ولكن ما الذى أتى بك الى هنا ، فى مصر ؟.. انك لم تأت بسبب .. » . وقاطعه الطبيب قائلا : « كلا .. كلا ! » .. فسأله المريض : « اذن .. ؟ » . ولاحت فى وجه المريض ابتسامة أشبه بالبكاء وهو يستطرد: « ولكن ، اذن .. لعلك أتيت لكى ... لكى ترى سعادتنا بنفسك !.. هل تذكرين خطابى يا روبى ؟ » .. فأجابت : « أجل » . وكانت يده ما زالت مستقرة فوق يديها ، فأردف قائلا : « حسنا ، اننى منذ ذلك الحين أجتاز وقتا عصيبا .. ولكن تلك السعادة لم تتخل عنى مطلقا .. لم تنقصنى قط ! » .. فهتفت روبى : « ولن تنقصك يوما من الايام ! »

وفيما كانت تقول ذلك ، رفعت بصرها الى ايزاكسون ثانية ، فقرأ فى عينيها وعيدا قاسيا باردا كالفولاذ .. كانت هاتان العينان ترددان ما قالته صاحبتهما له فى الجانب الآخر من ذلك الباب .. كانتا تقولان : « ان أعدائى لن يجدوا فى زوجى صديقا لهم البتة » .. اما وقد رأى ايزاكسون هذين الشخصين معا ، فقد تبين حقيقة الصلة بينهما بما لم يكن فى وسع الكلمات أن تقنعه به .. وخيم الصمت لحظة لم يكن يقطعه فيها غير همسات الفسقية الخافتة .. وما لبثت مسز ارماين ان قالت فى رفق : « اما وقد تلقيت المفاجاة التى

أعددتها لك يا نيجل ، فينبغى لك أن تنام ٠٠ وسوف يعود الدكتور ايزاكسون غدا ليتبادل المشورة مع الدكتور هارتلى فى الساعة الرابعة » ٠٠ وكانت تتكلم كما لو كان كل شىء قد تم ترتيبه والاتفاق عليه ٠ ولكن نيجل قال : « أنام ؟! ٠٠ انك لتعلمين اننى لا أستطيع النوم ٠٠ لم أعد أستطيع النوم الآن » ٠٠ فقال ايزاكسون فى هدوء : « هل الأرق شديد الى هذا الحد ؟ » ٠٠ فقال نيجل : « اننى لا أكاد أنام قط ٠٠ والليالى تمر بى رهيبة مروعة ! »

فقالت مسز ارماين : « نعم يا نيجل ، نعم أيها العزيز ٠٠ ولكنى أظن انك ستنام الليلة ! » ٠٠ فتساءل المريض : « ولماذا الليلة بالذات ؟ » ٠٠ فقالت: « بعد هذه المفاجأة السعيدة التى أعددتها لك ٠٠ ولكنى سآسف على ان أعددتها لك ، اذا كنت ستترك لنفسك العنان فى الانفعال ٠ هل تعلم كم تأخر الوقت الآن ؟٠٠ انها الحادية عشرة والنصف ، ويجب ان تدع الدكتور ايزاكسون يمضى الى الفلوكة ، فقد كان اتفاقنا ألا يحاول الليلة أن يسمع كل شىء عنك أو يدخل فى تفاصيل حالتك ، فان ذلك ليس من الانصاف فى شىء بالنسبة للدكتور هارتلى » ٠٠ فغمغم المريض فيما يشبه عناد طفل صغير : « لعنة الله على الدكتور هارتلى ! »

– أعرف ذلك ٠٠ ولكننا لا ينبغى أن نسلك حياله مسلكا غير لائق ! والآن ، كن عاقلا واذهب الى الفراش ٠٠ لقد أخبرت الدكتور ايزاكسون بالكثير عنك ، واعلم انك ستنام الآن وقد شعرت بانه قريب منك !

– لست أريد أن يكون لى أى شأن بالدكتور هارتلى ٠٠ انه لا يعرف شيئا ٠٠ لست أريد أن يحضر غدا !

وكان يتكلم فى غضب وعناد ، فهتفت مؤنبة : « نيجل ! » ٠ ثم ربتت بيدها على يده ٠٠ فقال : « سامحينى يا عزيزتى !٠٠ آه ! يا لى من وحش قاس ! » ٠٠ واغرورقت عيناه بالدموع وهو يستطرد قائلا لايزاكسون : « اننى أعذبها ٠٠ أجل ، اننى أعرف كم أسبب لها من عذاب ٠٠ ولكنى لا أعتقد أنها غلطتى ، فانى أحس بالمرض الى حد رهيب مروع ! » ٠٠ ثم خارت قواه وتدلى رأسه على صدره ، فمد ايزاكسون يده يتحسس نبضه ٠٠ وكان نيجل يحدق الى أسفل بعينين متسعتين جامدتين كأنهما فقدتا الحياة وعلاهما غشاء زجاجى ، فنظرت مسز ارماين الى ايزاكسون ، ولكنه كان مستغرقا فى مراقبة النبض ، بينما كانت ذاكرة الطبيب – مقترنة بذاكرة الرجل الذى حاقت به الهزيمة ذات مرة من قبل – تقارن هذا النبض الهزيل الذى يخفق فى وهن تحت أنامله الحساسة ، بنبض آخر احس به ذات مرة يخفق قويا عنيفا ٠٠ نبض جعله يدرك مدى انطلاق روح التحدى فى حياة احدى النساء !٠٠ وما لبث أن قال لنيجل وهو يترك معصمه ويرقب فى حذق



كيف سقطت يده دفعة واحدة على الوسادة : « من الخير لك أن تذهب الى الفراش ، وسوف أعطيك شيئا يساعدك على النوم » ٠٠ ففتحت مسز ارماين شفتيها تهم بالكلام ، ولكنه حدجها هذه المرة بنظرة أخرستها وجعلتها تطبقهما دون أن تنبس بكلمة ٠٠ بينما استطرد يقول لنيجل : « لست أدرى ما اذا كان من عادتك أن تأخذ شيئا - أعنى هل يعطى لك شيء - فى الليل ٠٠ فاذا كان الامر كذلك فانك الليلة ستكف عن تناوله ٠ وعليك ألا تمس شيئا سوى ذلك الذى سأعطيه لك ٠٠ سأحضر بمجرد ان تأوى الى الفراش » ٠٠ فبدأ نيجل يقول : « ولكن ٠٠ اننا لم ٠٠ » ٠ فقاطعه ايزاكسون قائلا : « نتبادل أى حديث ؟٠٠ أعلم ذلك ، وسوف يتسع لنا الوقت لهذا الامر ٠٠ أما الآن فان مسز ارماين على حق ، اذ تأخر الوقت ولابد لك من الذهاب الى الفراش فى الحال ! »

وحاول نيجل النهوض ، وعندئذ بادرت اليه مسز ارماين تعاونه ، وتحوطه بذراعها لتسنده وهى تقوده فى بطء الى الممر الطويل الذى يؤدى الى حجرات النوم ٠ وما لبثا أن اختفيا خلال باب صغير الى اليسار ٠٠ وعندئذ جلس ايزاكسون منتظرا ، وهو ينظر الى رشاش النافورة المتوثب ، والى تلك اللعبة المذهبة الأسيرة فى شراكه ٠ وما لبثت أنظاره أن تحولت عنها وراحت تجوب أنحاء الغرفة متفحصة كل شيء فيها ٠٠ ان الرجل الذى رآه يقود الجياد الروسية ويجلس القرفصاء على الارض فى « غرزة الحشيش » ، قد تلائمه الحياة فى هذه الحجرة تماما !٠٠ كذلك هو نفسه - ايزاكسون - ألا يجد الحياة ملائمة مألوفة له هنا ، مع هذه المطرزات الرائعة وسجاجيد الصلاة النفيسة التى نسجت ولا شك مع شيء من لغز الشرق العميق الأبدى ؟٠٠ ولكن صديقه ٠٠ وتلك المرأة ؟٠٠ ترى هل يرتاحان الى هذا الجو ؟

وشعر انه الآن يبغض مسز ارماين فعلا ، فهو رجل يستطيع ان يحسن البغض والكراهية ! ولكنه لن يسمح لهـذا البغض أن يخرجه عن طوره .. لقد هزمته هذه المرأة مرة فى نضال صامت نشب بينهما ، ولكنه يأبى الآن أن يهزم فى هذا النضال الثانى ، فان سقطة واحدة كانت كافية لهذا الرجل الذى لم يعتد من قبل أن يهزم أو يقهر .. واذا كان خلقه وكبرياؤه عدوين له ، فلابد له من أن يكبلهما بالقيود ولا يسمح لهما بحرية العمل !.. انها قد هاجمت كليهما هجوما قاسيا جريئا الليلة ، ولكن اللطمة لم تحقق هدفها ، وبدلا من أن تسوقه الى الانصراف هاربا ، جعلته يذهب رأسا الى زوجها .. لقد طاشت لطمتها هذه ، ولكن ايزاكسون يعترف بقوتهـا كخصم عنيد .. ولسوف يتبادل المشورة غدا مع ذلك الطبيب الشاب فى الساعة الرابعة !.. اذن فهذا ما قررته « بيللا دونا » ، وقضى به حكمها !

وسرعان ما جعله اشتغال فكره ونشاط عقله يمل الجلوس ، فاستوى قائما ومضى نحو الشرفة التى كان يراقبها فى ذلك الوقت المتأخر من فوق ضـفة النيل .. وفيما كان يخطو اليها لمح شبحا أبيض يقف بجوار السياج ، فذكر ان حمزة كان مع نيجل ولكنه اختفى عند اقترابه . ولم يكن قد فكر فى حمزة قيد أنملة ، فقد كان المريض يستأثر بكل ذرة من انتباهه .. أما الآن ـ فى هذا السكون ـ فقد كان لديه الوقت الكافى للتفكير فى حمزة !.. واذ خرج الى الشرفة ، استدار المصرى لينظر اليه .. وكان حمزة يرتدى ثوبا أبيض ، ويجلل رأسه بعمامة بيضاء . وكانت ذراعاه تتدليان الى جانبيه ، فبدت يداه النحيلتان ، بأصـابعهما المتباعدة ، كبقعتين سـوداوين على ثوبه الفضفاض الطويل ، كما بدا وجهه الأسود فى الليل ، وفى الضـوء المنبعث من حجرة الفسقية ، أشبه بحلم شرقى !

وكان يقبع فى عينيه تعصب بارد .. ومع ذلك فقد كانت هاتان العينـان تجذبان شيئا ما فى ايزاكسون .. كان يشعر بألفة غريبة فيهمـا ، دون أن يفهم ما تعنيانه ! وراح يفكر فى مدخن الحشيش ، وفى بساتين البرتقال التى تحيط بالمنزل الصغير المتوارى الذى كان مدخن الحشيش يغشاه أحيانا .. ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى عالم خاص ـ نعم ، على الرغم من قدوم الانجليز ، وما يدعونه بـ « يقظة الشرق » ـ عالم غريب خيالى ملىء بالاحلام ، عالم غزير الاغراء والغواية !.. ترى هل خضعت « بيللا دونا » لسحره ، واستسلمت له ؟.. ومضت عينا ايزاكسون ـ فى محاولة لاشعورية ـ توجهان هذا السؤال الى ذلك الشرقى الذى أصبح وصيفا خاصا لتلك المرأة .. ولـكن العينين لم تجيبا على تساؤله ، فاقترب من حمزة حتى وقف بجوار السياج ، ثم قدم له سيجارة ، فتقبلها حمزة ـ رافعا يده بالتحية والشكر فى هدوء ـ ثم دسها

فى مكان ما من ثوبه !٠٠ ولبثا معا والصمت ثالثهما ٠ وكان ايزاكسون يتساءل عما اذا كان حمزة يتكلم الانجليزية ٠٠ لقد كان يبدو مليئا بالاسرار التى تستقر فى أعماقه ساكنة هادئة ، أشبه بالمياه الراكدة فى بحيرة نائية تحميها الاشجار ، فى مكان خال من الرياح !٠٠ ربما كان فى وسع « ستارنورث » أن يفهمه ، فان ستارنورث يفهم بعض أسرار الشرق وخفاياه ٠٠ وعندئذ تذكر ايزاكسون حديث ستارنورث فى تلك الليلة ، والعبارة التى ختم بها سهرته ، وهو ينصرف لشأنه ، اذ قال : « هذه شريعة تختلف عن شريعتنا ! »

ولكن ٠٠ هل يقبع سر الدهبية — سر اللولية الجميلة — بين ضلوع هذا « الشرق » كذلك ؟٠٠ وفى ذلك الصمت المخيم ، راح عقل ايزاكسون ينشد الحديث مع عقل حمزة ، ويحاول أن يتصل به اتصالا وثيقا ٠٠ غير انه خال ان عقل الشاب كان يرد على أعقابه ردا رفيقا ، فان حمزة ما كان ليعترف بالشطر الشرقى من ايزاكسون ٠٠ أو لعله أحس بالعنصر اليهودى فيه !٠٠ وهكذا لم يكن هذان الرجلان قد تبادلا كلمة واحدة ، عندما انبعث صوت مسز ارماين عند باب الحجرة المضاءة ٠ ولكن ايزاكسون كان قد أدرك عبث محاولته فى أن يلقى أية معونة من هذا العقل الملىء بالرفض — وهذه الروح المشبعة بالصلاة — فى أى بحث عن خفايا الماضى ، أو أى جهد فى سبيل اجلاء بعض الأمور الملتوية ، أو أى تنقيب عن البواعث والدوافع البشرية !

وسمع حفيف ثوب ، ثم صوتا ينادى : « دكتور ايزاكسون !٠٠ آه ، أأنت فى الخارج ٠٠ مع حمزة ؟ » ٠٠ وكانت تقف فى مدخل الشرفة ٠ وما لبثت أن أردفت : « هل لك ان تأتى فتعطى زوجى تلك الجرعة المنومة ؟ » ٠٠ وأجاب لفوره : « بالتأكيد ! » ٠ فلما انتقلا الى حجرة الفسقية ، تمهلت ريثما تقول له : « انك تعلم طبعا ان هذا كله خطأ فى خطأ ، واننا لا نتصرف تصرفا سليما ازاء الدكتور هارتلى قط ، ولكنى لا أحب معارضة نيجل ٠٠ فالناقهون شديدو العناد دائما ! » ٠٠ فتساءل : « الناقهون ؟! » ٠٠ وأجابت مؤكدة : « أجل ٠٠ الناقهون » ٠٠ فعاد يسألها : « وهل تظنين أن زوجك فى دور النقاهة ؟ »

— انه كذلك طبعا ٠٠ فانك لم تره فى الايام الاولى بعد اصابته بضربة الشمس !

— هذا صحيح !

— أرجو أن تعطيه تلك الجرعة ، أو كيفما كان اسمها ، وبعدئذ ينبغى حقا أن ننشد شيئا من الراحة !

واذ نطقت بهذه العبارة الأخيرة ، لاحظ فى صوتها نبرات امرأة كادت

تبلغ نهاية احتمالها وقدرتها على المقاومة ، فقال : « انها لن تستغرق لحظة .. فأين هو ؟ » . وأجابت : « سأقودك الى مكانه » . وسارت أمامه الى احدى الحجرات ، حيث وجد نيجل مضطجعا فى فراش أنيق ، تحيط به الوسائد والمساند .. وكانت ثمة شمعة مضاءة فوق رف من الخشب الابيض ، ترسل ضوءا خافتا .. ووقفت مسز ارماين عند حافة الفراش تنظر من عل الى ذلك الوجه النحيل ذى اللون الغريب الشبيه بلون الرصاص ، والذى استدار نحوها متطلعا ، فقالت : « سيجلب لك الدكتور ايزاكسون النوم الآن » . فتمتم : « الحمد لله ، فان الروماتيزم يسبب لى آلاما فظيعة الليلة ! » .. وهنا تساءل ايزاكسون : « الروماتيزم ؟! »

وكان قد سكب قليلا من الماء فى الكوب ، وأسقط فيه شيئا ، ثم قدم الكوب الى نيجل ، دون أن يقترب منه كثيرا .. وكان من الضرورى أن يمد المريض ذراعه حتى يمكنه أن يتناول الكوب ، فأتى نيجل بحركة ليحاول ذلك ، ولكن ذراعه ما لبثت أن هوت على الفراش ، فقال فى حنق وصبر نافد : « هلا أدنيته منى ؟ » . فتقدم ايزاكسون ورفع الكوب الى فم المريض .. ثم عاد يسأل بعد أن ابتلع نيجل جرعة الدواء : « الروماتيزم ؟! » .. فأجابه نيجل : « أجل ، انه يؤلمنى ألما شديدا ، كأن عددا من الحيوانات تنهش عظامى ! » .. وتأوه ثم غاص فى الفراش ، بينما كان ايزاكسون يغمغم قائلا : « اننى لا أستطيع ان أفهم ذلك .. الروماتيزم فى هذا الجو الرائع الجميل ؟ »

عندئذ أتت مسز ارماين بحركة مترفعة ، وكأنها تهم بالخروج وتركهما معا ، فقال نيجل : « كلا .. لا تذهبى يا روبى ! » .. ومد يده يتحسس يدها ، وهو يستطرد قائلا : « اننى أريد .. أريدكما - أنتما الاثنان - أن تكونا صديقين .. صديقين حقيقيين !.. انك لا تعلم يا ايزاكسون كيف كانت هى بالنسبة لى فى .. فى هذه الأوقات العصيبة كلها .. انك لا تعلم .. » . وما لبث الصوت الضعيف أن انقطع من فرط الاعياء !

وسكت ايزاكسون لحظة ثم قال : « سأحضر غدا » . فقال نيجل : « أجل ، تعال .. يجب ان ترد لى صحتى ! » .. ولم يكن باستطاعة مسز ارماين أن تصحب ايزاكسون الى « الفلوكة » أو ان تقول له كلمة على انفراد ، اذ كان نيجل ممسكا بيدها وهو يكاد يتشبث بها .. ولكنها غمغمت تقول ، بينما كان ايزاكسون يهم بالخروج : « يجب ان أبقى معه حتى ينام » .. وكانت منحنية قليلا فوق الفراش .. وربما ظن بعض الناس انها كانت تبدو كالملاك الحارس للمريض ، ولكن ايزاكسون أحس بتشاؤم شديد لتركه الدهبية فى تلك الليلة ، فحدج مسز ارماين بنظرة طويلة . واذ رأى انها قد استوعبت تلك النظرة تماما ، مضى لشأنه وقد تركها فى هذا الوضع الجميل العطوف !

ومضى الى السطح متمهلا ·· وكانت الفلوكة لا تزال فى انتظاره ، فانتقل اليها · ومضى اثنان من الملاحين يجذفان مبتعدين عن الذهبية الى عرض النهر ، وقد شرعا فى الغناء ·· وأخذت أضواء اللولية تتسلل متوارية ضوءا بعد ضوء ·· ضوءا أصفر تلو ضوء اصفر ، بينما ظل الضوء الأزرق يتطلع نحوه من عل ، كأنه عين رقيب ·· وكانت ظلمة الماء أشبه بالأبنوس المذاب السائل، تحمل الفلوكة بما فيها من نشيد كأنه نذير القدر المحتوم ، بينما كان التيار يمد يد العون للمجاديف !

وكانت الاضواء تتضاءل شيئا فشيئا عندما رفع ايزاكسون يده فجأة وهو يهتف بالملاحين : « صه ! » ·· فترك الرجلان مجدافيهما فى دهشة ، كما جمد الغناء فى حلقيهما ·· فقد انبعثت فوق النيل ، ضحكات خافتة ، ولكنها كانت حادة ذات صرير ·· كان ثمة شخص يضحك ثم يضحك ، ويمعن فى الضحك فى هذا الوقت من الليل !·· ومضى كل من النوبيين يحدج زميله بأنظاره ، وقد أدار الرجل الممسك بدفة القارب رأسه نحو زميله ! وتبعت تلك الضحكات الرهيبة صيحات خافتة ، ثم ·· أليس ذلك صوت امرأة تنشج نشيجا حارا فى مكان ما ؟

ولبث ايزاكسون ينصت حتى تلاشى الصوت ، وعندئذ أومأ الى الملاحين برأسه ـ وقد علا وجهه العبوس وتوترت عضلاته ـ فعادا ينحنيان من جديد فوق المجاديف ·· وعادت الفلوكة تنزلق فوق صفحة النيل !

الفصل السادس والثلاثون



✤ كانت مسز ارماين ـ عندما أرسلت رقعتها الى ايزاكسون على ظهر دهبيته « فاطمة » ـ قد أبرقت سرا الى الدكتور هارتلى تطلب اليه الحضور

الى اللولية بأسرع ما فى وسعه ٠٠ ولكنها اوحت الى ايزاكسون بأنه سيحضر فى الساعة الرابعة من اليوم التالى ٠٠ فلعلها نسيت ـ أو لم تكن تعرف ـ مواعيد القطارات القادمة من أسوان !٠٠ ومهما يكن من أمر ، فان الدكتور هارتلى وصل الى اللولية قبل الموعد الذى حددته مسز ارماين للاستشارة بساعات عديدة ٠ وسرعان ما ألم بتطورات حال المريض وتولى أمره ، بينما كان ايزاكسون لا يزال على ظهر دهبيته « فاطمة » !

ولم يكن ايزاكسون قد ذاق للنوم طعما فى ليلته تلك ، كما أن حلم النيل ، وسحره ـ الذى كان قد غرق فيه حتى أذنيه ـ غاض وتلاشى حتى لكأنه لم يوجد قط ٠٠ كان شعوره الداخلى يوحى اليه بالذهاب الى اللولية عند انبثاق النهار ، ولكنه ـ للمرة الاولى ـ ابى ان يطيع هذا الشعور ٠٠ وعند الفجر ، كان العقل الذى هدأت سورته يقول له : « رويدك لا تندفع ولا تتهور ! » ، فأصغى الى صوته ، وكبح جماح نفسه ٠٠ وكان لابد من ان يقضى بضع ساعات على انفراد ، وفى هدوء شامل ، بعد تلك الليلة المسهدة المليئة بالافكار المحمومة ٠٠ ولم يكن ثمة سبب معين ، فيما كان يعتقد ـ بعد تلك النظرة الطويلة التى حدج بها مسز ارماين قبل خروجه من حجرة نيجل مباشرة ـ يستحثه على الذهاب فى الساعات الاولى من هذا اليوم الجديد ، الى المريض الذى كان ينوى أن يعالجه ويشفيه ، فليدع الجرعة المنومة تحدث أثرها كاملا ، وليدع ساعات الصباح النقية تهدىء سورة الحمى فى افكاره هو !

وهكذا جلس فى استرخاء على سطح الدهبية ، بينما كانت الشمس ترتقى فى جلال عرش السماء الصافية ، واخذ يرقب كفاح الكادحين عند الشادوف ٠ وكان ضوء الشمس يسطع لمحة خاطفة على الماء المتدفق من الدلاء ، فيحيله ـ للحظة عابرة ـ الى أعجوبة رائعة ٠٠ وراحت العجائب تترى ، اذ كان العمل الشاق لا ينقطع ، وكانت الاجسام العارية لا تفتأ تنحنى وتستقيم ، والعضلات المفتولة تنفر وتبرز ، ثم لا تلبث أن تبدو كأنها تسيل ـ كما يسيل هذا الماء ـ على الساعدين ، تحت الجلد الاسمر البرونزى ٠٠ ومن الرئات ، التى بدت وكأنها صنعت من نحاس ، كانت تنبعث تلك الأناشيد القوية ، التى يحتمل أن تكون ضفاف النيل قد ظلت ترجعها مذ بدأ أبو الهول الخالد يحملق فى الفضاء السرمدى بعينيه اللتين لا تمتان الى هذه الدنيا بصلة ! ٠٠ وعلى الرغم من أن ايزاكسون قد تمهل عن عمد ـ ريثما يستطيع أن يسيطر على نفسه تماما ويملأها بالسكينة والهدوء ، وريثما يطرد من قلبه وفكره أى تحيز أو تحامل محتملين ـ فانه لم يمض فى تمهله حتى الساعة التى حددتها مسز ارماين ٠ فما ان مرت الساعة الواحدة ـ ورغم وقدة الحر

الشديدة - حتى كان يجلس فى « الفلوكة » الوحيدة التى زودت بها «فاطمة» ، وفى صحبته - عدا المجدفين - حسن ٠٠ ولو انك سألت ايزاكسون عن السبب فى اصطحابه ، لما استطاع أن يقدم اجابة شافية ٠٠ كل ما فى الأمر انه خطر له أن يأخذه معه ، ففعل !

وكان ايزاكسون قد عاد الى دهبيته فى الليلة الماضية فى سرعة ويسر مع التيار ، اما الآن - وفى وقدة الحر - فقد كان عليه ان يمضى ضد التيار مصعدا فى النيل ٠ وكان الرجال يعملون فى مشقة بالغة ، وهم يرفعون أنفسهم عن مقاعدهم مع كل لطمة من لطمات المجاديف ، ويشددون الضغط باقدامهم ليستجمعوا قواهم ٠٠ ولكن تقدم القارب كان بطيئا ، حتى لقد كان ايزاكسون يحس - فى بعض الاحيان - كأن قوى بشرية خفية تجهد فى رده عن غايته ٠٠ كان يحس بمقاومة عنيدة لابد من مكافحتها فى غير رحمة أو شفقة ٠٠ وكانت عضلات جسده - بين الحين والحين - تتصلب وتشتد ، وهو يراقب الرجال فى كدهم العنيف ٠٠ ولكنهم ، اخيرا ، بدأوا يقتربون من اللولية ٠ وأخذت عيناه الثاقبتان تجوبان الشرفة بحثا عن أشخاص فيها ، الا انه لم ير أحدا ، فقد كانت الشرفة خالية خاوية ٠٠ وخيل اليه ان السفينة الكبيرة قد استغرقت فى نوم عميق ، تحت وطأة الحر اللافح ، وفوق المياه التى كانت اشعة الشمس المحرقة تنصب عليها انصبابا ٠٠ بل بدت وكأنها خلت من أى أثر للحياة فى أى مكان فيها ٠ وكان هذا الشعور - بخلوها من آثار الحياة - يزداد لديه كلما ازداد من السفينة اقترابا ٠٠ كان السطح العلوى كله - فيما عدا الناحية المواجهة للضفة والتى لم يكن يستطيع أن يراها من القارب - مغطى بالستائر السميكة ، وكانت المصاريع الخشبية لنوافذ الحجرات مغلقة جميعها ٠ ومع أن بابى حجرة الفسقية كانا مفتوحين ، الا أن الحجرة نفسها كانت ترزح تحت ظلمات لم تستطع عينا ايزاكسون أن تخترقا حجبها من قاربه الصغير ٠٠ ولم يسمعوا أى صوت يحييهم وهم يدنون من الدهبية ويجدفون بجوارها ، فبدأ ايزاكسون يأسف لقدومه فى ساعة القيلولة ٠٠ وكان القارب ينزلق بهم أمام نافذة خضراء بعد نافذة خضراء أخرى ، حتى أصبح محاذيا للسطح الامامى المنخفض ٠ وهناك كان ابراهيم يقف بقامته المديدة ، منتبها ، وقد لاحت على وجهه ابتسامة عريضة مرحبة ٠٠ وأحس ايزاكسون بشيء من المباغتة اذ وجد ان اقترابه من السفينة كان معروفا ، واذ وجد فى انتظاره هذا الترحاب الرقيق !

وخطا الى سطح السفينة ، يتبعه حسن عن كثب ٠٠ كان السطح قد تناثرت عليه أجسام رجال لا تسترهم الا ثياب ضئيلة ، وقد استغرقوا فى نوم عميق ٠٠ فخاطب ايزاكسون ابراهيم فى صوت خافت ، قائلا : « هل تفهم

الانجليزية ؟ » ٠٠ فأجابه ابراهيم : « أجل ياسيدى ٠٠ هل حضرت لتقابل الطبيب الطبيب الذى يعالج سيدى ارمينجل؟٠٠ انه هنا منذ زمن طويل ! » ٠٠واذ ذاك تساءل ايزاكسون : « هل حضر حقا ؟! » ٠٠ فابتسم ابراهيم مؤكدا ، وقال : « منذ زمن طويل جدا ياسيدى ٠٠ وقد حضر ليقيم معنا حتى يشفى سيدى ! »

واستدار ابراهيم - وهو يستجمع أطراف ثيابه الذهبية اللون - ومضى يرتقى الدرج الى السطح العلوى ٠٠ وتردد ايزاكسون لحظة ، ثم لم يلبث ان تبعه متمهلا ٠ وفى هذه اللحظة القصيرة من التردد ، كان يقول لنفسه « كان ينبغى ان احضر الى هنا فى وقت مبكر ! » ٠٠وفيما كان يرتقى الدرج - وعندما أصبحت عيناه فى مستوى الدرجة العليا منه - تبين وجود شاب نحيل الجسم أنيق الثياب ، يرتدى بنطلونا أبيض من التيل ، وقميصا حريريا ذا ياقة لينة منخفضة ، ورباطا للرقبة ذا لون وردى فاتح ، وسترة أنيقة التفصيل ، رمادية، ذات خطوط رفيعة زرقاء ، وجوارب وردية اللون ، وحذاءين أبيضين من جلد الغزال (شاموا) ، وقد اضطجع فوق مقعد طويل ، تحيط به الوسائد اللينة ، ووضع فوق عينيه قبعة من القش استقرت حافتها فوق أنفه القصير المستقيم، الذى يدل على شيء من الصفاقة !٠٠ وكانت تنبعث من سيجارة ثبتها بين شفتيه حلقات متتابعة من الدخان الشاحب

واذ وضع ايزاكسون قدمه فوق السجاجيد الشرقية النفيسة التى كانت تغطى سطح الدهبية ، دفع الشاب قبعته الى أعلى ، ونظر الى القادم ، ثم خفض ساقيه فى بطء ، ونهض قائلا : « دكتور ايزاكسون ؟ » ٠٠ فقال الطبيب وهو يتقدم نحوه : « أجل » ٠ واذ ذاك مد الشاب يده اليه فى غير اكتراث ، وهو يقول : « يسرنى أن ألقاك ٠٠ اننى الدكتور هارتل ، الذى يتولى علاج حالة ضربة الشمس الموجودة هنا ٠٠ وقد أتيت اليوم من أسوان لأرى كيف تسير حالة مريضى ٠٠ هل لك فى سيجارة ؟ » ٠٠ فأجاب ايزاكسون : « شكرا » ٠ وتناول اللفافة ، بينما كان الطبيب الشاب يردف قائلا : « ان الجو جميل فى أسوان !٠٠ هل هذه اول زيارة لك للنيل ؟ »

وكان الشاب يتكلم فى لهجة لا يكاد يبدو فيها أقل أثر للكنة الأمريكية ، بل انه عندما رفع قبعته ، كشف عن وجه أسمر يعلوه نمش خفيف ، وشعر كثيف أسود مفروق عند وسط الراس ، تتخلله تموجات طبيعية ، وان خيل للرائى انها من أثر صنعة متقنة !٠٠ وكان له شارب صغير منتفش ، يدل على انه ترك لينمو حديثا ٠٠ وكانت ذقنه مستديرة ، تكاد تدل على الشهوة ٠ أما عيناه فكانتا واسعتين مستديرتين ، لهما لون رمادى مشوب بالصفرة ٠٠ وكانت أخلاق الرجل تبدو فى هاتين العينين واضحة كل الوضوح !٠٠ كانتا جميلتين ،

شديدتي الحساسية ٠٠ ولكنهما كانتا تنمان عن الأثرة والأنانية المقرونتين بالشهوة وحب الملذات ٠٠ وكان يلوح شابا حدثا ، ولكنه كان في الواق تخطى الثلاثين ٠ وقال ايزاكسون يجيب عن سؤاله : « أجل ، انها زيارتي الأولى » ٠٠ فقال الآخر : « هلا جلست ؟ » ٠ وكان يتكلم في يسر وراحة وكانه من أهل البيت ٠٠ وما لبث ان غاص في مقعده الطويل ثانية ، وهو يضع قبعته فوق ركبتيه ويمد ساقيه أمامه ، بعد أن رفع سرواليه الأبيضين قليلا ٠٠ واتخذ ايزاكسون مجلسه فوق مقعد صغير ، ثم مال الى الأمام ، وقال في صوت رجل الأعمال الذى يتطرق الى الموضوع مباشرة :

ـ لا شك ان مستر أو مسز ارماين ، أو لعلهما كليهما ، قد شرحا لك كيف جاءت صلتي بهذه المسألة ؟٠٠ انني صديق قديم لمريضك !

فقال الدكتور هارتلي في صوت جاف الى درجة ملحوظة : « هكذا فهمت ! »

ـ لقد عرفته منذ عهد بعيد ، قبل أن يتزوج ٠٠ منذ عهد بعيد جدا ، قبل ان يكون رجلا عليلا !٠٠ واذ كنت هنا ، وسمعت عن مرضه الفجائي الخطير ، فقد حضرت طبعا لأرى كيف حاله ٠٠

ـ شيء طبيعي جدا !

ـ ومن المحتمل ان تكون قد سمعت باسمي كطبيب استشارى في لندن ؟

ـ بالتأكيد ٠٠ فان نجاحك عظيم طبعا يا دكتور ايزاكسون ٠٠ واني لأعجب حقا كيف استطعت أن تحصل على أجازة ، وأعجب كيف سمحت لك سيدات لندن بالرحيل ؟!

وعلت الابتسامة شفتيه ، ومضى يتحسس شاربه في رفق ، فقال ايزاكسون : « ولماذا السيدات ، خاصة ؟ » ٠٠ فأجاب الطبيب الشاب : « لقد فهمت ان عملك ينحصر ـ في الغالب ـ في علاج سيدات الطبقة الراقية العصبيات في لندن ! » ٠٠ فقال ايزاكسون : « كلا ! » ، وكان صوته في هذه المرة ينطوى على صدى الخشونة والجفاف اللذين كانا في لهجة الدكتور هارتلي ٠٠ فقال هذا : « انني آسف ! »

ـ هل لي ان أسألك عن السبب ؟

ـ اننا في الجانب الآخر من المحيط نعدهن ٠٠ هل لي ان أقول : خير طراز من المرضى ؟!

فندت عن ايزاكسون آهة خافتة ، وتذكر ـ في تلك اللحظة ـ عبارة مسز ارماين التي جعلته يندفع الى حجرة المريض في الليلة الماضية ٠٠ وخيل اليه انه يستطيع ان يستشف استفزازها القاسي في هذه الكلمات التي نطق بها الطبيب الشاب ٠٠ الكلمات التي بدت مبهمة ، وان كانت واضحة بما فيه الكفاية ! ولكنه استطاع أن يكبت مشاعره ، وان يقول مستبعدا الحديث عن شخصه :

« أعتقد فيما يختص بمستر ارماين ·· » · ولكن الدكتور هارتلى قاطعه فى حزم وهدوء ، وقد بدا أنه على قدر وافر غزير من رباطة الجاش وضبط النفس ·· اذ قال وهو يسوى بعض الغضون فى سرواليه : « أعتقد ان الصراحة تمهد الطريق وتيسر الأمور دائما ·· ولذلك أقول لك اننى لست فى حاجة لأية مشورة يا دكتور ايزاكسون ·· اننى لا أعدها من الحالات التى تحتاج الى تبادل المشورة فى الوقت الحاضر ، ولكنى اذا رأيتها كذلك ، فسوف يسرنى عندئذ أن أدعوك الى هنا »

وكان ايزاكسون يرخى بصره متأملا السجادة الممتدة تحت المقعد ، فقال دون ان يرفع نظراته : « هل ترى ان مستر ارماين يتقدم على نحو يدعو الى الاطمئنان ؟ » · فقال هارتلى : « انها ضربة شمس شديدة ، وسوف تحتاج الى مزيد من الوقت والعناية ·· ولذلك قررت أن أمكث بضعة أيام على ظهر السفينة لأكرس نفسى للعناية بهذه الحالة ، والتفرغ لها » ·· فقال ايزاكسون : « هذا جميل منك »

ـ وليس لدى أية ذرة من الشك فى أننى سوف أعيد الى مريضى صحته الكاملة سريعا جدا !

ـ ألا ترى أية مضاعفات فى الحالة ؟

فهتف هارتلى : « مضاعفات ؟! » ·· وكانت نبراته عدائية بادية التحفز ، ولكن ايزاكسون عاد يقول فى هدوء : « أجل ، مضاعفات !·· هل انت مقتنع تماما بأنها حالة ضربة شمس ؟ » ·· فصاح الآخر متحمسا : « تماما ! » · ولكن ايزاكسون قال فى هدوء بارد : « حسنا ·· ولكنى لا أراها كذلك ! » · فحملق الدكتور هارتلى فيه ، قائلا فى خشونة : « اننى أعلم أنك قد حضرت بنية تبادل المشورة ، ولكن مريضى لم يطلب ذلك ·· ولما كنت أعتقد أن هذه المشورة ليست لازمة على الاطلاق ، فانك خليق بأن تعترف بأننا لسنا فى حاجة الى متابعة الحديث فى هذا الشأن ! »

ـ هل قلت ان المريض لا يرغب فى أخذ رأيى عن الحالة ؟

ولاحت امارات الدهشة على ايزاكسون ، وهو ينطق بهذه الكلمات · بينما أجاب هارتلى : « لقد قلت ذلك حقا ، فهو راض تماما عن ترك حالته بين يدى ، وقد أنبأنى بذلك عند وصولى فى الصباح ! » ·· وهنا قال ايزاكسون : « لست أشك لحظة فى مقدرتك يا دكتور هارتلى ·· ولكن الحقيقة هى ان ازدواج الرأى فى الحالات المعقدة ·· » · فقاطعه الآخر بحدة : « ومن الذى يقول انها حالة معقدة ؟ » ·· فأجاب ايزاكسون : « أنا ·· ولقد صدمت أشد صدمة لمنظر مستر ارماين ، عندما رأيته فى الليلة الماضية ·· ولو انك عرفته وهو فى صحته الكاملة ، لصدمت مثلى ·· لقد كان من أشد الرجال الذين رأيتهم فى حياتى

قوة ، واوفرهم صحة ، وأتمهم عافية ! »

وكان ايزاكسون وهو يقول هذه العبارة يتخيل ارماين واقفا امامه ، كعهده به من قبل ٠ ثم استطرد يقول مكملا عبارته : « ان التغير الذى أصابه – فى عقله وفى بدنه – يبعث على الفزع والرهبة ! » ٠٠ وكانت فى نبراته رنة تنم عن الاخلاص والخوف ، فتململ الدكتور هارتلى فى مجلسه ، واخذ يعبث بقبعته ، ويجذب سرواليه الى أسفل ، ثم أسقط سيجارته على السجادة ، وما لبث أن بادر فى عجلة وارتباك الى اطفائها بقدمه ٠٠ وكان قد أنزل قدميه بعد أن كانتا مرفوعتين أمامه ، وجلس ضاما اياهما فوق السجادة ، وهو يقول : « من الطبيعى ان اصابة كهذه تحدث بالرجل تغييرا جسيما ، فماذا تنتظر غير ذلك ؟٠٠ ماذا تنتظر غير ذلك حقا ؟٠٠ لقد لاحظت ذلك كله ، وهذا هو السبب فى أننى سوف أبقى هنا ٠٠ ولعمرى يا دكتور ايزاكسون ٠٠ » ٠ وكان وهو يقول ذلك يحاول اصطناع مظاهر الغضب والضيق ٠٠ ومضى يقول : « لعمرى ان من يسمعك قد يظن أننى قليل الاكتراث بحالة مريضى ، أو اننى أنظر اليها باستخفاف » ٠٠

وشعر ايزاكسون بأنه يواجه مظاهرة من الحنق المفتعل ، بينما مضى هارتلى يقول : « وأحسبك ستتهمنى بعد ذلك بعدم الكفاية الفنية !٠٠ واذا كنت لم اقل لك من قبل ، فانى أقول لك الآن اننى اعتبر ما فعلته من تدخل فى شئون مريضى خرقا صريحا للتقاليد التى تسود مهنتنا » ٠٠ فتساءل ايزاكسون : « كيف كان هذا التدخل ؟ » ٠٠ فأجاب هارتلى : « لقد سمعت انك أعطيته بالأمس شيئا لا أدرى ما هو ٠٠ أعطيته شيئا كى ينام ! » ٠٠ فقال ايزاكسون: « لقد فعلت ذلك حقا ! »

– حسنا ٠٠ لقد كان لهذا أسوأ الأثر عليه !

– هل ازدادت حالته سوءا اليوم ؟

قال ايزاكسون ذلك فى اهتمام مشبوب ، وهو لا يكاد يعى ما يقول ٠٠ الا ان الدكتور هارتلى ضم شفتيه فى قوة ثم قال ببرود : «لسنا فى جلسة استشارية!» ٠٠ فقال ايزاكسون : « ولكنى أسأل كصديق للمريض ، لا كطبيب » ٠٠ فاجاب هارتلى : « كانت ليلته بالغة السوء » ٠٠ ثم عاد يطبق شفتيه فى قوة ، وقد بدا العداء واضحا – وان كان ضعيفا – فى وجهه وفى جسمه الأنيق الثياب ٠٠ وما لبث أن أردف : « انه الآن نائم » ٠ فتساءل ايزاكسون : «أهو نائم الآن؟» ٠٠ وأجاب الآخر : « أجل ، وسينام عدة ساعات أخرى ، فقد عملت – أنا – على اجتلاب النوم الى عينيه ! »

وأحس ايزاكسون فجأة بجسمه يسترخى ، وكأنما لانت عضلاته جميعها ٠٠ ان صديقه سوف ينام عدة ساعات !٠٠ وظل لحظة يستمتع بشعور من الارتياح البالغ المستعذب ، ثم أيقظه هذا الشعور على وعى آخر أوفى وأتم ٠٠ وعى ذكره

بالسبب الذى بعث فيه هذا الارتياح ، وبالسبب الذى سبقه ، فزاده ارتياحا ٠٠ وكان لا بد له من ان يعمد الى الملاينة ، فقال : « اصغ الى يا دكتور هارتلى ٠٠ لست أبغى قط أن أنحيك عن معالجة هذه الحالة ، اذ اننى لست فى الواقع طبيبا جشعا متطفلا، وما أنا بالذى يقحم نفسه فى حالة - ليست من اختصاصه - لمجرد ميل شخصى ٠٠ وأستطيع أن أؤكد لك ان لدى فى لندن أكثر مما يكفينى من الأمراض والمرضى ، وخليق بى ان أشكر حظى فى الفرار منها الى هنا ٠٠ اننى فى حاجة الى اجازة ! » ٠٠ فقال الدكتور هارتلى فى رصانة : « استمتع باجازتك اذن يا دكتور ايزاكسون ٠٠ استمتع باجازتك و دعنى أقم بعملى !

- كلا ! ومهما يكن من أمر تقاليد المهنة أو غير تقاليد المهنة ، فانى لا استطيع ان استمتع باجازتى فى حين ان صديقى فى مثل هذه الحالة من المرض ٠٠ ليس فى وسعى أن أفعل ذلك !

- اننى فى الواقع أخشى ان تضطر الى ذلك ، فيما يختص بهذه الحالة على الأقل ٠٠ فانا امريكى ، ولن أدع نفسى أنحى عن الشىء الذى يخصنى والذى وضعت يدى عليه ٠٠ لن أدع نفسى أنحى عنه بمثل هذه الفظاظة ، وضد رغبات أولئك الذين دعونى الى هنا ٠٠ لم يحدث لى على الاطلاق ، طوال ممارستى المهنة ، ان أتى طبيب آخر ليقحم نفسه عنوة وغصبا - نعم ، فذاك هو التعبير الصحيح لهذا العمل ! - ليقحم نفسه عنوة فى عملى ، وبغير « عن اذنك » ٠٠ كما تفعل أنت !٠٠ ان ذلك بكل بساطة شىء لا يمكن احتماله !٠٠ ولست بالرجل الذى يطيق شيئا لا يمكن احتماله ، والواقع ان الذى لا يعرف أنك طبيب يحسبك شرطيا سريا ممن يعملون فى الخفاء !٠٠ اذا شئت الصراحة ، فانك الآن أشبه بذلك !

فقال ايزاكسون فى اقتضاب : «وأين مسز ارماين ؟ أنائمة هى الأخرى؟ » ٠ فأجاب : « انها كذلك فعلا ! » ٠٠ وكانت لهجته من القحة والفتور بحيث وخزت ايزاكسون وآلمته !٠٠ وما حدث له قط من قبل أن شعر بالرغبة فى استخدام القوة البدنية كما شعر بها اذ ذاك ، ولكنه مع ذلك لم يفقد القدرة على كبت هذه الرغبة ، وان راح يحس ألما مريرا فى هذا الكبت ! وقال : « ألديك أية فكرة عن المدة التى ستقضيها نائمة ؟ » ٠٠ فأجابه الآخر : « بضع ساعات ! »

- ماذا ؟٠٠ هل تعنى انك عملت على اجتلاب النوم الى عينيها ، هى الأخرى ؟

- لقد أقدمت على ذلك ، اذ أنها قضت ليلة سيئة هى الأخرى !

فتذكر ايزاكسون تلك الأصوات التى بلغت مسامعه فوق مياه النيل ، ثم قال : « هل أعطيتها جرعة منومة ؟ » ٠٠ وأجابه هارتلى : « أجل ! » ٠٠ وهنا قال ايزاكسون : « ولكنها كانت تتوقع حضورى الى هنا ؟٠٠ كانت تتوقع أن احضر للتشاور فى حالة المريض ؟ » ٠٠ فقال الآخر : « عفوا ٠٠ لقد تفضلت

فأعربت عن نيتك في الحضور ، من تلقاء نفسك ، بيد أن مسز ارماين كانت على قدر كبير من الرقة والذوق من ناحيتي - وهذا ما أوقن منه - ولكنك وضعتها في مركز بالغ الدقة والحرج ٠٠ لقد شرحت لى حقيقة الأمر عند حضورى ! »

« لقد شرحت لى حقيقة الأمر » !٠٠ اذن فهذا ما حدث ؟٠٠ وأحس ايزاكسون كأنه يحارب عدوا بث الألغام في طريقه ليمنعه عن المضى أو ليقضى عليه ، ثم تراجع ووقف على مبعدة يرقب النتيجة ٠٠ وعندئذ قال في هدوء وبرود : « لقد أعرب مستر ارماين في الليلة الماضية ، يا دكتور هارتلى - وفي حضور مسز ارماين - عن رغبته القوية في أن يضع نفسه بين يدى ٠٠ وعندما أتيت الى هنا اليوم لم تكن لدى أقل نية في أن أسىء الأدب ازاء أى انسان ٠ أما وقد اخترت أنت أن تثير المصاعب في وجهى ، فلا بد لى من أن أقول لك كل شيء ٠٠ لقد قال مستر ارماين في الليلة الماضية : « انني لا أريد أن يكون لى أى شأن بالدكتور هارتلى ٠ انه لايعرف شيئا ٠٠ انني لا أريد أن يحضر غدا » ٠٠ وقد كانت مسز ارماين معنا وسمعت هذه الكلمات » ٠٠ فاصطبغ وجه الطبيب الشاب الأسمر بحمرة قانية ، واتسعت عيناه المستديرتان في دهشة بالغة حتى غدا شكله مضحكا ، وبدأ يتمتم قائلا : « هو ٠٠ هل قال ٠٠؟ » ٠ ولكنه ما لبث فجأة أن راح يتشدق في كلامه بلهجة أمريكية ، مستطردا : « عفوا ٠٠ انني لا أصدق ذلك » ٠ فقال ايزاكسون : « ولكنها الحقيقة ، مع ذلك ٠٠ » ٠ فصاح الآخر : « لست أصدق ما تقول ، هذه هي الحقيقة ٠٠ فقد رأيت مستر ارماين ووجدته يرحب بى في ابتهاج شديد ٠٠ وقد وضع نفسه بين يدى عن طيب خاطر ، وطلب منى أن أنقذه ! »

واذ ذاك انتاب ايزاكسون حزن داهم شديد، وغمغم يقول : «يجب ان أراه !»٠ فهتف الدكتور هارتلى بذلك العداء الصريح المكشوف الذى يبديه الرجل الشديد الغرور عندما يشعر بأنه قد أهين : « لن اسمح لأحد بأن يزعجه !٠٠ انني كطبيبه ، امنعك من ان تزعج مريضى »

★ ★ ★

◆ ولبث الرجلان لحظة يتبادلان النظر في صمت ، حتى قال ايزاكسون أخيرا : « انني بعد الذى حدث في الليلة الماضية ، وما حدث هنا اليوم ، لا أستطيع ان أنصرف دون أن أرى مستر ارماين أو مسز ارماين » ٠٠ ترى هل بلغ نيجل من الضعف العقلى - وهو النتيجة الأليمة لمرضه الجسمانى - الى حد مقاومة صديقه ، والنضال ضد فرصته الوحيدة في الشفاء ؟٠٠ ان ذلك سيزيد من تعقد الأمور٠٠ بل ان ذلك - كما تبين ايزاكسون في جلاء - سيضعه في مركز بالغ السوء ، بحيث يجعل موقفه عسيرا ٠٠ ترى ما الذى حدث ليلة أمس في اللولية بعد

انصرافه ؟٠٠ وما هو المشهد الذى كان يمثل على مسرح الحوادث فى تلك الآونة ؟٠٠ وكيف كان أثره على المريض ؟٠٠ وخيل اليه أنه يسمع ثانية تلك الضحكات البغيضة ، وتلك الصيحات الرهيبة التى تلتها ٠٠ ثم استطرد يقول : « واذا كنت لن أرى مستر ارماين كطبيب ، فيجب ان أطلب رؤيته كصديق ! » ٠٠ فقال هارتلى: « لن يكون فى وسعى السماح لأى شخص بأن يراه ـ لمدة يوم أو يومين ـ سواى وسوى مسز ارماين ، وخادمه حمزة طبعا ! »

عندئذ حدج ايزاكسون الرجل الذى كان يواجهه بنظرة ثاقبة ٠٠ نظرة كانت أشبه بنصل حاد يمزق كل شىء فى طريقه ، وهو يتوغل الى أعماق النفس ٠٠ فقد تملكته ـ للحظة من الزمن ـ ريبة غريبة ٠٠ ريبة مقيتة وسخيفة حتما ، ومع ذلك فانها قد تكون ذات أساس من الحقيقة ٠٠ أفليس كل شىء جائزا فى خضم الحياة المتلاطم ؟٠٠ وتململ الطبيب الشاب أمام هذه النظرة فى قلق واضح ـ على الرغم من رباطة جأشه ـ وأخذ يغمغم قائلا : « ماذا ؟٠٠ ما الذى تعنيه ؟٠٠ ما الذى تعنيه ؟ » ٠٠ وأخذ يتحسس ربطة عنقه بحركة آلية ، وهو يقول : «اننى لا أفهمك » ٠٠ ولكنه سرعان ما استعاد هدوءه ، بعد أن تلاشى التعبير الغريب المنفعل من هاتين العينين اللتين كانتا قد عرفتا ما أرادتا أن تعرفاه ٠٠ ثم أضاف : « قطعا لن أسمح لك برؤية مستر ارماين ، لأنك سوف تزعجه وتثير انفعاله كثيرا ، بينما هو يحتاج الى أعظم قدر من الهدوء والراحة ٠٠ فان المخ عضو شديد الحساسية ! »

عندئذ شعر ايزاكسون فجأة كما لو كان يخاطب غلاما عنيدا مشاكسا ٠٠ وتلاشى كل أثر للغضب الذى كان قد انتابه من مسلك رفيقه ، بل الواقع انه شعر نحوه باحساس عميق من الرثاء الممزوج بالسخرية ! لقد ظلم الطبيب الشاب بهذه الريبة التى خالجته للحظة ، وهو يود الآن أن يصلح خطأه ، وليس لايزاكسون ان يحفل بأن الرجل لم يشعر بشىء من شكوكه ٠٠ انه يريد أن يصلح هذا الخطأ بينه وبين نفسه !٠٠ ومن ثم راح يقول متلطفا : « اننى أعتقد يا دكتور هارتلى ان كلا منا لم يفهم الآخر تماما ٠٠ وربما كانت هذه غلطتى ، فما كان ينبغى أن أعيد على مسامعك كلمات مستر ارماين ٠٠ لقد قال هذه الكلمات ، وكان يعنيها ، ولكن المريض يدفعه مرضه الى الكثير من الأقوال ، ونحن الأطباء نعرف ذلك ، ومن ثم فاننا لا نلقى بالا لما يقول ٠٠ اننى واثق من انك هنا ولا رغبة لك الا أن تشفى صديقى المسكين ، وهذه الرغبة نفسها هى التى أتت بى الى هنا ٠٠ ففيم خصامنا وشجارنا اذن ؟ »

ـ ليست بى أية رغبة فى الشجار ، ولكنى لن أخضع لرجل يقحم نفسه قسرا ويحاول ان يقصينى عن حالة عهد الى بالاشراف عليها رسميا !

ـ اننى لا اريد أن أقصيك بحال من الأحوال ٠٠ كل ما أريده هو أن يسمح

لى بالتعاون معك ٠٠ كل ما اريده هو ان أسمع رأيك عن هذه الحالة بالضبط ، وان يسمح لى بأن أكون رأيى عنها وبأن اطلعك عليه ٠٠ هيا يا دكتور هارتلى ، لا تنظر الى كما لو كنت رجلا فضوليا مجهولا ، فان لدى من العمل فى لندن أكثر مما أستطيع أن أزاوله ، ولن تصاب سمعتك الطبية بأى مساس اذا ما دعوتنى لتبادل المشورة ٠ اننى استطيع أن أقول ذلك دون زهو أو غرور ٠٠ واذا كانت لديك فكرة معينة عن أننى أسعى الى الكسب أثناء وجودى فى مصر ، فارجو أن تطرد هذه الفكرة عن ذهنك ٠٠ ان هذه الحالة تهمنى لأنهـا تتصل بشطر من سعادتى الشخصية ، اذ أننى أكن ودا عميقا لهذا الرجل المريض ٠٠ هذه هى حقيقة الأمر !

فنظر اليه الدكتور هارتلى ، ثم أشاح بوجهه جانبا ٠٠ وما لبث ان عاد ينظر اليه ثانية ، وأخيرا قال وهو يشدد الضغط على الكلمة قبل الأخيرة : « اننى لا أشك البتة فى صداقتك لمستر ارماين » ٠٠ فهتف الدكتور ايزاكسون : «اذن فهل لك أن تدعنى أبحث الحالة معك بصفة ودية ؟٠٠ انها ليست استشارة رسمية، بل كل ما فى الأمر أننى سأستمع الى وجهة نظرك كاملة ، واذكر لك ما قد يخطر لى ! » ٠٠ فتساءل هارتلى : « يخطر لك ؟!٠٠ ولكنك لم تفحص المريض ٠٠ انك لم تقم بأى فحص شامل أو تتعمق فى تفاصيل ظروف المرض » ٠٠ فأجاب : «كلا ٠٠ ولكنى رأيت المريض »

– لدقائق معدودات فحسب كما فهمت ، فكيف استطعت أن تكون رأيا محددا ؟

– اننى لم أقل اننى كونت رأيا محددا ، ولكن شيئا أو اثنين قد أثارا انتباهى

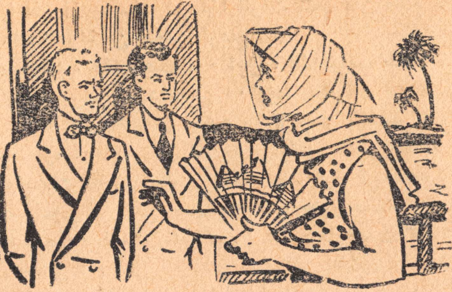
فراح الدكتور هارتلى يحملق فيه بعينيه الجميلتين المستديرتين ، بينما كان يستطرد قائلا : « فمثلا ، لون المريض الشاحب الشديد الاصفرار ، وآلام المريض الروماتزمية ، وتنفس المريض ، ثم – ترى هل لاحظت ذلك ؟ لا شك أنك فعلت – معصم المريض المتراخى ! » ٠٠ فبدأت علائم الجد والاهتمام تزداد وضوحا على أسارير الطبيب الشاب ، وأصبح أقل اعتزازا بنفسه فى تلك اللحظة وهو يقول : «معصمه المتراخى ؟!» ٠ فأجاب ايزاكسون : « نعم ! » ٠٠ فقال هارتلى : «طبعا، فمن الطبيعى أن تصاب العضلات بالضعف كلما طال المرض ٠٠ كل ما فى الأمر ان الرجل قد أصيب بلطمة ساحقة من ضربة الشمس هذه٠٠ وفى رأيى ان السياح يجب أن يكونوا أشد حذرا مما هم عليه هنا ! » ٠٠ واذ ذاك قال ايزاكسون : « أحسبك تعلم أن المريض قد عاش فعـلا فى مصر وعمل بها عـدة شهور من كل سنة ، فان له أرضا فى الفيوم يقوم على زراعتها بنفسه ٠٠ انه ليس حديث العهد بمصر ، كما انه ليس سائحا قليل التجربة !٠٠ لقد كان يمكث الشهر بطوله « منقوعا » فى الشمس ، دون أن تصيبه بأى ضرر ! »

– أالى هذا الحد ؟

ـ أليس عجيبا اذن أن يصاب فى هذا الوقت المبكر من العام ـ فى شهر فبراير ـ بمثل هذه الضربة من شمس الربيع ؟
فقال الآخر مسلما : « هذا عجيب !٠٠ أجل ، هذا غريب حقا ! » ٠٠ ووضع ساقا فوق الاخرى وهو يبدو شارد الذهن ٠٠ وبعد لحظة قال ايزاكسون : « أظن أن مستر ارماين نفسه كان يعتقد ان مرضه انما ترتبعن الشمس ؟ » ٠٠ فاجاب هارتلى : « حسنا ، أوه !٠٠ لقد كان المفهوم من بادئ الأمر أنه قد أصيب بمس من الشمس ٠٠ ولم يكن ثمة أى شك فى ذلك ، فقد خرج فى الظهيرة وراح ينقب عن الآثار فى طيبة دون أن يغطى راسه ٠٠ انه جنون صارخ !٠٠ ولقد رآه الناس يفعل ذلك ! » ٠٠ فتساءل ايزاكسون : « وهل حدث كل شئ على أثر ذلك ؟ » ٠ فقال هارتلى : « أجل ٠٠ أعنى الأعراض الخطيرة ٠٠ وطبيعى أنه لم يكن فى صحة طيبة قبل ذلك ! » ٠ فتساءل ايزاكسون فى دهشة يخالطها الأفكار : « لا ؟! »
ـ لقد كان يشكو من عسر الهضم ، فقد أصيب بالبرد ذات مساء عندما نزل ليستحم فى النيل فى مكان بالقرب من (قوص) ٠٠ وقد جعله ذلك أقل مقاومة للمرض عن المعتاد
ـ طبعا ٠٠ ومعنى ذلك أنه كان مريضا بالفعل ، قبل أن يقدم على هذا العمل الأحمق فى طيبة ؟
ـ كان متوعكا ، ولكنه لم يكن مريضا بمعنى الكلمة
وعندئذ انبعث صوت يقول : « يا له من حديث طويل ذلك الذى تتبادلانه سويا ! » ٠٠ فاجفل كلا الرجلين ، بينما لاحت فى وجه الدكتور هارتلى لمحة أليمة من يقظة الضمير ، وكأنه شخص يضبط على غير توقع وهو يرتكب عملا لا يغتفر ٠٠ وما لبث أن وثب على قدميه ٠٠ فقد كانت مسز ارماين واقفة بالقرب من قمة الدرج !

الفصل السابع والثلاثون

♦ وتقدمت مسز ارماين نحوهما قائلة : « لقد غدوتما صديقين دون أن يقدم كل منكما للآخر ؟ » ٠٠ وكانت ترتدى قبعة وتسدل على وجهها خمارا ، كما كانت تحمل مروحة فى يدها ٠٠ وهتف هارتلى : « كيف استطعت أن تستيقظى وتنهضى الآن ؟٠٠ ان هذا مستحيل ، بعد جرعة الفيرونال التى أعطيتها لك ، وبعد مثل هذه الليلة التى قضيتها !٠٠ ما كان ينبغى لك ٠٠ » ٠ وكان الشعور بالذنب لا يزال واضحا على أساريره الى حد مروع ، وهو يقف الى جانبها ٠٠



كما كان يبدو كالمحموم لفرط قلقه واضطرابه ! ومضى يغمغم قائلا : « اننى لا أستطيع أن أسمح حقا .. » . ولكنها نظرت اليه قائلة : « لقد أيقظنى صوتاكما ! »

فأخلد الى الصمت ، وهو يبدو كرجل تلقى لطمة شديدة .. ومضت مسز ارماين تقول : « كيف حالك يا دكتور ايزاكسون !.. أرجو أن تصفح عما أقول ، ولكنكما اذا تذكرتما أنكما طبيبان تتناولان بالنقاش حالة مريض ينام تحتكما مباشرة، لأدركتما ان الحرص والحذر قد جانباكما الى حد جعلكما لا تفكران فى خفض صوتيكما .. ولو مرت دقيقة أخرى لاستيقظ زوجى من نومه ، فقد كان يتململ فى فراشه ويهمهم متألما !.. أما أنا .. حسنا ، لقد أيقظتمانى - بكل بساطة - ولذلك فكرت فى أن أحضر وأنضم اليكما ، عسى أن أستطيع اقناعكما بالتزام الهدوء ! » . وكان وجهها يبدو - تحت الخمار - شاحبا ممتقعا .. وعلى الرغم من أنها كانت تتكلم بصوت منخفض ، الا ان المرارة والخشونة والسخرية كانت تلوح فى نبراتها ، كما كان فى هيأتها ما ينم عن حقد وضغن دفينين، كأنهما السم الناقع !.. واستطردت تقول وهى تقف فى منتصف الطريق بين هارتلى وايزاكسون : « ان المسألة تنحصر الآن فيما اذا كان زوجى المنكود سيحظى بقسط من الراحة أم لا .. فقد كنا نظن - عندما رسونا فى هذا المكان - اننا ملاقون فيه الهدوء والسلام ، ولكن يبدو أننا كنا مخطئين .. ومهما يكن من أمر فانى أرجو أن تكون مشاوراتكما قد قاربت الانتهاء لأن رأسى يكاد ينشق من الألم ! »

وكان وجه الدكتور هارتلى قد غدا أحمر قانيا .. وأخذ يرمى ايزاكسون بنظرة شريرة ، وهو يقول : « لم تكن هناك مشاورات ما يا مسز ارماين ! » . وكانت عيناه تتوسلان وتنشدان صفحها ، بل كان كيانه كله يبدو مثيرا للشفقة

والرثاء ، وهو يستجدى الصفح ككلب ذليل انتهره سيده !٠٠ وقالت مسز ارماين : « لم تكن ثمة مشاورات ؟ اذن ففيم كانت كل هذه الثرثرة ؟ هل اقلقتما مضجعى ، وأيقظتمانى بضجيجكما فى النقاش عن الجو او المعابد الأثرية ؟٠٠ يا لسوء ما فعلتما حقا ! » ٠٠ وتقلص وجهها لثانية أو ثانيتين ٠٠ وكان من اليسير أن يرى المرء انها لا تكاد تستطيع السيطرة على نفسها ٠٠ واستطردت تقول وهى تحرك مروحتها فى عنف : « أظن الأفضل أن أرسل بكما معا لزيارة معبد (ادفو) ، فهناك يمكنكما أن تثرثرا كما تشاءان ، وأن توثقا صداقتكما الى الحد الذى تطيب له نفساكما ، ولن يكون هناك من يسمعكما غير حارس المعبد٠٠ وعندئذ يمكن لنيجل المسكين أن ينام قليلا ، بغض النظر عما يحدث لى » ٠٠ وتثاءبت فجأة ، فرفعت مروحتها لتغطى فمها ، وهى تقول : « آه ! » ٠ وكان صوتها عندئذ أشبه بشىء وسط بين التنهد والأنين ٠٠ وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى راحت تسعل لتطهر حنجرتها ٠٠ ولكن الدكتور هارتلى بدأ يقول : « كنت انبىء الدكتور ايزاكسون أن حضوره اليوم كان عبثا ولا فائدة منه ٠٠ اخبرته بانه ليس ثمة ما يدعو لتبادل المشورة معه ، ورجوته أن يترك الحالة بين يدى ٠٠ لقد ظللت أقول ذلك وأكرره مرة بعد أخرى ، ولكن ٠٠٠ »

ـ أوه ! انك لا تعرف الدكتور ايزاكسون اذا حسبت أن الرجاء المهذب يمكن أن يكون له اى أثر عنده ، فهو اذا أراد أن يزج بنفسه فى شىء ، فانه يفعل ذلك دون أن يوقفه شىء فى السماء او الأرض ٠٠ انك تنسى جنسيته !

وتثاءبت مرة ثانية ، وهى تحرك كتفيها ٠٠ فقال ايزاكسون فى صوت خافت : « انك تظلميننى ظلما فاحشا ٠٠ وانك لتعلمين ذلك ! » ٠٠ وكان قد وضع قبعته فوق منضدة صغيرة من القش ، فمد يده وتناولها ، اذ ما جدوى بقائه ؟ ٠٠ وكيف يمكن لرجل محترم ان يبقى بعد هذا ؟ ٠٠ ومع ذلك فقد كان النضال مريرا فى أعماق نفسه ٠٠ لو انه استطاع فقط أن يطمئن الى ذلك الرجل هارتلى ، لما كان لهذا النضال أثر قط ، ولكان فى وسعه أن ينصرف مرتاح الخاطر ٠٠ او لو انه كان واثقا من شىء آخر ـ تمام الثقة ـ لكان فى وسعه أن يبقى وأن يتصرف فى الأمر دون أن يبالى بشىء قط ، فى تحديه لهذه المرأة التى تمقته ٠٠ ولكنه بالرغم من الهامه الذى كان متحفزا ، يوحى اليه بأشياء كثيرة لا يفتأ يهمس بها ٠٠ وبالرغم من أن ما لاحظه فى الليلة الماضية من دلائل كانت تظاهر هذا الالهام قائلة له : « نعم ، لا بد انك على حق ٠٠ انك على حق فعلا ! » ٠٠ بالرغم من ذلك كله فانه لم يكن يطمئن ـ عن يقين ـ الى ما كان يعرفه ٠٠ بل لم يكن يعرف سوى ان هذا الشاب ، الذى وضعت حياة نيجل بين يديه ، كان واقعا تحت سحر مسز ارماين !

وكان قد تناول قبعته ، وشد أصابعه عليها فى عنف وهو يفرك حافتها اللينة

٠٠ وظل الدكتور هارتلي يرمقـــه بذلك العـــداء السافر الذى يكنه اى أنانى مخدوع ٠٠ اذ أدرك – فى لحظات – أن ايزاكسون كان قد بدأ يستدرجه بطريقة ماكرة الى أن يفعل ما كان يرفض ان يفعله من قبل ٠٠ ولو ان مسز ارماين لم تظهر فجاة ، لكانت حالة نيجل قد درست دراسة وافية بين الطبيبين ! وهتف لنفسه : « أيها الفضولى المخادع ! » ٠٠ كانت عيناه المستديرتان تقولان ذلك بكل ما فى غروره الوضيع من حقد وغل ٠٠ وما لبث ايزاكسون ان عاد يقول ثانية : « انك تظلمينني ! تظلمينني بشـكل مزر مخجل ! » ٠٠ وراح يسائل نفسه : هل ينصرف ؟٠٠ نعم ، انه يرى ذلك أحرى به !٠٠ ولـكنه مع ذلك لم ينصرف ٠٠ بينما قالت مسز ارماين : « انها ليست مسألة ظلم أو اساءة لأى أحد ٠٠ فالحقائق هى الحقائق ! »

وكانت امارات الألم الجسمانى تنعكس على وجهها فتشوهه ٠٠ كان النضـال عنيفا بين الجرعة المنومة التى تناولتها ، وبين ارادتها القوية فى أن تظل يقظى ! ٠٠ وعادت تهز كتفيها ، فى رعدة خفيفة، وهى تستطرد : «ان نيجل لا يريدك !» ٠٠ فهتف : « كيف يمكنك أن تقولى ذلك ؟٠٠ انه غير صحيح » ٠٠ فقالت : «بل صحيح كل الصحة ٠٠ أليس كذلك يا دكتور هارتلي ؟ ألم يطلب زوجى ٠٠؟» ، وغلبها التثاؤب ثانية ، فقطع عبارتهـا ٠٠ وعندئذ وضعت يدها على ظهر أحـد المقاعد وأمسكت به فى تشبث ، ثم أردفت : « ألم يطلب اليك أن تبقى فوق السفينة وان تعنى بحالته ؟ » ٠٠ فصاح الشاب فى لهفـة ، وهو ينهل من نبع رضاها المسترد : « بالتأكيد ! » ٠ فعادت تسأله : « ألم يطلب اليك أن «تنقذه»، على حد قوله ٠٠ ذلك العزيز المسكين ؟ » ٠٠ فأجاب هارتلي منافقا : « انها كلمته بعينها ! » ٠٠ وهنـا قال ايزاكسون وهو يحدجها بنظرة ثابتة : « والليـلة الماضية ؟! » ٠٠ فقالت فى قحة : « لقـد أزعجته فى الليلة الماضية بدرجة فظيعـة ، باندفاعك اليـه دون تحذير أو تمهيد ٠٠ ألم يكن ذلك تصرفا بالغ القسوة ، شديد الخطر فى مثل حالته هذه يا دكتور هارتلي ؟ » ٠٠ فقال هذا : « اننى لا أعرف شيئا أشد قسوة من ذلك !٠٠ انه عمل لا يغتفر ، ولو أن شيئا قد حدث ، لوجب أن تكون مسئولا عنه يا دكتور ايزاكسون ! »

ومضت مسز ارماين تقول : « ومهما يكن من أمر ذلك الشيء الذى أعطيتـه له ، فانك أرغمته على تناوله !٠٠ وكانت النتيجة انه قضى ليلة فظيعة مروعة » ٠٠ فهتف ايزاكسون : « ما كان ذلك بسبب ما أعطيته أنا ! » ٠ فقالت : « بل لا بد أنه كذلك » ٠٠ ولكنه عاد يؤكد دفاعه : « بل المحقق انه لم يكن بسبب ذلك » ٠ فقالت : « ولكنه لم يقض مثل هذه الليلة قط من قبل ٠٠ لم يحدث له ذلك على الاطلاق قبل ان تتدخل أنت وتعرقل علاج الدكتور هارتلي ! » ٠٠ وهنا صاح الطبيب الشاب : « يا للعار ! ما سمعت قط بمثل هذا المسلك ! ولو

قدر لشيء كهذا أن يعلن للناس لدمر سمعتك الطبية تدميرا ! » .. فقال ايزاكسون : « ما كنت لأبالي لو حدث ذلك ، لهذا السبب ! » .. ولم تعد أصابعه تفرك حافة القبعة ، بل أصبحت تمسك بها في رفق ، وهو يستطرد : « ما كنت لأبالي لو حدث ذلك .. ولكنني أعتقد أنه ما لم يبذل أعظم قدر من العناية لهذا المريض ، فلن تكون سمعتي الطبية هي التي ستدمر بسببها ! » .. فأخذت مسز ارماين تجذب المقعد الذي كانت تمسك به ، في حركة آلية ، حتى ادنته منها وهي تديره قليلا .. على حين قال الدكتور هارتلي : « ما الذي تعنيه ؟ »

ـ ان مستر ارماين رجل معروف تماما ، ومعظم السياح الانجليز على ضفاف النيل ، كما أن معظم الرجال الذين لهم خطرهم في القاهرة ، يعرفون بمرضه .. لقد سمعوا عن اصابته بضربة الشمس المفترضة !

فقاطعه الطبيب الشاب في حنق : « المفترضة ؟! المفترضة ؟! » .. فاستطرد الآخر : « وسوف يعرف هؤلاء الناس جميعا اسم الطبيب المشرف على هذه الحالة .. الطبيب الذي رفض مشورة عرضت عليه ، وأصر على الرفض » .. فهتف هارتلي : « سيعرفون ؟! » .. وبدا أن ثقته بنفسه قد تزعزعت قليلا أمام الاتجاه الجديد لهجمات ايزاكسون ، الذي قال : « انني سأذهب عما قريب الى أسوان والقاهرة » .. فتثاءبت مسز ارماين وجذبت المقعد ثانية .. وكان وجهها قد تقلص فجأة تحت خمارها ، وبدت يقظى متوفزة الى حد رهيب ، وكأنما كان عقلها يعاني هياجا عظيما في تلك اللحظة .. ومع ذلك فقد كان في هيئتها أيضا ما ينم عن نوع من الخمول والتبلد .. اذ كانت تبدو ـ رغم هياجها الناشيء عن الحقد العميق ـ وكأنما خيمت عليها سحابة من النعاس !.. وكان أعظم جزاء ظفرت به عينا ايزاكسون الثاقبتان اللتان تحسنان استشفاف الأمور ، هو ان غريمته قد نبذت كل سلطان لفتنتها على الرجال ، اذ وجدت فيها سلاحا مثلوما ! .. وقال هارتلي : « حقا ؟! وما شأني بذلك ؟ هل تزعم انني أعالج هذه الحالة بطريقة ملتوية ؟ » .. ثم اغتصب ضحكة جوفاء ، فأجاب ايزاكسون : « لا ، وانما أرى ان من المحتمل جدا أن تندم طوال حياتك على انه كانت لك بهذه الحالة صلة ! »

وكان لهذه اللهجة الجديدة من الطبيب الكبير أثر ملحوظ على الطبيب الشاب ، رغما عنه .. كان قد تحرر لحظة من سحر مسز ارماين ، و غدا ذلك الطبيب الناشيء الذي لم يكتمل ارتقاؤه بعد ، لا ذلك الشاب المكتمل الرجولة الذي أحب امرأة فاتنة !.. وكان ايزاكسون ـ اذا شاء ـ يستطيع أن يسيطر على عقل اى انسان تقريبا ، فذلك جزء من سر نجاحه كطبيب .. كان يستطيع أن يجعل نفسه « موضعا للثقة » .. ومن ثم أخذ يضيف في هدوء : « ان لبعض الأخطاء

دويا في أرجاء العالم ، ولست بالذى يسعى لأن يكون الطبيب الذى يقترف واحدا منها » ·· فأدارت مسز ارماين المقعد الذى كانت تمسك به - في حركة حادة مفاجئة - وهي تتشبث بطرف ثوبها ، ثم استوت في جلستها بغتة ، اذ شرع الدكتور هارتلى يقول : « ولكنى في الواقع ·· » ، وقاطعته قائلة : « هذا أطول تشاور حدث في حالة مرضية ! » · واتكأت بساعديها على مسندى المقعد ، تاركة يديها تتدليان ، ثم استطردت تقول : « هيا يا دكتور هارتلى ·· أسلم زوجى الى الدكتور ايزاكسون اذا كنت قد فقدت الثقة بنفسك ، فذلك أفضل بكثير ·· ولعلنا بعد ذلك ننعم بشيء من الهدوء »

فاستدار الدكتور هارتلى نحوها ، وكأنها اجتذبته بحبل ، وقال : « آه !·· انني لم أفقد الثقة بنفسى ، في الواقع ·· وقد قلت وكررت القول أنه ليس ثمة مضاعفات ·· » ، فقال ايزاكسون مقاطعا : « أواثق أنت من ذلك حقا ؟ » ·· وأخذ يوجه الى الشاب نظرات ثابتة قوية، من عينيه السوداوين ، فسرعان ما لاح القلق جليا على الشاب ، وقال : « لا شك في اننى واثق من ذلك ·· في الوقت الحاضر ! » ·· وكأنما لاحت له الكلمات الأخيرة أشبه بطوق من أطواق النجاة ، اذ ما لبث ان تعلق بها متشبثا ، واستطرد يقول : « أجل ·· في الوقت الحاضر ·· فما من طبيب - مهما بلغت مهارته - يستطيع أن يجزم بأنه لن تحدث قط فيما بعد مضاعفات في أية حالة من المرض ·· ولكنى في الوقت الحاضر مقتنع بأن كل شيء يسير كما ينبغي أن يسير » · ونطق بالكلمات الختامية لعبارته الأخيرة على نحو أنهاها بغتة ، فقلبتها لهجته الى جملة استفهامية ، مما أظهرت بجلاء حقيقة حالته العقلية !

ولقد امتاز ايزاكسون بصفة عظيمة ، كان انعدامها في كثير من الرجال يقودهم الى المتاعب ، وأحيانا الى المصائب ·· اذ كان يعرف تماما الى أى مدى يستطيع الجليد ان يحتمل ثقله ، وعندئذ فقط يمضى فوقه في ثقة وطمأنينة ·· ولكنه لم يكن ليطأه بقدميه في غير ضرورة أو داع ، لمجرد اختبار قوة احتماله ·· وهكذا وجد نفسه فجأة ميالا الى الانصراف ، والى ترك هذه السفينة بعض الوقت ·· لقد فعل كل ما كان يستطيع أن يفعله ، دون أن يثير شجارا أو نقاشا ، بل لعله قد فعل ما فيه الكفاية ·· فان الطريقة التى ختم بها هارتلى عبارته الاخيرة ، تكاد تقنعه بأنه قد فعل ما فيه الكفاية · وعندئذ قال : « حسنا ! » ·· وكان صوته خلوا من أى معنى ، ولكن وجهه - وقد أداره نحو الطبيب الشاب - كان يروى قصة عنيفة ، عن شك رهيب خطير ·· كان يعبر عن هواجس يوجهها الطبيب الكبير الى طبيب أقل منه ·· وعاد يكرر ثانية : « هذا حسن ! » ·· ثم أردف : « وداعا يا مسز ارماين ! » ·· وكانت المرأة قد غاصت في مقعدها وما زال ساعداها متكئين على مسنديه، وان تدلت يداها، فلما خاطبها ايزاكسون،

سقطت المروحة من احدى هاتين اليدين ٠٠ ولكنها لم تحاول التقاطها ٠ وقالت : « هل أنت ذاهب حقا ؟ » ٠٠ والتوت شفتاها فى ابتسامة باهتة ، بينما كان يقول : « نعم » ، فعقبت : « وداعا اذن ! »

وأشاح بوجهه عنها فى بطء ، وهو يقول : « حسنا ٠٠ وداعا يا دكتور هارتلى ! » ٠ وكان هذا الحديث كله - الذى أعقب حضور مسز ارماين الى سطح الدهبية - يدور فى أصوات خافتة ٠٠ ولكن ايزاكسون كان يتكلم الآن فى صوت أشد خفوتا ، بينما تحولت عيناه لحظة من الدكتور هارتلى الى ذلك الجسد الطويل الذى كان يغوص فى المقعد ، ثم ارتدتا الى الدكتور هارتلى ثانية ٠٠ ولم يمد اليه يده ، ولكن صوته كان مهذبا ، وان خلا من كل معنى تماما ٠٠ فالقى الدكتور هارتلى بدوره نظرة سريعة على المقعد ، ثم قال فى تردد : « وداعا ! » ٠٠ وبدا شبابه واضحا فى تلك اللحظة ، اذ برز للعيان من خلال تردده وحيرته ٠٠ كانت كل ذرة من سخط ايزاكسون عليه قد تلاشت الآن تماما ، فعاد يقول: « وداعا ! »

وحركت مسز ارماين رأسها قليلا ، وهى تسنده الى وسادة كبيرة ، ثم تنهدت ٠٠ وسار ايزاكسون متمهلا نحو الدرج ٠ ولما كانت اللولية دهبية كبيرة ، فان سطحها العلوى كان طويلا ، كما كان مؤثثا كأنه حجرة استقبال ، اذ امتلأ بالمقاعد والمناضد والأرائك ٠٠ فمضى ايزاكسون يشق طريقه بينها فى حرص وحذر ، وكأنه يهتم براحة المريض الذى كان يرقد تحت السطح ٠٠ واخيرا بلغ الدرج وبدأ فى النزول ٠٠ ولكنه ما كاد يبلغ نهايته حتى سمع صوتا يهمس خلفه : « دكتور ايزاكسون ! » ٠٠ فالتفت الى الوراء ، واذا به يرى الدكتور هارتلى عند قمة الدرج ٠٠ وأردف الشاب وهو لا يزال يهمس بكلماته : « لحظة واحدة ٠٠ سأهبط اليك ! » ٠ ثم تلفت خلفه وهو ينظر من فوق كتفه ، وما لبث أن راح يهبط الدرج فى سرعة وخفة - كما يفعل الصغار - وهو يضع كلتا يديه فوق السياج الذى يحف بالدرج ٠٠ حتى اذا ما بلغ مكان ايزاكسون ، قال : « اننى ٠٠ اننا ٠٠ أعنى اننى اظن أن بوسعنا ان نتبادل كلمة قبل ذهابك » ٠ وبدا جليا ان رباطة جأشه قد تأثرت الى حد بعيد ٠٠ كان القلق واللهفة يظهران واضحين فى عينيه الرماديتين الصفراوين ، على حين كانت الغضون ترسم خطوطا بارزة على جبينه الضيق ، تحت شعره المجعد ٠٠ ثم مضى يقول وهو ينظر الى ايزاكسون فى امعان : « لقد استغرقت فى النوم ! »

فأجاب ايزاكسون بغير اكتراث : « لك ما تشاء ! » ٠ فعاد هارتلى يقول : « أرى من الأفضل أن نتحدث قليلا، بعد ذلك الذى حدث ! » ٠٠ فنظر ايزاكسون حواليه نحو النوبيين المستلقين على سطح الدهبية مستغرقين فى النوم ، ونحو حسن وابراهيم اللذين كانا ينتحيان أحد الأركان - وقد وقفا احتراما ، وان بدا

انهما كانا على قدر كبير من الفضول وحب الاستطلاع - فقال الدكتور هارتلى : « بوسعنا ان ندخل هنا ! » . وقاده الى أسفل صف آخر من الدرج - تحت الكتابة العربية - ثم الى أولى حجرات الاستقبال فى الدهبية .. فلما ولج ايزاكسون الحجرة راح ينظر ، بوحى من غريزته ، الى الباب الموصد الذى كان نيجل يرقد فى مكان ما وراءه ، نائما أو مستيقظا .. ولم تفت هذه النظرة الدكتور هارتلى ، فقال : « سيظل نائما بضع ساعات أخرى .. لنجلس هنا ! »

★ ★ ★

* وأسرع يتخذ مجلسه على اقرب الأرائك اليه ، وهو يشد اصابعه فى قلق .. وشرع يقول وهو ينظر الى ايزاكسون ثم يغض من بصره الى الأرض بين قدميه : « اننى لم افهم تماما .. اعنى اننى لا أظننى قد فهمت المعنى الذى كنت ترمى اليه الآن ! » .. فتساءل ايزاكسون : « المعنى الذى أرمى اليه ؟ » .. وأجاب الشاب : « أجل .. بشأن هذه الحالة ! » .. وهنا قال ايزاكسون : « ظننتك ترى ان المشورة غير ضرورية ! » .. فأجاب الآخر : « الاستشارة الرسمية .. نعم !.. ومع ذلك لا ينبغى أن تظن اننى لا أقدر الرأى الطبى القيم حق قدره .. واننى لأعلم أن لك رأيا يعتد به ! » .. ولم ينبس ايزاكسون ببنت شفة ، ولا اختلجت عضلة فى وجهه .. فاستطرد هارتلى : « الواقع ان الحقيقة هى أنك - على نحو ما - قد أثرت حقد مسز ارماين تماما ، فهى تعتقد انك تجحد خدمتها المتفانية ، وتقلل من شأنها ! » . فقال ايزاكسون : « ما وددت ذلك ! » . وأمن هارتلى على قوله : « لا .. اننى أدرك ذلك ، ولكن .. » . ثم أخرج منديله وراح يمس به شفتيه وجبينه ، وهو يتابع القول : « لقد كانت رائعة حقا فى عنايتها به من راسه الى قدمه ، دون أن تهب نفسها أية راحة فى الليل او النهار »

- حسنا ، ولكن وصيفتها ؟.. الم تكن قادرة على أن تكون ذات نفع فى خدمته ؟

- وصيفتها ؟.. أية وصيفة ؟ - وصيفتها الفرنسية !

فتلاعبت على شفتى الشاب ابتسامة مشفقة راثية ، وقال : « لا وصيفة لديها الآن ، فقد فصلتها منذ زمن طويل ، لا لشىء سوى ارضائه .. آه ! اننى أؤكد لك أن الحياة مع مستر ارماين ليست كلها عسلا ولبنا ! » .. فأشار ايزاكسون الى القسم الداخلى من السفينة ، قائلا : « ولكن ألم تعد ثانية ؟.. ألم تعد الوصيفة ثانية ؟ » .. فأجاب هارتلى متحمسا : « كلا ، طبعا .. انك تسىء فهم ارماين الى حد بعيد ! » .. ولم يقل ايزاكسون شيئا .. كان يحس بأن الوقت ملائم تماما لضربة بارعة يكشف فيها كذب مسز ارماين ونفاقها ، ولكن شيئا - كان يبدو خارجا عن ارادته - حال بينه وبين توجيه هذه الضربة .. بينما استطرد

هارتلى قائلا : « وهذا هو سبب كل ما حدث . وما كنت حقا لأعترض على تبادل المشورة معك لو كانت قد أتت بصورة طبيعية ، ولكن ما من طبيب ... لقد كنت تتكلم الآن عن الحالة ، بوصفها خطيرة جدا » .. فقال ايزاكسون : « اننى اعتبرها جد خطيرة ! » .. وعقب الطبيب الشاب قائلا : « كذلك أنا ، طبعا ! » .. ثم ضم شفتيه وعاد يقول : « طبعا .. فقد رأيت منذ البداية أنها ليست شيئا طفيفا ! » .. واذ لم يقل ايزاكسون شيئا ، استطرد هارتلى : « أقول اننى رأيت ذلك منذ البداية » . وهنا قال ايزاكسون فى فتور : «ان هذا لا يدهشنى!»

وخيم الصمت لحظة .. وأحس الطبيب الكبير بأن قلق زميله الشاب كان يزداد لحظة بعد أخرى..وأخيرا قال هارتلى : « أرجو أن تغفر لى ما أقول يا دكتور ايزاكسون ، ولكن .. ولكنك لا تفهم النساء ، ولا تعرف كيف تعاملهن ! » .. فقال ايزاكسون فى بساطة واضحة ، كانت تبدو أشبه بالتواضع : « ربما كنت كذلك ! » . وكان الدكتور هارتلى يبدو أكثر استمتاعا براحته ، كما عاوده شىء من شعوره باهميته !.. ثم قال : « أجل ، حقا ! اننى مسوق الى أن أقول هذا ، فهل تغفر لى ؟ » .. فقال الآخر : « بالتأكيد ! »

ـ اننى كنت أرى دائما أن ذلك نصف المعركة التى نخوضها فى مهنتنا ؟

ـ أن نعرف كيف نعامل النساء ؟

وهتف هارتلى : « تماما ! » .. فقال ايزاكسون : « لعلك على حق » . ونظر الى الطبيب الشاب ، كأنه معجب به ! ثم أردف : « أجل .. أعترف بأنك على حق » . فأشرق وجه الدكتور هارتلى ، وقال : « يسرنى ان ترى ذلك . والآن .. ان امرأة مثل مسز ارماين ... » . وكأنما اعاد اليه ذكر اسمها ، اللهفة والقلق ، فهمس قائلا : « لحظة واحدة ! » .. وانصرف خارجا فى خفة ، ثم ما لبث ان عاد بعد لحظة ، وقال : « كل شىء على ما يرام .. انها ستنام بضع ساعات أخرى . والآن .. ان امرأة مثل مسز ارماين امرأة جميلة معروفة .. وهى تحتاج الى قدر معين من المجاملة ، ولكنك لاتتلطف معها قط .. أرأيت ؟ » .. فتمتم ايزاكسون : « أحسبك تدرك السبب ! » .. ولم يذكر شيئا عن ذلك الستار الشفاف الذى كان يفصل بينه وبين مسز ارماين ، والذى كانا يتبادلان النظر خلاله فيرى كل منهما الآخر على حقيقته فى جلاء ووضوح !..واستطرد الشاب يقول : « انها امرأة يرضيها أى قدر من المودة .. اى قدر ! لقد ثبت لى ذلك ! »

وتمهل قليلا ، وقد بدا عاطفيا ، ثم أردف قائلا : « لقد ثبت لى ذلك ثبوتا قاطعا .. ولكنها متقلبة الاهواء قليلا ، تحتاج الى معاملة خاصة .. ولذلك فاننى أستطيع أن أفعل معها أى شىء » .. وراح يتحسس ربطة عنقه الوردية اللون ، ويجذب جوربه الوردى اللون .. فسأله ايزاكسون فى لهجة فاترة : « والزوج ؟ هل تجده صعب الارضاء ؟ » .. فقال هارتلى : « اذا شئت الصراحة ، فهو ..

صعب جدا ! » ٠٠ فقال ايزاكسون : « هذا شيء يؤسف له ! » ٠٠ ولكن هارتلي استطرد متحمسا : « انه يتعبها كثيرا ـ فيما اظن ـ ولو انه يزعم طبعا انه يتفانى في سبيلها ٠٠ أما هي فليست الا ملاكا طاهرا معه ! » ٠٠ وهتف ايزاكسون متمشيا معه : « ان هذا يكبدها عناء كبيرا » ٠٠ فمضى هارتلي يقول : « انني أرثي لحالها كثيرا ٠٠ انها لم تخبرني بأي شيء ، بالطبع ٠٠ فهي أعظم اخلاصا لزوجها من ان تتكلم عنه ٠٠ ولكنني أستطيع أن أقرأ بين السطور ! ٠٠ ولكن خبرني ، هل تظنه في حالة سيئة ؟ » ٠٠ فأجاب ايزاكسون : « جد سيئة ! » ٠ وتعمد ان لا يبدو في لهجته شيء من مشاعره ، وكأنه يبدي رأيا طبيا فحسب ٠٠ فهتف هارتلي مرتبكا : « ولكنك لا ٠٠ آه ٠٠ ولكنك لا تظن حقا أنه في أي خطر ؟ » ٠٠ فهز ايزاكسون كتفيه ، دون أن يقول شيئا ٠ ومضى الآخر يقول : « ولكن ٠٠ أعني ٠٠ ما رأيك في ضربة الشمس ؟ اذا لم تكن ضربة شمس ٠٠ ؟ »

وانتظر هارتلي أن يقاطعه ايزاكسون ، ولكنه لم يفعل ٠٠ فعاد يستأنف حديثه : « اذا لم تكن ضربة شمس تماما ، فان المشكلة هي : ما هو مرضه اذن ؟ » ٠٠ ولكن ايزاكسون ظل يرمقه في صمت ٠ وأخيرا قال هارتلي وهو يصل الى هدفه المنشود : « هل انتهيت الى رأي معين ؟ » ٠٠ واذ ذاك أجاب ايزاكسون قائلا : « يجب ان أراقب الحالة ، ولو يوما أو يومين ، قبل أن أتخذ رأيا معينا ! » ٠ فقال الطبيب الشاب : « حسنا ٠٠ ولكن ، بصفة غير رسمية ، ما الذي تظنه فيها ؟ ٠٠ ما الذي كنت تعنيه بقولك ـ عندما كنا على السطح العلوي ـ انه اذا لم يبذل أكبر قسط من العناية ، فان ٠٠ فان ٠٠ سمعة طبية قد ٠٠ آه ! قد تدمر بسببها ! ٠٠ انك تعلم أن « تدمر » كلمة شديدة ! » ٠٠ وكان الشاب الأناني يبدو في أشد حالات القلق والانزعاج ٠٠ ومضى يتابع قوله : « انك قلت بعدئذ ان من المحتمل جدا أن أندم طول حياتي على ان كان لي شأن بهذه الحالة ٠٠ وهذا شيء آخر ٠٠ »

وأطرق ايزاكسون برأسه مفكرا ، ولكنه لم يقل شيئا ٠٠ فاستطرد هارتلي قائلا : « انني لم أفهم ـ وما زلت لا أفهم ـ المعنى الذي كنت ترمي اليه ! » ٠ فقال ايزاكسون : « انني لا أستطيع أن أقول الكثير يا دكتور هارتلي ، ولكن الطبيب الذي يحظى بأية سمعة ، والذي قد يكون معروفا في هذا العالم الفسيح ، يجب أن يكون حذرا حريصا ٠٠ وهذه الحالة ليست في يدي ، ولو انها كانت في يدي لتغير مجرى الأمور ٠٠ وربما كنت قد انتهيت الى رأي معين ، أولا ٠٠ ولكنني مهما يكن من أمر لا أستطيع أن أدلي به الآن ! ٠٠ لقد اكتسبت خبرة عظيمة ، ويسوؤني كثيرا أن أرى طبيبا شابا ناهضا ، يمتد أمامه ـ فيما يبدو ـ مستقبل باهر عظيم ، يقع في مأزق عصيب » ٠٠ فتساءل هارتلي جزعا : « مأزق عصيب ؟! » ٠ فهز ايزاكسون رأسه في رصانة ، وقال : « ان مسز ارماين قد

تظن هذا المرض راجعا الى ضربة شمس ، ولـكنها قد تكون مخطئة ٠٠ اذ ربما كان المرض ناجما عن شيء آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف ٠٠ وهذا ما أعتقده ! »

٠٠ فتساءل هارتلي : « ولكن ماذا ٠٠ ماذا يكون هذا الشيء ؟ »

ـ هذا ما يجب اكتشافه ، وأنت هنا لتكشف عنه

ـ انني ٠٠ انني أعتقد حقا في ضرورة تبادل المشورة !

وبدا عليه التردد لحظة ، قبل أن يستطرد قائلا في سذاجة : « ليس يعترضنا سوى تلك الكراهية الشـديدة التي تكنها لك ! » ٠٠ فنهض ايزاكسون وهو يقول : « أما اذا ساءت حالة مستر ارماين سريعا » ٠٠ فهتف الطبيب الشاب في اضطراب : « آه !٠٠ لكن ٠٠ » ٠ غير ان ايزاكسون مضى في حديثه : « أو اذا مات ، ثم تبين فيما بعد أن طبيبه لم يكشف قط عن سبب مرضه ، وان المشورة مع رجل ـ ومعذرة في هذا القول ـ ذائع الصيت مثلي ، قد رفضت رفضا قاطعا ، فان ذلك ٠٠ حسنا ٠٠ ان ذلك قد يسبب لك ضررا فادحا » ٠٠ فوثب الطبيب الشاب مستويا على قدميه ، وهو يهتف : « يا اله السموات !٠٠ لكن ٠٠ لكن ٠٠ اصغ الى ٠٠ هل لديك أية فكرة عن الأمر ؟ » ٠٠ فأجاب الآخر : « انني أرفض أن أقول أي شيء في هذا الصدد ، ما لم تكن هناك استشارة رسمية » ٠٠

وراح الدكتور هارتلي يجفف جبينه بمنديله ، ثم قال : « شد ما أود لو انك كنت على علاقة طيبة مع مسز ارماين !٠٠ فانه ليسرني كثيرا أن ألتقي بك في استشارة ٠٠ ان ذلك قد يكون أفضل ٠٠ أفضل كثيرا ! » ٠٠ فأمن ايزاكسون على قوله : « أظنه كذلك ، فالأمر غالبا ما يتطلب اشتراك عقلين في العمل على اجلاء الغموض عن حالة معقدة عسيرة » ٠٠ فقال الطبيب الشاب : « انه كذلك بلا شك ٠٠ لا ريب في انه كذلك ! »

ـ حسنا ٠٠ انني أقيم على النهر ، شمالا ٠٠ وقد أنتقل بالدهبية الى الجنوب

ـ طبعا ٠٠ واذا طلبت رأيا الى جانب رأيي ؟

ـ آه !٠٠ ان هذا من حقك !

ـ وسوف أمارس هذا الحق !

ـ ان النسـاء ، حتى خيرهن ، لا يمكن أن يفهمن دائما خطورة الموقف ، كما نفعل نحن ٠٠

وأمن هارتلي على قوله : « هذا رأيي تماما ! » ، فقال ايزاكسون في رصانة ـ بل في أسى ـ وقد أطلق العنان لمشاعره العميقة المخلصة التي كان اليـأس قد تسلل اليها : « أما اذا ساءت حالته ٠٠ » ، وامسك ، فسأله هارتلي : « آه !٠٠ لكن ٠٠ هل تظن ذلك محتملا ؟ » ٠٠ فحدجه ايزاكسون بنظرة ثابتة ، وقال : « أجل ، انه أمر جد جائز ! »

ـ سوف أدعوك في الحال ، مهما تكن رغبة تلك السيدة ٠٠ ولعلها تشـكر

لنا ذلك ، فيما بعد !

ـ ان النساء يعجبن بالرجل الذى يتخذ موقفا حازما !

فقال هارتلى : « هن كذلك حقا ! » .. وقال ايزاكسون : « ولعلك ستشكرنى أنت الآخر فيما بعد ! » ، فهتف الشاب : « اسمع .. لسوف أدعوك الليلة للمشورة ، وساصر على دعوتك ، بمجرد استيقاظ المريض ورؤيتى اياه ، فلست اريد أن أتحمل المسئولية كلها وحدى .. ان ذلك ليس من الانصاف فى شىء .. ولعلها ـ كما قلت ـ ستسر فيما بعد ، وتعجب بالموقف الحازم الذى .. الذى يتخذه المرء ! »

وهكذا افترق الرجلان على نحو يختلف كل الاختلاف عما التقيا عليه !.. فهل كان مصير نيجل يتوقف على أى الناحيتين فى الأمريكى الشاب ـ نزواته الجسدية، أو طموحه الى الشهرة ـ التى يقدر لها ان تتغلب على الاخرى فى هذا القلق النفسى الذى يوشك أن يلم به ؟.. لقد دعاه ايزاكسون « قلقا » وليس « نضالا » ، فان الكلمة الأولى تبدو أكثر ملاءمة للنفس التى يوشك هذا النزاع أن يقع فى أعماقها ! .. ولسوف يكون لوجه مسز ارماين ـ الذى شوهه الضمنى ـ شأن أى شأن فى هذا النضال .. وكانت براعة ايزاكسون تعتمد على ذلك بعض الشىء ، فى الهام قاس مجرد من الشفقة .. الهام انبعث من الشطر الانثوى فى طبيعته !.. فلقد اخترقت عيناه ذلك القناع الذى كانت مسز ارماين تسدله على وجهها ، ورأى أن نضارتها وسحرها وفتنتها قد ذبلت كلها .. فجأة !

الفصل الثامن والثلاثون

● كان ايزاكسون ـ حين عاد الى دهبيته « فاطمة » ـ يحس فى أعماقه بشىء من الانهاك .. كانت قواه فى تلك اللحظة دون مستواها العادى ، كما كان منقبض النفس ، ضيق الصدر نوعا ما .. كان يحس بذلك القلق الداخلى الحاد الذى ينجم عن الحاجة الى الراحة ، وبذلك الضنى الأليم الذى ينشأ عن نقص النوم المريح .. ولم يكد يستقر فى الدهبية حتى طلب الشاى وقال لحسن : «ارجو ان تحضره بنفسك !» .. فلما جاء حسن يحمل الشاى ، أعطاه ايزاكسون سيجارة . وبدلا من أن يقصيه عنه ، بدأ يتحدث اليه ، أو بالاحرى يستدرجه الى الكلام .. فبادره قائلا : « ما اسم ذلك الفتى الطويل الذى استقبلنا على اللولية ؟ » . فأجابه حسن : « اسمه ابراهيم يا سيدى »

ابراهيم ؟! انه الاسم الذى ذكره نيجل فى خطابه على انه المصرى الذى دبر استئجار اللولية لنيجل .. ومن ثم شجع ايزاكسون حسن على الحديث عن



ابراهيم ، بينما ظل هو ساكتا ، يرشف الشاى الممزوج بالليمون ٠٠ ويبدو ان ابراهيم كان صديقا حميما لحسن ٠٠ بل الواقع انه كان أعظم أصدقاء حسن ٠٠ كان هو وحسن أشبه بالاخوين ٠٠ بل كان حسن يحب ابراهيم كما يحب ابنه ، وكان ابراهيم ينظر الى حسن بعين الاحترام والاعجاب والتقدير التى ينظر بها الى والده ! ٠٠ وبدا التأثر جليا على ايزاكسون ٠٠ كان يحس فى صدغيه بوخز موجع ، وكان هناك من كان يحاول أن يضغطهما معا ٠٠ ومع ذلك فقد ظل قادرا على ان يصغى الى حسن وأن يشجعه على الاستمرار فى الحديث ، وأن يدرك ما كان يدعوه الى فعل الأمرين !

وتدفق حسن فى الحديث ـ بذلاقة لسان مأثورة عن قومه ـ كاشفا عن شئونه الخاصة وشئون ابراهيم ٠٠ وما لبث أن ظهر ان ابراهيم لم يكن فى تلك اللحظة راضيا ، بل لم يكن سعيدا على الاطلاق ، على ظهر اللولية ! ٠٠ فتساءل ايزاكسون : « ولم ذلك ؟ » ٠٠ وكان السبب انه قد « اقتلع » من مكانه ، وهو الذى كان كفؤا ، متفانيا ، ملهما ، قديرا فوق ما يمكن أن ينتظر من أى خادم آخر ، بل من أى انسان آخر حقا ! ٠٠ وكانت يدا حسن ترتعشان فى قوة ، وعلى نحو مؤثر ، وهو يتكلم ٠٠ وكان يكشف عن نواجزه ، ويتلظى غضبا وحنقا ٠٠ « ومن الذى فعل هذه الفعلة المنكرة ؟ » ٠٠ ألقى ايزاكسون هذا السؤال فى غير اهتمام ، فأتاه الجواب على الفور : « انه حمزة ٠٠ ذلك الفتى الكثير الصلاة ! ٠٠ مع أن حمزة لم يدخل فى خدمة سيدى أرمينيجل الا عن طريق ابراهيم ! ٠٠ كان كرم ابراهيم المنقطع النظير ، ونبله النادر ، هما اللذان أتاحا لحمزة فرصة هذه الخيانة وتلك الخديعة ! » ٠٠ اذن فقد كان ابراهيم هو الأسبق فى خدمة آل ارماين ؟ ٠٠ وسرعان ما عرف ايزاكسون أن محمد ـ « أحسن مكارى فى الاقصر » ـ قد طرد ليخلى مكانه لحمزة ، بينما كان « سيدى أرمينيجل » بعيدا فى الفيوم ، وان حمزة الآن قد اضطلع بعمل ابراهيم ، كتابع خاص لمستر ارماين !

ـ ان حمزة الآن هو الذى يخدم سيدى ارمينجل ، ويقدم له الشراب ، ويقدم له الطعام ، ويقدم له الدواء ، بل يقدم له كل شيء !

وفي الوقت ذاته ، تضاءلت اهمية ابراهيم حتى تلاشت تقريبا ـ رغم انه ظل يتقاضى أجرا طيبا ، ويلقى معاملة طيبة ـ وأصبح فى أعين الرجال « أشبه بالكلب الذى يأكل كيفما اتفق وينام حيثما استطاع » !٠٠ « ومن الذى طرد محمد ؟ »٠٠ كان ايزاكسون مشوقا الى أن يعرف ذلك ٠٠ وقد علم ـ مع الحواشي المعهودة فى الحديث ، لدى الشرقيين ـ أن مسز ارماين هى التى أرادت حمزة ٠٠ « انها تحبه لأنه يصلي دائما ! » ٠٠ وبدت هذه العبارة وكأنها تلقى ظلالا من الشك على كل ما سمعه ايزاكسون قبل ذلك ٠٠ ولكنه عندما اضطجع فى مقعده الطويل ، بعد أن صرف حسن ، وحاول ان ينال قسطا من الراحة ، أخذ يتمثل امامه صورة حمزة الجميلة ـ الجميلة لأنها صورة نموذجية رائعة ـ وقد تسربل بروح الشرق التى تغمره ، ووقف جامدا يملؤه التعصب ، ويطل القدر الداهم من عينيه !

وكان حمـزة هو الذى يعطى نيجل « الدواء » دائما !٠٠ لقد تبدت فى وجه مسز ارماين لمحة غريبة ، عندما تحدث ايزاكسون اليها عن صلاة حمزة ٠٠ لمحة تنم عن الذعر والهلع ٠٠ ان ايزاكسون ليذكرها جيدا ٠٠ فلماذا تملكها الفزع من صلوات حمزة ؟٠٠ وكان ايزاكسون فى حاجة الى الراحة ، ولكنه لم يعد قادرا على نيل شيء منها ٠٠ فان المرء لا يستطيع أن ينام الا اذا كف عن التفكير ، وعن الانتظار والترقب !٠٠ ومن ثم فقد راح يفكر فى الدكتور هارتلى ٠٠ لقد اعتاد فى حجرة استشارته ان يستشف الخلق والطباع ، وأن يمضى فى فحصه الى أبعد من الأعراض البـدنية المجردة ٠٠ فهل يتصرف الدكتور هارتلى بدافع من خـوفه وخشيته ، أو بدافع من خضوعه للنساء ؟٠٠ لقد كان ايزاكسون مطمئنا ـ عند مغادرته اللولية ـ الى أنه سوف يتصرف بدافع من خوفه ، ولكن ٠٠ هب ان ايزاكسون قد أخطأ تقديره ؟٠٠ هب ان مسز ارماين قد عادت تستخدم نفوذها عليه ، فتخاذل هارتلى وخضع لها ؟

لقد صمم ايزاكسـون على أن يتصرف ـ فى تلك الحالة ـ بوحى من الهـامه ، فاذا كان هذا الالهام خاطئا ، فان العواقب بالنسبة اليه ستكون غير مرضية ٠٠ بل قد تكون مشئومة حقا !٠٠ فلسوف تعمل مسز ارماين ـ اذا ما ظهر خطوه ـ على أن يلقى عقابا صارما !٠٠ لقد كانت من التجرد من القلب والمشاعر الانسانية بما يجعلها امراة خطرة حقا ، أو امراة يمكن ان تصبح خطرة !٠٠ ولكن لا بد له من المجازفة ٠٠ فعلى الرغم من انه كان رجلا شديد الحذر فيما يختص بشئونه ومصالحه ، الا أنه أصبح على استعداد للمخاطرة بها الآن !٠٠ وهو لم يتخذ هذه الخطوة بعد ، لأن الحذر كان يتأبط ذراعه ، وينصح له بأن يستنفد كل الوسائل الممكنة فى الحصـول على ما كان يريده وما كان ينوى الحصول عليه ، بطريقـة

معقولة ، ودون ان يثير اية فضيحة !٠٠ لقد احتمل كل شيء ٠٠ احتمل الظلم والافتراء المدبرين ، واحتمل القحة الباردة ، بل لقد احتمل الاهانة ، ولكنه لن يحتمل شيئا واحدا بعد ذلك ٠٠ لن يحتمل أن تقهره مسز ارماين مرة ثانية ٠٠ ولن يحتمل أن تبعده وتنحيه مرة ثانية !٠٠ واذا لم يكن الخوف قد افلح فى السيطرة على هارتلى ، فلا مفر لايزاكسون من ان يتخذ موقفا عنيفا ، ويثير فضيحة مدوية ، بل انه سيتحدى نيجل نفسه فى سبيل مصلحته ٠٠ فهل تراه سيضطر الى هذا المسلك ؟

حسنا ٠٠ لسوف يعرف وشيكا ، بل انه سيعرف فى هذه الليلة بالذات ، فقد وعده هارتلى بأن يدعوه للاستشارة الليلة !٠٠ وفى لهجة الطبيب ، قال لنفسه : « وفى انتظار ذلك لا بد لى من ان أرتاح قليلا » ٠٠ وما لبث أن نزل الى قمرته ـ أخيرا ـ فأغلق مصاريع النوافذ الخشبية ، واستلقى على فراشه ، وأغمض عينيه ٠٠ وكان قليل الرجاء فى أن يصيب شيئا من النوم ، ولكن النوم ما لبث أن وافاه سريعا ٠ فلما استيقظ سمع أصواتا قريبة منه ، بدت كما لو انها كانت تنبعث من ناحية النهر ٠٠ وظل يرقد ساكنا وهو يصغى فى انتباه ، فسرعان ما تبين أنها كانت أصوات لفيف من الوطنيين يتبادلون الحديث فى عنف وقوة ٠٠ وهم بالنهوض ، فما كاد يضع قدمه على الارض حتى سمع طرقا على الباب ، فصاح : « ادخل ! » ٠٠ واذا بحسن يطل برأسه خلال الباب قائلا : « ان السيد هنا » ٠٠ فهتف ايزاكسون : « اى سيد ؟٠٠ ما أراك تعنى الدكتور هارتلى ؟ » ٠٠ فقال حسن : « انه السيد المعتل »

نيجل ؟!٠٠ أهذا ممكن ؟٠٠ وقفز ايزاكسون من مكانه مسرعا نحو السطح ، فاذا قارب من اللؤلؤية يقف بجوار الدهبية ، بينما كان الدكتور هارتلى يذرع السطح ذهابا وجيئة فى قلق واضح ، حتى اذا سمع خطوات ايزاكسون ،استدار فى حركة مفاجئة ٠٠ فقال ايزاكسون : « هل جئت لتصطحبنى ؟ » ٠٠ وكان وهو يصعد الى السطح قد لاحظ ان الشمس قد غربت ، مما أوحى اليه بأنه نام فترة طويلة ٠٠ وأجاب هارتلى : « لقد حدثت مشادة صاخبة ٠٠ مشادة محزنة ، اليوم ! » ٠٠ وتساءل ايزاكسون فى هلع : « لماذا ؟ ومع من ؟ » ٠٠ فقال هارتلى محتدا : « معها ٠٠ مسز ارماين !٠٠ ما الذى فعلته بحق السماء حتى أثرتها ضدك الى هذا الحد ؟٠٠ ان شعورها نحوك نابع من كراهية عنيفة حقا ٠٠ هل أسأت اليها اساءة خطيرة يوما ما ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « كلا ، البتة ! »

ـ اننى ٠٠ اننى أعتقد حقا أنها لا بد أن تكون مصابة بحالة شديدة من الهستيريا ٠ ثم ان ٠٠ ثم ان هناك تغيرا عظيما قد اعتراها !

وتمهل لحظة ، وما لبث أن قال على غير انتظار : « ألديك فكرة عن سنها ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « كل ما أعرفه هو أنها ليست فى الثامنة والثلاثين ! » ٠٠

فهتف هارتلى مرتابا : « ليست فى الثامنة والثلاثين ؟! » •• فاجاب ايزاكسون : « انها أكبر من ذلك •• لقد أخبرتنى بذلك ـ ذات مرة ـ بطريقة غير مباشرة ! » •• فحدجه هارتلى فى ارتياب ، ثم قال : « اذن فانت •• اذن فانتما على تعارف وثيق ؟ » •• ولكن ايزاكسون آثر الانكار قائلا : « أبدا ! » •• فعاد الطبيب الشاب يقول : «لقد كنت حتى الآن أحسبها فى الثلاثين•• أو فى الثانية والثلاثين •• أو شيئا من هذا القبيل ! » •• فتساءل ايزاكسون : « حتى الآن ؟ » • فاجاب الآخر : « أجل ، ولكنها •• انها تبدو اليوم فجأة وكأنها •• كأنها •• حسنا •• كأنها امرأة فى سن الكهولة !•• اننى لم أر مثل هذا التغير قط من قبل ! »

ويبدو أن الشاب كان شديد الانزعاج والاضطراب حقا لهذا التحول الذى راح يتحدث عنه ، فقال ايزاكسون : « هلا جلست ؟ » • ولكن الشاب قال : « كلا ، شكرا •• اننى •• » • ولم يتم عبارته ، بل سار الى السياج ، يتبعه ايزاكسون •• ثم استطرد يقول : « ان الحديث الذى تبادلناه سويا جعلنى أصر على دعوتك الليلة •• فقد شعرت بأن ذلك كان ضروريا ولازما •• وشعرت كذلك بانه واجب أدين به لنفسى كطبيب ـ اذا كان لى أن أقول ذلك ـ ناهض يطمح الى مستقبل باهر » •• فقال ايزاكسون يشجعه : « أعتقد ان هذا حق ! »

ـ فلما استيقظت مسز ارماين ، أخبرتها بذلك •• ولكن يؤسفنى أن أقول انها لم تسلم بوجهة نظرى •• لقد تحدثنا طويلا ، وكانت فى الواقع مناقشة مضنية مثيرة الى حد بعيد ، ولكنها لم تكن فى وعيها •• وكانت تعرف ذلك •• قالت انها كانت غلطتى ، وانه ما كان ينبغى لى أن أعطيها ذلك « الفيرونال » المخدر •• والحقيقة أنها كانت تبدو مخيفة مروعة •• هل تعلم ••؟

ثم استدار فجأة ليواجه ايزاكسون ، وقد بدت فى أساريره لمحة تنم عن الفزع والرهبة ، واستطرد يقول : « لقد كان ذلك حقا أشبه برؤية امرأة تتحول فجأة أمام عينى المرء الى عجوز طاعنة !•• وأنا •• أنا الذى كنت أحسبها شابة تماما ••• » • ولكن ايزاكسون قاطعه متسائلا : « وماذا كانت نتيجة مناقشتكما ؟ » •• فقال : « لم يبلغ النقاش فى البداية هذا الحد من السوء •• فقد وافقت ـ اذ وجدت الأمر معقولا ـ على أن ننتظر حتى يستيقظ مستر ارماين ، فنرى كيف تكون حاله وقتئذ •• ولقد ظل مستغرقا فى النوم مدة طويلة ، قضيناها جالسين فى الانتظار •• انها •• لا مناص من أن أقول ان لها سحرا طاغيا ! » • ولم يستطع ايزاكسون أن يتمالك نفسه من الابتسام ، حتى وهو فى غمرة لهفته وتوتر أعصابه ، وكأنه كان يرى « بيللا دونا » وهى تحارب ذلك العزم الوليد لدى الطبيب الشاب ، بكل سلاح تملكه •• ثم قال موافقا ، دون ان تبدو فى نبراته أية لمحة من السخرية : « انها كذلك حقا ! »

ـ آه ! ان أى رجل لا بد ان يحس بذلك !٠٠ ولكنها مع ذلك ، أصبحت حطاما الآن ؟

اذن فان الهام ايزاكسون ـ المنبعث عن الغريزة النسوية فى نفسه ـ لم يخنه البتة ٠٠ فقد كان لذلك الوجه المتبدل أعمق الأثر فى قرار الدكتور هارتلى النهائى بأن يدعو ايزاكسون للاستشارة ٠٠ ومضى الطبيب الشاب يقول : « يا للمسكينة !٠٠ والله اننى لا أملك نفسى من الرثاء لها ٠٠ وانها لتعلم ذلك ايضا ٠٠ ولكنى أعتقد أنهن جميعا يعرفن ذلك ! » ٠٠ فقال ايزاكسون وقد عاوده التلهف : «ربما ٠٠ ولكن ، هل أتيت لتأخذنى الى اللولية ؟» ٠٠ فأجاب الشاب : « لقد أخبرتها بأنه لا بد لى من الاصرار على ذلك حقا ! »

ـ وكيف وجدت المريض عندما استيقظ ؟

ـ حسنا ٠٠ لا بد لى من القول بأن حاله لم ترق لى على الاطلاق

ـ كلا ؟!٠٠ هل كان أسوأ حالا ؟

ـ اننى حقا ٠٠ لست أعرف تماما ٠٠ ولكنى قلت لها انه أسوأ حالا بكثير !

وسأله ايزاكسون : « ولماذا ؟ » ٠ فهتف هارتلى : « لماذا ؟٠٠ لأننى كنت قد صممت على عدم الاستمرار فى رعاية هذه الحالة بمفردى ، خشية أن يحدث شىء ما ٠٠ ولكنها أبت ان تقرنى على أنه أسوأ حالا ، وأعلنت أنه قد تحسن كثيرا ، وغدا أوفر عافية !٠٠ وأصارحك بأن نيجل قد وافقها على ما تقول ، وذكر انه يزداد احساسا بنفسه ، وما الى ذلك ! ولكن ٠٠ ولكن كان يبدو لى انها تلقنه هذه الأقوال وتضع الكلمات على شفتيه !٠٠ ربما كنت مخطئا ، ولكن الحقيقة ، مع ذلك ، هى اننى شديد الانزعاج لكل ما حدث » ٠٠ وأمسك بالسياج بكلتا يديه فى قوة وعنف ٠٠ فقد كان من الواضح أنه انما استطاع ان يستميت فى المقاومة ضد « بيللا دونا » على حساب جهازه العصبى !٠٠ ثم استطرد يقول : « فلما غادرنا حجرته ، أخبرتها بأنه لا بد لى من ان أدعوك للحضور ٠٠ ولكنها كانت ثائرة شديدة الهياج ، فقالت انها لن تسمح لك بالحضور قط ، وانك كنت ضدها دائما ، وكنت على وشك أن تحول دون زواجها بمستر ارماين ، بل كنت تشوه سمعتها وتسىء اليها فى لندن كلها ! »

ـ هل قالت شيئا من ذلك أمام زوجها ؟

ـ لم تقل ذلك كله ٠٠ كلا ، فقد كنا فى حجرة الاستقبال الأولى ٠٠ الا أننى أعتقد أن الرجال كانوا يسمعون ما تقول ٠٠ لقد طاش صوابها حقا ، وكانت فى حالة شديدة من الهستيريا ٠٠ وكان ذلك أثقل المواقف التى مرت بى ، وأشدها حرجا ٠ ولكن ٠٠ ولكنى كنت مصمما على أن أتغلب عليها !

وهنا سأله ايزاكسون : « وهل استطعت ؟ » ٠ « فأجاب : « حسنا ! لقد ٠٠ لقد تشبثت بوجهة نظرى ، وقلت اننى لا بد أن أحصل على رأى آخر ، واننى

سأحصل عليه بالفعل ! » ٠٠ فتساءل الطبيب الكبير : « رأى آخر ؟! » ٠٠ فبادر هارتلى قائلا : « رأيك أنت ، طبعا ! فليس هناك من يمكن الحصول على عونه فورا سواك ٠٠ ثم انني ـ بعد ذلك الذى كنت تقوله ٠٠ الذى كنا نقوله ونفكر فيه معا بعد الظهر ـ لا أريد ان أنتظر حتى يتمكنون من احضار طبيب آخر من مسافة بعيدة ! » ٠ فقال ايزاكسون بلهجة عملية : « سوف نذهب على الفور » ٠ وأمن هارتلى على قوله : « نعم » ٠٠ ولكن هذه الموافقة كانت مشوبة بتردد شديد الوضوح ، كما أن هارتلى لم يتحرك من مكانه ، فرمقه ايزاكسون بعينين حادتين متسائلتين ٠٠ وعندئذ قال الشاب فى تخاذل : « اننى ٠٠ شد ما أود لو اننى كنت بعيدا عن هذه الحالة كل البعد ، فانى أخال ـ بعد تلك المشادة العنيفة التى وقعت بعد الظهر ـ اننى لا ألقى سوى الجحود والنكران لكل ما فعلته ٠٠ ولم يسبق أن صادفنى مثل هذا الموقف الكريه مع أية امرأة من قبل ، مما يجعل مركزى حرجا ، صعبا لا يطاق ٠٠ ولست أدرى كيف تستقبلنا ، لست أدرى حقا ٠٠ فانها لم توافق قط على اقتراحى، وكانت عندما تركتها فى حالة مروعة!»

ـ ان مسز ارماين تبغضنى كثيرا ، وهذا أمر يؤسف له ٠٠ ولكن ينبغى لى ان أفكر فى المريض نفسه ٠٠ وكذلك ينبغى لك ٠ اصغ الى يا دكتور هارتلى٠٠لقد استطعنا ، انت وأنا ، أن نتغلب على خلافنا البسيط فى هذا الصباح ، وأرجو أن نصبح زميلين !

فقال الشاب فى لهفة : « ليس أحب الى نفسى من هذا ! » ٠٠ فاستطرد ايزاكسون : «سنعود الى اللولية٠٠ وسنفحص المريض ، ثم نتشاور معا ٠٠وعندئذ، اذا ظللت على رغبتك فى التخلص من هذه الحالة ٠٠ » ٠ ولم يدعه الشاب يتم عبارته ، اذ هتف : « أحسبنى أريد ذلك حقا ، فان لدى أصدقاء ينتظروننى فى أسوان » ٠٠ فقال ايزاكسون : « أما أنا فليس لدى من ينتظرنى ٠٠ وعلى ذلك فاذا رضى المريض ، وظللت أنت على هذا الرأى ، فانى على استعداد لاعفائك من كل مسئولية ، وأخذ الأمر كله على عاتقى ٠٠ واذا صادف أنك أتيت الى لندن ، فانى ٠٠٠ » ٠ وهنا قال هارتلى : « قد أرحل اليها فى الصيف » ٠ فاستطرد ايزاكسون قائلا : « حسنا ٠٠ أظن أن فى وسعى أن أكون ذا نفع لك هناك ٠ هل نذهب الآن ؟ »

★ ★ ★

◆ وتحرك الدكتور هارتلى سريعا فى هذه المرة ٠٠ كان يبدو كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهله ، فمضى يسير نحو القارب فى خفة ونشاط ٠٠ حتى اذا ما بلغاه قال : « ثم انك أكبر منى مركزا بكثير ٠٠ وفضلا عن ذلك فانك صديق قديم للمريض ، لذلك لست أظن أن الامر سيبدو غيرطبيعي فى نظر أحد !» ٠٠فقال

ايزاكسون بهدوء : « بل انه أكثر الامور تمشيا مع المعقول » . ثم أردف يقول لخادمه : « نعم يا حسن ، لك أن تاتي معنا .. تعال في القارب الآخر ، فقد أحتاج اليك لتقوم بأداء مهمة لى فيما بعد ! »

ولم يتبادل الطبيبان الكثير من الحديث ، بينما كانت المجاديف تعمل في قوة لتحملهما الى اللولية .. كان كلاهما مشغول البال ، موزع الفكر .. ومع ذلك فما ان أشرفا عليها ، حتى بدأ الدكتور هارتلى يتململ في مجلسه . وكان هذا القلق البدنى يفضح شدة قلقه العقلى .. وما لبث ان قال أخيرا : « لكم أرجو أن تكون عاقلة ! » . فقال ايزاكسون : « أظنها ستكون كذلك ! » .. فسأله : « وما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ » .. وأجاب ايزاكسون : « انها امرأة أريبة ذكية ، ما فى ذلكشك » . فقال الآخر : « ذكية.. آه ! نعم ، انها كذلكحقا .. ألم تكن ذائعة الصيت يوما ما ، على نحو معين ؟ » .. وكان الجواب : « نعم .. كغادة جميلة ! »

وكانت نبرات ايزاكسون لا تشجع على الاستمرار فى الحديث ، فأخلد الآخر الى الصمت دون أن يكف عن التململ فى مجلسه .. ولكنهما ما ان أصبحا ملاصقين للولية - تحت ذلك الضوء الأزرق المعلق على قمة صاريها - حتى قال هارتلى فى صوت خافت خفى : « أرى من الأنسب أن تتقدمنى ، باعتبارك أكبر منى مركزا !.. ان ذلك سوف يبدو أكثر مطابقة للوضع الطبيعى ! » .. فقال ايزاكسون : « لا بأس .. ولكنى لا أريد أن أبدو كأننى .. » فقاطعه الآخر : « كلا ، كلا ! لا تهتم بى !.. لسوف أقدر الأمر تماما . ولقد آثرت أن أدعوك للحضور ، وهذا يدل على أننى لست راضيا عن سير الحالة ! »

ومست « الفلوكة » جانب اللولية ، ثم ظهر ابراهيم ، فابتسم لمرآهما . واتسعتابتسامته عندما لمح وراءهما القارب الثانى وبه حسن.. وخطا ايزاكسون الى سطح الدهبية أولا ، فتبعه هارتلى فى تثاقل ، وقد فارقه نشاطه .. فقال ايزاكسون لابراهيم : « أريد أن أقابل مسز ارماين » .. فمضى ابراهيم نحو الدرج ، وسار الطبيبان خلفه . حتى اذا ما أوشكا على المرور تحت شعاراللولية، سأل ايزاكسون هارتلى : « هل قدر لك ان تعرفمعنى هذه الكتابة العربية ؟ » . فقال هارتلى : « هذه ؟.. نعم ، لقد سألت عنها .. انها من القرآن » .. فهتف ايزاكسون : « أحقا ؟! » .. فاستطرد الآخر : « وهى تعنى : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » .. فقال ايزاكسون : « آه !.. انها توحى بنظرية القضاء والقدر الى حد ما .. ترى هل تروق لك ؟ » .. وكان الجواب : « لست أدرى ، فاننى لم أفكر فيها .. اننى لأتساءل كيف ستقابلنا مسز ارماين ؟ » .. فأجاب ايزاكسون فى مرح الواثق المطمئن : « سيكون كل شىء على ما يرام!» ولكنه كان فى الحقيقة يتساءل بدوره !.. وكانت حجرة الاستقبال الأولى

خالية ، فتركهما ابراهيم فيها ، ومضى خلال الباب الذى كان يفصل بينها وبين القسم الخلفى للسفينة ٠٠ وجلس ايزاكسون على الأريكة ، ولكن هارتلى لم يكف عن الحركة والتململ ٠٠ كانت لهفته الحالية تعادل تماما اعجابه السابق بمسز ارماين ٠٠ وبالقدر الذى كان يعبدها به فيما مضى ، أصبح يخشاها ويرهبها الآن !٠٠ وما لبث ان قال : « اننى ٠٠ أرجو ألا تثير الشقاق مرة أخرى » ٠ فقال ايزاكسون وهو شارد البال : «آه ، كلا» ٠ واستطرد الشاب قائلا : « أجل ٠٠ انك لم تر كيف كانت بعد ظهر اليوم » ٠ فقال ايزاكسون يسرى عنه : «لقد كانت مضطربة ، فان بعض الناس لا يحتملون النوم بالنهار ٠٠ أما الآن فقد اتسع لها الوقت لتسترد قواها وتهدىء من اضطرابها ! »

ولكن هارتلى لم يبد متفائلا مطمئنا ، فظل يختلس النظر الى الباب الذى اختفى ابراهيم وراءه ٠٠ وما ان مضت خمس دقائق حتى فتح ابراهيم الباب ثانية ، ثم تنحى جانبا وهو ينحنى قليلا ويغض بصره الى الارض ، بينما دخلت مسز ارماين ترتدى ثوبا للشاى متقن الصنع ، بادى الأناقة ، رمادى اللون مطرزا بالفضة ٠٠ وكانت قد أصلحت زينتها ، ولكنها لم تستخدم ذلك الطلاء الناصع البياض الذى كان يضفى على وجهها شحوبا باهتا ٠ وكانت شفتاها حمراوين ، وشعرها لامعا مرجلا بحيث يظهر جوال رأسها فى أبهى مظهر ، ويدع عنقها الجميل عاريا مكشوفا ٠٠ كانت يدها قد فعلت كل ما يبرز فتنتها ويجعلها تبدو ساحرةجذابة، فى براعة وحذق !٠٠ ومع ذلك ٠٠ فحتى ايزاكسون نفسه - الذى كان قد رأى التغير الذى ألم بها بعد الظهر ، والذى كانت أقوال هارتلى قد أوحت اليه بأن يتوقع المزيد من التغير فيها - أصيب بدهشة بالغة من ذلك التبدل الذى طرأ على هيئتها خلال ساعات قليلة !

كانت مظاهر السن - بما فيها من دلائل مبهمة توحى بما سوف تكون عليه الشيخوخة - قد سيطرت على مسز ارماين ، وأمسكت بها فجأة فى قوة وعنف٠٠ واذا كانت قد لاحت لمعظم الناس من قبل - منذ وجودها فى مصر - وكأنها أصغر بكثير من حقيقتها ، فانها أصبحت تبدو الآن أكبر كثيرا من حقيقتها فعلا ٠٠ لقد خطر ببال ايزاكسون ، عندما نظر اليها فى حجرة استشارته بلندن ، أنها ليست شابة ، ولا عجوزا ، بل وليس ثمة ما يقطع بأنها فى أوسط العمر ٠٠ أما الآن، فقد تبين تماما ما سوف تكون عليه يوما ، عندما تغدو عجوزا وتكثر من الأصباغ والمساحيق ، وتسعى جاهدة - بالمشدات الخداعة، والشعر المستعار المتقن الصنع، واجادة تزييف لون بشرتها - الى التظاهر بأقل شىء يمكن اصطناعه فى الدنيا ، ألا وهو الشباب !٠٠ كانت تقاطيع وجهها أشد حدة وأقل لطفا مما كانت عليه من قبل ٠٠ وكان أنفها وذقنها يبدوان مدببين ، وعظام وجنتيها أشد بروزا من ذى قبل ٠٠ أما الفم فكان يبدو انه قد استسلم فجأة لذلك الشىء الذى كان

يناضله حتى الآن بنجاح !٠٠ والعينان ؟!٠٠ لقد كانتا تشتعلان بنار توحى بما سيكون عليه ذلك الليل المظلم الذى يوشك أن يطبق على هذه المرأة فى بطء وعزم دائبين ، فيخفى جمالها بين ثنيات سواده الحالك !

وفكر ايزاكسون فى نفسه : « كيف يمكن أن تكون حالة هذا العقل الذى استطاع ان ينتصر فجأة ـ بهذا الشكل ـ على جسد طالما كان هو الفائز المنتصر؟» ٠٠ وأحس كأنه رجل يطل على هوة سحيقة ، فلا يرى شيئا ، وانما يسمع حركات وأصوات تنم عن الفزع واليأس !

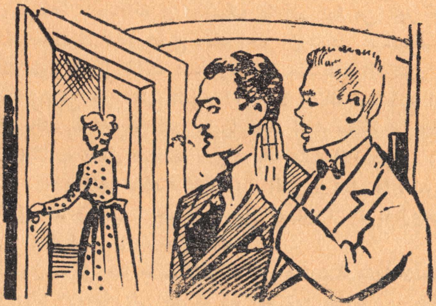
وتقدمت مسز ارماين من ايزاكسون رأسا ، وهى تحدجه بنظرات ثابتة ، وقد بدا كأنما كانت عيناها تتحديانه ان يكشف ما ألم بها من تغير ٠ ثم ابتسمت قائلة : « اذن فقد عدت ؟! هذا جميل منك !٠٠ ان نيجل مستيقظ الآن ! » ٠٠ ثم تحولت الى الدكتور هارتلى قائلة : « أرجو أن يستطيع الدكتور ايزاكسون أن يطمئنك ٠٠ لقد أفزعتنى وروعتنى اليوم !٠٠ ولا أظنك تستطيع أن تدرك تماما كيف تكون الحال بالنسبة لامرأة تلقى عليها فجأة أنباء مقلقة عن حالة مريضها » ٠٠ فبدأ الطبيب الشاب يقول متلعثما ، وقد بدا عليه الاضطراب : « ولكننى لم أقصد قط ان ٠٠ » ٠ ولكنها قاطعته قائلة : « اننى لا أعلم ما الذى كنت تقصده، ولكنك أفزعتنى الى حد رهيب ! حسنا ، هل تودان أن تريا زوجى معا ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « أجل ، لا بد من ذلك ! »

ودهش ايزاكسون ـ الى حد ما ـ لانعدام كل معارضة منها لاستشارته ، رغم انه كان قد تنبأ بهذا الانعدام فى حديثه مع الدكتور هارتلى ٠٠ ولعله كان قد لجأ الى هذا التنبؤ ليطمئن نفسه ، فلما تحققت النبوءة ، أحس بقلق مبهم ، كذلك الذى ينتاب رجلا كان موقنا من وجود كمين مدبر له ، فهو يتساءل عما اذا لم يكن قريبا من هـــذا الكمين !٠٠ وما لبثت مسز ارماين ان قالت : « أحسبكما تفضلان ان لا أحضر تشاوركما ! » ٠٠ فأجاب ايزاكسون : « ليس من المعتاد أن يحضر مثل هذه المشاورات سوى الأطباء المشتركين فيها » ٠٠ فقالت : « ولكن المشاورات ستكون بعد زيارة المريض وفحصه ، وسوف أترككما طبعا منفردين لهـذا الغرض ٠٠ وكنت أفضـــل أن أترككما وحـدكما أثنـــاء فحصكما لزوجى كذلك ، ولكن يؤسفنى أن أقول انه يصر على وجودى هناك » ٠ واذ ذاك لم تعد تخامر ايزاكسون ذرة من الشك فى وجود الكمين ٠٠ لقد أعدته فى الوقت الذى مكثت فيه وحدها مع المريض ٠٠ فهى لم تكد ترى هارتلى يفر بغتة ـ وعلى غير انتظار ـ من الحلقة السحرية لنفوذها وسيطرتها ، حتى جعلت كل همها أن تحكم هذه الحلقة حول زوجها !

ولكن ايزاكسون كان مصرا على تحطيم هذه الحلقة ، بأى ثمن ٠٠ فقال : « اننا لا نريد أن نعارض المريض أو نضايقه على أى وجه » ٠٠ ورمق الدكتور هارتلى ،

فبادر هذا قائلا : « كلا ، كلا .. بكل تأكيد ! » .. فقالت مسز ارماين : « هذا بديع ! » .. وقطبت حاجبيها وزمت فمها لحظة ، ثم لم تلبث أن راحت تبلل شفتيها المصبوغتين بطرف لسانها ، واستدارت نحو الباب ، وهى تقول : « سأسبقكما لأخبره بأنكما قادمان » .. وانفلتت الى الردهة

الفصل التاسع والثلاثون



• رمق ايزاكسون الدكتور هارتلى بنظرة خاطفة ، قبل أن يتبع مسز ارماين الى الخارج، فغمغم الشاب فى صوت هامس: « اننى .. الا يبدو منظرها غريبا؟ هل رأيت مثل هذا التبدل قط ؟ » . ولكن ايزاكسون لم يجبه ، بل سار الى الردهة . وكانت مسز أرماين قدسبقته وأخذت تسرع فى سيرها نوعاما، ولكنها التفتت وراءها فجأة .. وكان الضوء يتدفق عليها من أعلى ، فيظهر وجهها المتوتر المنهوك ، ويبرز أساريرها الحادة المريبة – على نحو عجيب – ويكشف عن الغضون المتجمعة حول زوايا عينيها . وكانت تبدو ، تحت السقف المنخفض ، مفرطة الطول اكثر مما ينبغى ، وهى ترفل فى ثوبها الرمادى الطويل ، فخيل لايزاكسون ان فى طولها الفارع شيئا بغيضا

مروعا ، هذا المساء ! . . ورفعت يدها ، وكأنها تنذر الرجلين بالتمهل لحظة ، ثم مضت فى سيرها حتى اختفت خلال الباب المواجه لهما فى نهاية الممر الذى كان يفصل بين صفين من حجرات النوم الصغيرة .. فقال ايزاكسون : « يبدو ان علينا ان ننتظر . لقد غادر المريض فراشه اذن ؟ » فغمغم هارتلى قائلا : « انه لم يكن قد نهض عند ما تركت الدهبية ! » .. فسأله ايزاكسون : « وهل نصحته بأن يلزم الفراش ؟ »

ـ آه ! كلا ، فلست أرى سببا يحول دون مغادرته الفراش ، سوى ضعفه ووهنه .. بل انه ما كان ينبغى ان يلزم الفراش قط !

وفى تلك اللحظة ظهرت مسز أرماين ثانية وأشارت اليهما ان يتقدما ، فأطاعا اشارتها ، ومضيا الى حجرة الاستقبال البعيدة . وما كاد ايزاكسون يجتاز بابها ، حتى رأى نيجل جالسا على الأريكة ـ بالقرب من الباب الأيسر المؤدى الى الشرفة ـ وخلفه عدد من الوسائد . وكان يضع قبعة على رأسه ، فكأنه دخل من الشرفة للتو ، وقد نشر احدى الصحف على ركبتيه .. وكانت الحجرة خافتة الضوء ، اذ لم يكن مضاءا بها سوى مصباح واحد ، حجبت نوره ظلالة . وكان يجلس مستقيم الظهر ، بمساعدة الوسائد ، وكأنه بذل لتوه جهدا عنيفا ، فهو يحاول أن يشد قامته ليريح جسده .. وكانت مسز أرماين تقف ملاصقة له !.. وتحولت عيناه نحو الطبيبين ، حتى اذا ما اقترب ايزاكسون منه ، قال فى صوت كالح خلو من أية عاطفة ، وان كانت نبراته مع ذلك تحمل مسحة من التذمر : « اذن فقد عدت يا ايزاكسون ؟ » . فأجاب هذا : « نعم .. ان كل شىء على ما يرام ياروبى ، ولكن .. » ، ثم

ـ هذا جميل منك ، ولكنى لا أدرى لماذا ينبغى ان تثار كل هذه الضجة بشأنى .. انك تعرف ان هذا أمر شاق مضن لى . بلى أعتقد انه يحول دون شفائى !

وهكذا عرف ايزاكسون ما كان ينبغي له أن يواجهه ، وما كان يجب عليه أن يكافحه . واستطرد نيجل يقول : « انني أكره أن تثار أية ضجة حولي .. أكره ذلك تماما ، ويجب أن تعرف هذا ! » .. **وكان ايزاكسون قد تقدم حتى دنا منه ، وهو يمد يده ليحييه ، ولكن نيجل لم يبد ما ينم عن اكتراث بها ، سواء أكان ذلك عن ضعف لم يمكنه من ان يمد يده ، أو كان عن تظاهر بعدم رؤيتها لسبب آخر..** فلم يلبث ايزاكسون ان أرخي يده ، وهو يقول : « ما أحسب ان هناك ما يدعو الى اثارة أية ضجة .. كل ما فى الأمر هو اننى انتهزت فرصة وجودى قريبا منك ، وأتيت لأرى كيف حالك الآن بعد أن قضيت فترة فى النوم » . فقال نيجل : « اننى لم أنم البته فى الليل ، فان ما أعطيتنيه لم يجدنى أى خير » .. فتمتم ايزاكسون : « اننى آسف لذلك ! »

وكان نيجل لايزال جالسا منتصب الظهر ، ولكن جسمه كان قد مال قليلا الى اليسار حيث كانت تقف مسز أرماين ، وهي تنظر اليه فى قلق هادىء !.. وعاد يقول : « لقد قضيت ليلة سيئة .. بالغة السوء ! » . فشرع ايزاكسون يقول : « أخشى اذن ان تكون .. » . ولكن نيجل قاطعه قائلا : « لقد فهمت ان الدكتور هارتلى هو الذى ذهب لاستدعائك » .. وكانت فى صوته رنة من الشك .. فقال هارتلى وهو يتكلم فى عصبية لأول مرة : « نعم ، لقد .. لقد قلت لنفسى : ان رأسين خير من واحد ! » .. واغتصب ضحكة أشبه بالعويل ، بينما تململ نيجل فجأة فى مجلسه فوق الأريكة ، كشخص يعانى قدرا عظيما من الهياج ، ثم أخذ يقلب بصره بين الطبيبين ، وقد أخذ هياجه ينصب عليهما معا من عينيه ، وهو يقول : « رأسان ؟ لماذا ؟ ماذا تعنى ؟ »

وما كاد يفرغ من سؤاله حتى تأوه تأوها عميقا ، ولكنه مع ذلك لم ينتظر حتى يسمع الاجابة ، وانما انثنى يقول لزوجه :

« ليتنى أستطيع ان احظى بقسط من الهدوء ! » .. **وكان فى صوته اعياء فظيع.. كانت فيه نبرة اوحت لايزاكسون بصوت طفل يلقى ألوانا من العذاب والقسوة الرهيبة !** .. وانحنت مسز أرماين فوقه تتحسس يده المستقرة على الصحيفة التى كانت لاتزال منشورة فوق ركبتيه،ثم ابتسمت له ، وغمغمت وهى ترفع حاجبيها : « قليلا من الصبر ياعزيزى ! » .. فقال: « نعم .. ان كل شىء على ما يرام ياروبى ، ولكن .. » ، ثم نظر ثانية الى ايزاكسون ، فى عداء واضح – وان لم يكن قويا عنيفا – وقال : « اننى أعلم انك تريد ان تعالجنى يا ايزاكسون، كما انها طلبت منى الليلة ان ألقاك .. لقد كان الأمر جد مختلف فى الليلة الماضية .. أما الليلة فانى لا أريد هذا العلاج، ودعنى أصارحك ... » . ثم تأوه ثانية بألم ، ومضى يتابع قوله : **« ما قبلت أن أرى أحدا الا لارضائها . . كل ما أبغيه هو الهدوء . . فقد حضرنا الى هنا لننشد الهدوء ، ولكن يبدو أننا لن ننال شيئا منه »**

ثم تحول ثانية نحو زوجته ، قائلا : « حتى انت بدا عليك الاعياء .. اننى أرى ذلك واضحا ! » . فقطبت مسز ارماين جبينها، ثم أسرعت تقول: « آه.. اننى على مايرام يانيجل!» .. ثم استطردت ضاحكة : « ولكنى لن أسمح لهما بأن يتوليا علاجى ! » .. وعاد نيجل يتابع كلامه – وهو ينظر الى الرجلين – ويقول فى لهجة المدافع : « ان روبى كانت تمرضنى كالجارية !.. ما وجد قط مثل هذا الوفاء من قبل ، وبودى أن يعرف كل انسان ذلك » .. واغرورقت عيناه بالدموع فجأة وهو يستطرد : **« على ان خير الأشياء وأفضل الناس فى هذه الدنيا لايلقون الا الجحود ، ولا يحظون بالثقة ! .. »** . . فقالت مسز أرماين وهى تحاول أن تهدىء روعه: « لا بأس يانيجل .. لا تحفل بهذا ! »

وكان ايزاكسون – وكذلك هارتلى – قد ظل واقفا ، اذ

كانت مسز ارماين واقفة . ولكنه ما لبث أن جلس بجوار المريض ، وراح يقول فى هدوء وثبات : « **اننى أعتقد أن الوفاء الحق لا يلبث أن ينال جزاءه .. وكل ما نريده الآن هو أن نفيدك ، وأن نرجع اليك عافيتك السابقة بسرعة** » . فقال المريض : « هذا شعور طيب منك طبعا ، ولكنك لم تفدنى فى الليلة الماضية .. لقد كانت أسوأ ليلة مرت بى فى حياتى » .. فتذكر ايزاكسون ذلك الصوت الذى سمعه عندما كان الملاحون النوبيون يطرقون بمجاديفهم صفحة النهر المظلم ، ولكنه قال : « فلنحاول ان ننفعك الليلة .. ألست تود ذلك ؟ » . فأجاب نيجل فى اعياء : « كل ما اريده هو الراحة .. لقد قلت لها ذلك ، وهانذا أكرره لك ! » فعاد ايزاكسون يسأله : « هل تود أن أبقى الليلة على ظهر السفينة ، حتى أفحصك فى الصباح ، بعد أن تكون قد نلت قسطا من الراحة أثناء الليل ؟ » .. فتطلع نيجل الى زوجته ، ثم قال لايزاكسون بعد لحظة : « ألست قريبا منا ؟ » . فأجابه : « لست بعيدا جدا ، ولكن .. »

ــ اذن فلست أرى ما يدعو لازعاجك بالبقاء هنا .. فلدينا الدكتور هارتلى

فقال الطبيب الشاب ، الذى كان لايفتأ يختلس النظر ــ فى نوع من الذعر والرهبة ــ الى وجه مسز ارماين المتداعى : « اننى .. أخشى ان أكون مضطرا الى الرحيل غدا ، فهناك من ينتظرنى فى أسوان . والواقع اننى أتيت الى مصر فى صحبة مسز « كرافن باجلى » ، لأتولى الاشراف على صحتها المعتلة ، ولو انها أوفر قوة ... » . فقاطعه نيجل قائلا : « أجل ، أجل .. طبعا . . اذهب ، فاننى أريد الهدوء . . وأريد الراحة ! » . ثم تراخى جسمه ومال على زوجته ، فجلست فجأة الى جانبه وهى تمسك بيده ، ثم قالت : « هل تفضل الا يقوما بفحصك الليلة ؟ » . . فقال فى صوت نم عن انزعاج : « فحصى ؟! » .. واذ ذاك قالت : « حسنا ياعزيزى .. أن

هذين الطبيبين .. » . فبذل نيجل جهدا خارقا حتى جلس منتصب الظهر كما كان من قبل ، وقال بذلك الصوت الواهن الغضوب الذى كان ينبعث من رجل منهوك القوى : « لست أريد أن يضايقنى أحد الليلة .. لم .. لمأعد استطيع احتمال شيء آخر ! . . لم . . اعد .. استطيع » ، وتلاشى صوته فجأة ، فهمس هارتلى : « يحسن بنا ان ننصرف ، ولنرجىء الفحص الى صباح باكر ! »

ثم نظر الى مسز ارماين ، وأسرع نحو الباب . وعندئذ نهض ايزاكسون من مجلسه ، وقال لمسز ارماين فى صوت لايعبر عن شيء : « سندع المريض الليلة » . فقالت متسائلة : « نعم ؟ . » . ولكنه تجاهل سؤالها وقال: « ولكن، أتسمحين لى بكلمة أقولها لك فى الحجرة الأخرى ؟ » .. ثم تبع هارتلى الى الخارج ، فلما لحق به فى الردهة ، قال الشاب : « لم تكن ثمة فائدة ترجى الليلة ، بل ان فحصه كان خليقا بأن يزيد الأمور سوءا ، فانه ليس فى حالة عقلية مناسبة لمثل هذا الفحص فى هذا الوقت المتأخر » . فقال ايزاكسون : « اظن ان من الأفضل ان ننتظر الى الغد »

ـ وعندئذ ، لا بد لى بمجرد انتهاء الفحص والتشاور من الرحيل .. هذا ، اذا كنت راغبا فى ..

ـ يمكنك ان تدع كل شيء بين يدى !

فقال الشاب فى صوت شاك : « انها أصبحت تمقتنى .. هل رأيت من قبل مثل هذا التحول ؟ » . فقال ايزاكسون : « سأتحدث اليها فىحجرة الاستقبال الأولى، ولذلك فسأتركك الآن ! . » . وكان هارتلى يضع يده على أكرة أحد الأبواب فى الردهة ، فقال : « أما أنا فسأدخل هنا .. اننىأنام هنا » .. فقال ايزاكسون: «طابت ليلتك!» .. وتساءل الشاب: «آه !.. الا تريدنى ثانية؟» . وكان جواب ايزاكسون: « ليس الليلة!» .. فهتف الآخر : « طابت ليلتك اذن ! » .. وفتح باب الحجرة

ثم اختفى بداخلها ، بينما سار ايزاكسون الى حجرة الاستقبال الأولى . وهناك ظل ينتظر زهاء عشر دقائق ، قبل أن يسمع وقع خطوات مسز ارماين قادمة .. **ولكنه ما كان ليبالي لو طال انتظاره ساعة كاملة ، فقد كان يحس فى اعماقه بذلك العزم الصادر عن ارادة حديدية استقرت على أمر معين .. والمرء القوى لا يضيره الانتظار !** وما لبثت مسز أرماين ان دخلت ، فأغلقت الباب خلفها فى رفق وهى تقول : « اننى آسفة اذ أبقيتك فى الانتظار برهة ، ولكنى كنت أقود زوجى الى حجرته ، فانه يريد أن يأوى الى الفراش .. أين الدكتور هارتلى ؟ » .. فأجاب : « لقد ذهب الى حجرته ! »

وكان فى نبرات ايزاكسون شىء يبدو انه أثار دهشتها فجأة ، اذ راحت تحدجه بنظرة حادة متسائلة .. وأردف قائلا : « هلا جلست لحظة ؟ » . فبادرت الى الجلوس ، وهى لا تزال ترمقه بنظرات ثابتة .. وما لبث أن جلس بالقرب منها ، وقال : « ان الدكتور هارتلى سيرحل فى صباح الغد » .. فقالت : « ولكنه وعد بأن يمكث معنا بضعة أيام أخرى ليشرف على نقاهة زوجى » .. فقال ايزاكسون : « بل انه سيرحل غدا .. كما أن الحديث عن النقاهة سابق لأوانه » . فقالت : « لست أفهم شيئا مما تقول ! » .. فأجاب **« سأزيدك ايضاحا .. ان زوجك ليس فى دور النقاهة ، وانما هو فى اسوا حالات المرض ! »** .

ـ لا عجب فى ذلك ، ما دام يلقى هذه المضايقات القاتلة ، وما دام لا يحظى بالراحة والهدوء ، لا فى الليل ولا فى النهار ، وما دام يعطى عقارا فوق عقار !

ـ هل لى أن أسألك عما تعنينه بهذا القول ؟

ـ ألم تحضر فى الليلة الماضية وترغمه على تناول الجرعة المنومة ؟

فقال ايزاكسون : « لقد أعطيته شيئا يجلب النوم حقا » ..

فقالت :« ولكن هذا الشىء لم يجلب له النوم قط ! » .. واذ ذاك قال ايزاكسون فى هدوء : « **لأن زوجك تلقى صدمة شديدة قبل أن يتسع الوقت لـكى يحدث الدواء أثره المنوم !** » .. فتململت مسز ارماين فى مجلسها ، وقالت وهى تتفرس فيه : « صدمة شديدة ؟ ! » .. فقـال الطبيب : « ان الأصوات تسرى فى الليل ــ وفوق المـاء ــ الى مسـافة طويلة .. ألم تلاحظى ذلك قط ؟ » .. وكانت لا تزال تحملق فيه ، فلمـا نظر اليها خيل اليـه أن عظام وجهها قـد ازدادت بروزا .. واستطرد يقول اذ وجـدها لا تجيب : « **لقد خيل الى ــ فى الليلة الماضية ــ أننى سمعت شيئا غريبـا .. فأمرت رجالى بالكف عن التجذيف لحظة ، ورحت أنصت .. ولا يدهشنى أن الجرعة المنومة التى أعطيتها لزوجك لم تحدث أثرا ، فانها فى مثل هذه الظروف كانت خليقة بأن تحدث مفعولا عكسيا ، ضارا .. وما من طبيب يمكن أن يتكهن بشىء من ذلك !** »

وأخذت تتحرك فى مجلسها بقلق ، فنهض ايزاكسون ووقف أمامها ثم أردف قائلا : « اننى سأكلمك بصراحة ووضوح .. لقد أخبرتنى منذ بعض الوقت فى عيادتى بلندن ، بالـكثير عن حقيقة نفسك » . فقالت : « انك تظن .. » ، ولكنه قطع عليها الحـديث قائلا : « بل اننى موقن تماما .. لقد أخبرتنى أن كل رغبتك فى الحيـاة هى ان تستمتعى بما بقى من عمرك ، فالى متى تنتوين أن تحتملى حياتك الحالية ؟» .. فهتفت : « احتملها ؟ ! .. انك لاتفهم شيئا . لقد كان نيجل بالغ الطيبة معى ، كما انى سعيدة كل السعادة معه » .. فسألها : « اذا كان بالغ الطيبـة معك ، فهلا تريدين أن تريه يبرأ ويستعيد صحته ؟ » .. وكان جوابها : « اننى اريد ذلك طبعـا ، وقد قمت بالعناية به دون أن أدخر فى ذلك جهدا » .. فقال :« أجل .. لا سيما وانك بلا وصيفة تعينك .. مع انهـا كانت تقرع الجرس لحمزة أمس عندما كنا هنا ! » .. وكانت السخرية

تمتزج بالتقريع في عبارته الاخيرة، فغضت بصرها وراحت تعبث بالوشي المطرز القاتم الذي كان يكسو الأريكة ، ثم قالت: «لقد توليت تمريضه حتى كاد المرض يحل بي أنا الاخرى » .. فقال : « سأريحك من هذه المهمة » . واذ ذاك ادارت وجهها نحوه ، وقالت : « لا ، لن تفعل ذلك .. انني زوجة نيجل وهذا هو واجبي الطبيعي » .. فقال : « ولكنني مع ذلك سأعفيك من المهمة ! »

وكان لنبراته الثابتــة ، الجامدة ، أثر بالغ الوضوح عليها ، بينما مضى يقول: « لسوف اتولى الحالة بنفسي منذ الليلة ! » .. فهبت مسز ارماين واقفة وراحت تنظر الى ايزاكسون من عل ، وهي تقول : « لن يرضى نيجل بوجودك ! » .. فقــال بحزم : « بل يجب ان يرضى ! » .. وعادت تقول : « انه لن يفعل .. الا اذا رغبت أنا في ذلك » . فقال : « وانت لن ترغبي في ذلك قط ! » . فقالت : « كلا ! » . واذ ذاك قال : « ولكنك ستتظاهرين بالموافقــة ! » .. فظلت تنظر اليــه في صمت . واخيرا قالت لاهثة : «ولماذا » .. فأجاب : **« لأنك اذا لم تفعلي، فلن ابعث في طلب طبيب آخر ، وانما سأبعث في طلب رجال البوليس ! »**

وتهالكت على الأريكة دفعة واحدة ، ولكن تعبيرات وجهها لم تتغير قط .. فأدرك ايزاكسون أنها قد افلحت في ان تجعل من وجهها قناعا يخفي تفكيرها السريع الثائر.. واخيرا قالت: « لعلك لا تعني أن تقول انك تظن في الأمر شيئا ما .. ان أحدا من الخدم ..ابراهيم ، او حمزه .. انني لاصدق ذلك ..لن أستطيع ان أصدق شيئا من ذلك قــط » . فسألها : « هل تريدين مني أن أشفي زوجك ؟ » .. فأجــابت : « أريد ان يشفى طبعا ! » . فقال : « اذن فأرجو أن تذهبي اليه الآن ، وتخبريه بأنك قد طلبت مني أن أقضي الليل هنا .. انني لاأريد أن يراني الليلة ثانية ، ولــكن سأراه بمجرد أن يستيقظ من

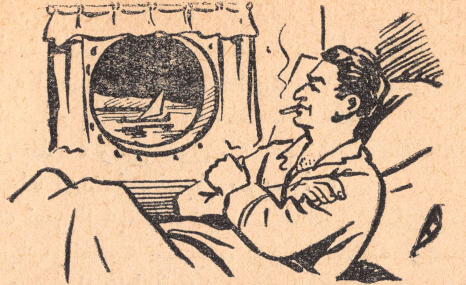
النوم فى الصباح » . فقالت مراوغة : « ولكن .. انه لن .. » .
ولكنه قاطعها قائلا : «كما تشاءين ! .. فاما أن ابقى هنا وأتولى العناية بهذه الحالة ، واما أن أعود الى سفينتى فى ادفو ، ثم أقوم فى الصباح بالاتصال بالسلطات المختصة » .. فعادت الى النهوض فى بطء ، وهى تقول : « حسنا .. مادمت تعتقد حقا ان فى وسعك أن تشفى نيجل سريعا ! »

وسارت نحو الباب ، ثم غمغمت قائلة : «سأرى مايقوله !» .
وفتحت الباب وانفلتت خارجة . **وفى تلك الليلة أوفد ايزاكسون تابعه حسن الى « فاطمة » ، ليحضر له الضرورى من المتاع ، فقد نجحت مسز أرماين فى اقناع زوجها بقبول زيارة الطبيب له وفحصه فى صباح اليوم التالى ..**

لم يهزم ايزاكسون فى هذه المرة ! .. ولكنه اذ مضى الى احدى هذه القمرات الصغيرة الأنيقة ، ليحاول النوم قليلا ، كان يحس بانقباض شديد ، رهيب ، لم يكد يقوى على احتماله .. اذ ما معنى هذا الانتصار .. او ماذا ينبغى ان يعنى ؟ !

الفصل الاربعون

◆ ظل ايزاكسون يسائل نفسه ـ أثناء الليل ـ عن معنى انتصاره ، ولكنه كف عن التساؤل عندما بزغ الفجر ، وصار عليه أن يخف مرة أخرى الى عمله .. ذلك العمل الذى كان قوام حياته ، على الرغم من انه كان يميل احيانا الى السخط عليه ـ فى أعماق سريرته ـ كلما استبد به التعب . كانت مهمته واضحة أمامه ، وهى مهمة كان يستطيع أن يهبها شطرا من قلبه . وعلى الرغم من انه لم يكن بليد الحس والشعور ـ حتى يستسيغ الضيم والاهانة ـ الا أنه كان رجلا ينطوى على طبيعة كريمة سمحة ، وقد اعتاد أن يغض النظر فى تسامح ، عن تلك المضايقات الطفيفة ، والاساءات الصغيرة التى تعرض للمرء فى حياته ، والتى يتشدد الكثيرون من ذوى العقليات التافهة فى أمرها ، ولا ينسونها فى سهولة ! .. وهذا الرجل المريض الغضوب الذى كان مستعدا ـ بسبب ضعفه الجسمانى وحبه الذى أساء توجيهه ـ لأن يقلل من شأن



صداقته ، وأن يضرب عرض الحائط بما عرضه عليه من معونة ٠٠ هذا المريض لم يشأ ايزاكسون أن ينظر اليه الآن كرجل ، وانما كان ينظر اليه « كشيء » أصابته يد الدمار ، فمن واجبه أن يصلحه وأن يعيده الى حالتــه الصحيحة السابقة ! ٠٠ كان يعرف طبيعة الرجل على حقيقتها ، ويعرف نفســه على حقيقتها ، وقد فهم حق الفهم ما أصاب هذه النفس وتلك الطبيعة فحاد بهما عن السبيل السوى ٠٠ ولذلك فقد نحى شخصه جانبا ، ووضع كبرياءه فى جيبه الذى كان يعده خير مكان لها فى تلك الآونة ! ٠٠ ومع انه استطاع أن يصل الى هدفه ـ عن طريق تلميحه الجرىء الى ما كان الهامه قد همس اليه به ـ الا انه ما لبث أن أدرك انه اذا شاء النجاح فى إنقاذ نيجل ، فلابد له من أن يعمل فى حزم ، بل فى دهاء لم تكن القطرات الشرقية فى دمه لتجعله غــريبا بالنسبة له ، كما يمكن أن يكون بالنسبة لمعظم الذين يعيشــون مثله !

وكانت مسز أرماين قد خضعت واستكانت مؤقتا ٠٠ فانصاعت لما أمرها به ، وفعلت الشىء الذى كانت تكره أن تفعله ٠٠ ولكنها لم تكن بالمرأة التى تنطلق قدما فى أى طريق يقودها بعيدا عن رغباتها ونزواتها ! كانت الآن تمقت ماير ايزاكسون بقدر ما كانت تخافه ، كما كان لها فى الوقت نفســه نفوذ شديد قاس على زوجها ٠٠ على ان أى خوف دفين ما كان ليمنع حقدها على الرجل ـ الذى فهمها على حقيقتها ـ من ان يعمل فى الخفاء ٠٠ فهى ، كالخلد(١) لابد لها من أن تعمل فى الظلام ٠٠ وهى لا تستطيع البتة أن تمنع نفسها

---

(١) حيوان صغير ضيق العينين ذو فراء ثمين ، يأوى الى الجحور الدفينة ولا يخرج منها الا ليلا ٠

من ذلك ! .. ولم يدر ايزاكسون ما قالته عنه لنيجل - بين زيارته الاولى للولية وزيارته الثانية- ولكنه في الواقع لم يكن ليهتم بأن يعرف ذلك.. ولم يكن من العسير عليه أن يحدس كيف استخدمت نفوذها وتاثيرها ، بل انه ليكاد يسمعها تسرد قائمة اساءاته اليها ، ويكاد يرى عينيها وهما تهمسان للمريض بما تريد أن توعز اليه به ، وهى اشياء لم يكن ثمة شك فى ان نيجل قد صدقها ، لأنه فى حالته هذه كان خليقا بأن يصدق أى شىء تقوله له ، ولا تفتأ تردده على مسامعه .. وهكذا وافق بكلمة منها على قبول خدمات صديقه .. الخدمات التى كان - بكلمة أخرى منها - شديد الرغبة فى رفضها !

والحقيقة أن نيجل كان فى قرارة نفسه يصيح مستنجدا بتلك اليد القوية كى تنتشله من الهاوية التى تردى فيها ، فقد كان شديد الايمان بايزاكسون كطبيب ، بقدر ما كان يكره من ايزاكسون الآن ريبته - التى لم تعد خافية - فى المرأة التى رفعتها شهامته الى العرش !

وهكذا استقبل نيجل ايزاكسون فى مزيج عجيب من الشكر والتحفظ معا ، فوضع نفسه بين يدى « الطبيب » فيما يشبه استسلام غلام صغير وثقته .. ولكنه كان يرد نفسه - فى عزم يبعث على الرثاء والشفقة فى هذه الظروف - عن يدى « الصديق » المبسوطتين .. وسرعان ما احس ايزاكسون بانه وان كان قد حسم النزاع الأول - وحسمه على الوجه الذى يرضيه - الا ان نزاعا آخر كان فى بدايته .. فقد بدأت معركة النفوذ الصامتة التى كانت رحاها تدور خفية حول هذا الرجل الطيب ، الذى أدت به فضائله نفسها الى هذا المصير التعس ! .. ولكن ايزاكسون آثر أن يقدم صفته كطبيب على صفته كصديق ، فانه كطبيب قد يوفق الى تمهيد الطريق أمام الصديق ، ومن ثم فانه قابل هذا التحفظ الجديد من نيجل بتحفظ آخر لم يكن يبدو مقصودا فى الظاهر ، وانما هو تحفظ عملى ، رسمى - وفوق كل شىء - تحفظ ساكن هادىء

كان ايزاكسون يشع هدوءا وسكينة ! .. وقد وجد مريضه فى هذا الصباح الأول منهوك القوى بعد ليلة سيئة أخرى ، كان احد أسباب سوئها تلك الجرعة المنومة التى جعلته ينام نهارا .. وادت هذه الحالة الجسدية التعسة الملموسة ، بما لها من تأثير على العقل ، الى اطلاق يدى الطبيب فى الفحص .. فتمكن - فى غير مشقة - من أن يقوم بفحص دقيق شامل للحالة .. أما المريض ، فعلى الرغم من انه كان بادىء ذى بدء متحفظا فى مسلكه ، وقد أقام حاجزا بينه وبين ايزاكسون ، الا انه ما لبث أن أطلق للسانه العنان على نحو مثير للشجن ، بمجرد أن أصبح الحديث طبيا محضا .. ولكنه سرعان ما عاد الى الاستغراق فى تحفظه الجامد السابق - بمجرد انتهاء الفحص - ذلك

التحفظ الذى كان يبدو غريبا عن طبيعته الحقيقية ، بحيث أحس ايزاكسون كأن الرجل الذى يعرفه ويميل اليه قد نهض وغادر الحجرة ، وخلفه مع رجل غريب عنه ! •• وكانت مسز أرماين تنتظر نتيجة هذه المقابلة ، أما الدكتور هارتلى فكان قد رحل ــ بل لعل « هرب » هى الكلمة الصحيحة ! ــ فى ساعة مبكرة ! •• وكان وجهها فى ضوء النهار يبدو أشد انهيارا مما كان عليه فى الليلة الماضية ، ولكن مسلكها كان هادئا شديد البرود •• وقالت : « علام استقر رأيك ؟ »

ــ لست أظننى على استعداد لأن أصدر قرارا معينا •• وكل ما أستطيع قوله هو ان زوجك فى أشد حالات الضعف والانحطاط ، ولو تركت هذه الحالة لتستمر على ما هى عليه ، لغدا الضرر مما لا يمكن اصلاحه !

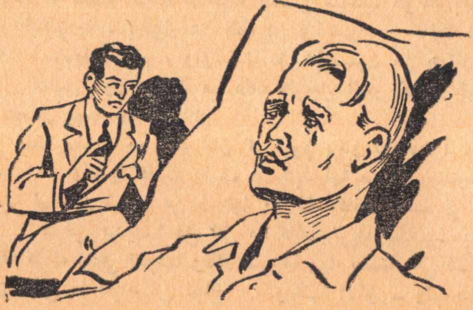
فقالت : « ولكنك تستطيع ان تشفيه » •• وكان جوابه : « أرجو ذلك ! » •• وكانت تقف وكأنها تنتظر أن تسمع مزيدا من المعلومات المفصلة ، ولكنها لم تتلق شيئا من ذلك •• فقد قال ايزاكسون بعد لحظة من الصمت : « ان أول ما ينبغى عمله هو أن نقصيه عن هنا » •• فتساءلت : « نقصيه عن هنا ؟ ولكن الى أين ؟ » • فأجاب : « تلك الفيللا القائمة فى الاقصر لا تزال تحت أمركم ، فيما أظن ! » •• فقالت : « آه ! نعم » ، فعاد يتساءل : « وأحسبها مريحة ، حسنة الاعداد ؟ » •• فقالت : « تماما » •• وتابع أسئلته : « كما اننى أعلم انها فى بقعة هادئة ، ولها حديقة » •• فسألته بدورها : « أتراك رأيتها ؟ » •• وأجاب : « نعم ، فقد كانت ذهبيتى راسية أمامها تماما فى الليلة السابقة على رحلتى الى الجنوب •• فلعلك تتفضلين اذن باصدار الأمر الى « الريس » للعودة الى الاقصر فى أقرب وقت » •• فقالت فى غير اكتراث : « حسنا ! »

كان مسلكها وهيئتها قد أصبحا ينمان عن الاستسلام وعدم الاكتراث الى حد عجيب •• كانت من قبل مليئة بالحيوية الثائرة الضارية ، أما اليوم فقد لاحت وكأنما سلبت منها تلك الحيوية !•• واستطردت تقول : « سأطلب اليه ذلك الآن » • ومضت نحو سطح الذهبية دون أن تلقى مزيدا من الأسئلة • وان هى الا لحظة حتى دبت الحركة فى السفينة ، وسمعت صيحات الملاحين ، وبدأت اللولبية تتحرك سابحة صوب الشمال مع التيار • فلما سأل نيجل عن السبب ، قال له ايزاكسون : « ان هذا المكان شديد العزلة ، بحيث لا يصلح لشخص مريض ، فان المرء لا يستطيع الحصول على شىء هنا•• ولسوف تكون أكثر راحة وأوفر دعة وأمنا فى منزلك ، كما سيكون فى وسعى أن أبذل لك عناية أفضل »•• فتساءل : « أو نحن عائدون الى الفيللا ؟ » •• وما أن أجابه : « نعم » ، حتى قال نيجل فى بطء : « اننى مسرور لذلك ••

انني لم أخبرها ، ولكنى كنت قد بدأت أمقت هذه السفينة ، فى الواقع ٠٠ فان كل هذه المتاعب قد حلت بى هنا ٠٠ بل اننى احيانا ٠٠ احيانا ٠٠ أكاد أشعر كما لو كان ٠٠ »

ثم توقف عن المضى فى الحديث ، فقال ايزاكسون فى هدوء : « نعم ؟ » ٠٠ فأردف قائلا : « كما لو كان هناك شيء مشئوم بالنسبة لى على ظهر اللؤلؤية ! » ٠٠ واذ ذاك قال الطبيب : « اننى فى الفيللا سأعيد اليك صحتك وقوتك الأصليتين » ٠٠ فمال الوجه النحيل - الذى كان فى لون الرصاص - الى الأمام ، وتوهجت العينان - اللتان كانتا مليئتين بالعلة المروعة - بنيران الأمل لحظة ، وهتف : « أتظن حقا اننى قد أشفى يوما من الأيام ؟ » ٠ فمكث ايزاكسون برهة لا يحير جوابا ، ثم قال : « هل تبذل لى وعدا ؟ » ٠ فسأله نيجل بدوره : « وما هو ؟ » ٠ واذ ذاك قال الطبيب : « هل تعدنى بأن تطيعنى طاعة مطلقة فى كل شيء آمرك بعمله ؟ » ٠٠ وعاد نيجل يسأله : « هل تعنى ٠٠ بصفتك طبيبا ؟ » ٠٠ فلما قال له : « نعم » ، عاهده على ما أراد ، فقال الطبيب : « حسنا جدا ٠٠ أعتقد ان بوسعى - اذا انت وفيت بوعدك - أن آخذ على عاتقى أن أعالجك واشفيك ٠٠ واظننى أستطيع أن آخذ على عاتقى أن تغدو ثانية ، فى يوم من الأيام ، ذلك الرجل القوى الذى كان يستمتع بكل صحته وقوته »

وانهمرت الدموع من عينى نيجل وراح يغمغم : « ليت ذلك يتحقق ٠٠ ليته ! » ٠ فقال الطبيب برصانة : « ولكن اذكر اننى أتوقع منك طاعة عمياء لأوامرى كطبيب ، وأول هذه الأوامر هو هذا : انك لن تتناول أى شيء ما لم أعطك اياه بنفسى وبيدى » ٠٠ فتساءل المريض : « أتعنى ٠٠ أى دواء ؟ » فأجاب : « اننى أعنى ما قلت ٠٠ لن تتناول شيئا ٠٠ لا لقمة من طعام ،



ولا رشفة من شراب » .. فهتف نيجل : « اذن فان زوجتى وحمزة .. » ، فقاطعه ايزاكسون فى صرامة : « هل تطيعنى ؟ » . فقال نيجل بصوت واهن : « نعم » . فعاد الطبيب يقول : « ما عليك الآن الا أن ترقد ساكنا ، وأن تذكر اننا ذاهبون الى منزلك ، حيث أعتزم أن أعيد اليك صحتك كاملة »

وهكذا مضت اللولية تنحدر مع التيار ، فى بطء وتثاقل ، وهى تتقدم فى وسط النهر ، اذ كانت الريح ساكنة تماما ، وكان الجو حارا أشبه بالاتون .. ورفعت « فاطمة » مراسيها وتبعت اللولية الى الشمال . وأتى الليل ، وهما لا تزالان تسبحان والنجوم ترقبهما من عل .. ونام نيجل ، أما ايزاكسون فقد ظل ساهرا متيقظا . وفى مقصورة مجاورة ، أخذت امرأة تحدق النظر الى وجهها فى مرآة صغيرة مثبتة الى غطاء صندوق مذهب .. وكانت نظراتها تنفذ الى قلبها فى يأس فظيع .. لقد قال هارتلى انه كان « يظن » انها قد أدركت ما أصاب جمالها من انهيار مباغت .. يظن ؟! .. الواقع انها كانت قد تبينت الكارثة - قبل أن يفطن اليها - بفزع بارد كالجليد ، ظل يقوى ويشتد حتى انتهى بها الى يأس مرير .. ومع هذا اليأس ، حلت الكراهية ، الكراهية للرجل الذى أدى بها الى هذا الانهيار ، اذ وقف حائلا بينها وبين السعادة .. هذا الرجل هو نيجل ! .. لقد ظن انه قد أنقذها من نفسها الشريرة ، ولكنه فى الحقيقة انما أيقظ هذه النفس الشريرة من هجعتها وسباتها ! .. لقد كانت فى لندن أقرب الى أن تكون امرأة فضلى بالمقارنة الى ما أصبحت عليه الآن ، فان بحثه الفاشل المتعثر عن سمو الروح ونبلها ، انما أثار الشيطان الكامن فى أعماقها ! ولقد كانت تتوق الى أن تجعله يعرف ما كانت عليه حقا .. وكم من مرة أوشكت فيها - بينما كانا منفردين معا على ظهر اللولية - أن تخبره بشىء من الحقيقة على الأقل .. بل لقد كادت أعصابها تخونها ، عندما كانت الذهبية تستقر ساعات طويلة بلا حراك فوق صفحة النهر البللورية ، بمعزل عن العمران والناس .. كانت المرأة اذ ذاك تضطر - وقد أسقمها السأم ، وأوشكت على الجنون من حياتها الراكدة الكئيبة - الى تمثيل دور الحبيبة مع ذلك الرجل الذى كانت قوته وجماله الماضيان يتناقصان يوما بعد يوم !

الا ينتهى ذلك قط ؟ .. لقد كان كل يوم يبدو لها دهرا ، وكل ساعة تبدو لها عاما ! .. ولكنها كانت تعرف ان لابد لها من أن تتشبث بالصبر ، ولو أن الصبر لم يكن شطرا من طباعها .. لقد كانت طوال حياتها امرأة جشعة عجولا ، تقبض بيديها على كل ما كانت تريد فتتشبث به فى اصرار ونهم .. ولقد كانت تخفى تعجلها ونفاد صبرها وراء ستار من فتنتها ، وهكذا استطاعت أن تلقى ما لقيته من نجاح .. ولكنها الآن - ولم يبق أمامها الا

القليل من الزمن لأية متعة يمكن أن تنالها ـ الآن وقد راحت الرغبة والغيرة تنهشانها وتنخران فى جسدها ، فانها أصبحت تجد ترددا واحجاما من قواها وهى تستحثها وتستعين بها ٠٠ لقد كانت فيما مضى تستخدم تاثيرها وسلطانها دون مشقة أو عناء ، أما الآن فلابد لها من العناد والاصرار فى محاولاتها ٠٠ وكانت تعلم ـ فى ذلك اليقين المخيف الذى يواتى المرأة المكتهلة ـ ان الاجهاد القاسى الذى يعانيه عقلها لابد له من ان ينتج أثره الواضح فى جسدها !

وكان مبعث فزعها ـ ذلك الفزع الرهيب الذى لم يفارقها قط خلال تلك الأيام والليالى على ظهر الدهبية ـ ان جمالها قد يذبل ويخبو قبل أن تغدو حرة فى الذهاب الى بارودى ! ٠٠ وكانت قد أصبحت تعلم كيف كان سحرها قويا عليه ، رغم تظاهره القاسى بالرزانة والرصانة ٠٠ وكانت قد استطاعت ، عن طريق أحط ما لديها من قوى ـ تلك القوى التى كان نيجل ينكرها ويخال أنه يمقتهـا ، ولو انه ربما انصاع لهـا وخضع بكيفية ما ـ ان تدرك طبيعـة المصرى الشهوانية ٠٠ فقد كان بارودى كما قال «ستارنورث» لايزاكسون ، ذا شغف جنونى بالنساء ، وكان ذا ولع جنونى ببيللا دونا ! ٠٠ ولكنه كان يعرف كيف يصبر وينتظر فى سبيل ما يريده ويرغب فيه ٠٠ وقد كان الآن فى الانتظار ! ٠٠ ولكن المشكلة التى ما فتئت تلوح أمام عينى مسز ارماين ـ أثناء وجودها فى هذا « المنفى » مع نيجل ! ـ هى : « هل يمكن أن ينتظر طويلا ؟ » ٠٠ كانت تعلم أن نضارة النساء وحسنهن قصير الأمد ٠ وكانت تعلم ـ على الرغم من انها كانت تنكر ذلك على نفسها ـ انها اذا أقبلت على بارودى ، فى خريف سحرها الباهت ، لا فى ربيعه المشرق ، فانها قد تتعرض للمخاطرة بان تواجه بتلك القسوة الصريحة التى غالبا ما تكون وليدة النظرية الشرقية عن النساء ! ٠٠ على انها ـ فى غمرة فزعها ـ لم تكن تكف عن التعلق بالآمال الوثابة الضارية حتى ٠٠ حتى وجدت نفسها ذات يوم ، فى قدس الأقداس بمعبد حورس ، أمام ايزاكسون وجها لوجه !٠٠ والآن ؟ انها تجلس الآن وحيدة فى حجرتها ، تحدق فى المرآة الصغيرة ـ التى أهـداها اياها بارودى فى بساتين البرتقال ـ بينما كان ايزاكسون يجلس الى جوار زوجها ساهرا ، حارسا !

« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » !

كأنما كانت هذه الحروف العربية المذهبة ، تضغط عليها فى قوة ، وتسحق جسدها وروحها ! ٠٠ وما لبثت أن ألقت بالصندوق من يدها ، وهى ترد الغطاء فوقه فى شدة وعنف ٠٠ واذ لم تعد ترى نفسها ، خيل اليها انهـا ترى حمزة يصلى ، كما كان يصلى فى ذلك اليوم ببساتين البرتقال ، بينما كانت تطل من النافذة ٠٠ لقد شـعرت اذ ذاك بان أيدى الشرق قد اطبقت

عليها ، وانها لن تتخلى عنها قط ، أو تدع لها سبيلا للفكاك ٠٠ وكان شيء ما في قرارة نفسها قد نكص على أعقابه نافرا ، بيد أن ثمة شيئا آخر لم يكن يشتهي الا أن تطبق عليها يدا محمود بارودى ! ٠٠ كانت الصلاة تملأ قلبها رهبة ، ولكنها - مع ذلك - لم تكن تؤمن بأى اله ! ٠٠ آه ، لو أن هناك الها ، حقيقة ! ٠٠ ليته ينظر اليها الآن ويرعاها !!

وعندئذ قفزت من مكانها ، وأطفأت النور !

★ ★ ★

◆ ورست اللولية في اليوم التالى أمام حديقة « فيللا أندرود » ، وراء ذلك الحاجز الحجرى الذى أقيم ليخفف من اندفاع تيار النهر القوى ٠ وكان نيجل من الضعف بحيث لم يستطع السير من الضفة حتى المنزل ، فحمله النوبيون في عناية بالغة ، وأسرع خدم الفيللا المندهشون - اذ انهم لم يتلقوا أى نبأ عن مقدم سيدهم - يفتحون النوافذ ويدفعون المصاريع الخشبية ليملأوا المنزل بالضياء والهواء ٠ وبدأ ابراهيم يتولى - من جديد - زمام السلطة في يده ، اذ كان يبدو أن عهد حمزة قد ولى وانقضى ! ٠٠ ومن الآن فصاعدا تقرر أن يكون « ماير ايزاكسون » وحده هو الذى يقدم الطعام والشراب « لسيدى أرمينيجل » ٠٠ والظاهر أن الانتقال من حياة الدهبية الى حياة البيت - في البر - قد أحدث تبدلا سريعا في حالة المريض ، فانه ما كاد يوضع في عناية ورفق في حجرة الجلوس - ذات اللونين الأصفر والابيض - ويتطلع الى الخارج من خلال باب الشرفة فيرى الورود تتمايل في الحديقة الرملية ، حتى انبعثت من صدره زفرة طويلة عميقة نمت عن الراحة والارتياح. ثم قال لزوجته التى كانت تجلس الى جوار الأريكة ، حيث اضطجع هادئا : « لكم أنا مغتبط لمغادرتى اللولية يا روبى ! » ٠٠ فسألته : « أحقا أنت كذلك يا نيجل ؟ ولماذا ؟ » ٠٠ فكان جوابه : « لست أدرى ٠٠ كأنما كانت الدهبية تسبب لى انقباضا شديدا ! ثم هل تعرفين تلك الكتابة ؟ » ٠ فتساءلت : « اية كتابة ؟ »

- تلك التى فوق الباب الذى تدخلين منه ٠ لقد اعتدت أن أفكر فيها أثناء الليل ، بينما كنت في تلك الحالة الفظيعة ، فكانت أشبه بثقل عظيم ينقض على ليسحقنى تحته !

- انه وهم منك يا عزيزى !

ولكنها رمقته بنظرة غريبة تنم عن التوجس المشوب بالفزع ، بيد انه لم يرها ، اذ كان يتطلع الى الحديقة ٠٠ وكانت تنبعث من النيل أصوات الملاحين

وهم يتغنون بأنشودتهم المعهودة ، فظل ينصت لحظة ، ثم قال : « يا لها من فترة عجيبة تلك التى انقضت منذ أن سمعنا هذه الأنشودة معا للمرة الأولى يا روبى ! » • فتمتمت : « أجل » • وعاد يستطرد مع الذكريات : « عندما سمعناها للمرة الأولى ، كنت قويا سعيدا الى أبعد حد ـ قويا بحيث أتولى حمايتك ، سعيدا بأنك لى حتى أحميك ـ و •• وها قد انتهى الأمر الى قيامك أنت بحمايتى ، والعناية بى ! » •• فتململت فى جلستها ، وقالت بصوت أجش : « نعم ! »

وعاد يقول : « أظننى •• أظننى سعيدا بأننا لا نستطيع أن نخترق حجب المستقبل •• ان المرء فى حاجة الى قدر كبير من الشجاعة فى الحياة ! » •• ولم تجب بشىء ، فمضى يتابع القول : « على اننى أشعر الآن بشىء من الشجاعة ••ولست أذكر اننى أخبرتك قط عما كانت عليه حالتى على اللولية ، ولكننى لو مكثت عليها مدة أخرى-كما كنا سنفعل- لانتهيت الى الموت !•• بل كان لابد أن أموت سريعا » •• فهتفت : « كلا يا نيجل •• كلا ! » • ولكنه قال فى اصرار : « بلى ! •• كان لابد أن أموت •• ولكننى هنا •• » ، وبسط يديه متنهدا ثم قال: « ولكنى هنا أشعر بأننى سأتحسن •• بل ربما تحسنت كثيرا جدا •• آه ! ما أجمل أن يتحقق ذلك!» • فقالت : «حسنا •• لا بد لى من أن اغادرك الآن لأشرف على شئون البيت ! » • فقال :« انك متعبة•• ألست كذلك؟»• ولكنها أجابت : « لا •• لماذا تظن ذلك ؟ » • فقال : « ان صوتك يبدو متعبا »

ـ ليس الأمر كذلك ! ـ وما هو اذن ؟

ـ انك تعلم أننى من أجل خاطرك أرغم نفسى على احتمال صحبة بغيضة لى !

وفى تلك اللحظة دخل ايزاكسون الى الحجرة، وهو يقول بصوته الهادىء القوى: « يجب أن ننقل المريض الى فراشه فى أسرع وقت » • فقالت مسز ارماين : « سأذهب لأشرف على اعداد حجرته » ، وأسرعت بمغادرة الحجرة • وما ان بلغت الطابق العلوى ، حتى كانت تتناثر على شفتها السفلى قطرات من الدماء ، لفرط ما عضت عليها !

الفصل الحادى والاربعون



◆ كان نيجل قد كره اللولية نهائيا !٠٠ واذ لم تعد بهم حاجة اليها ، فقد طلب الى زوجته أن تبرق الى بارودى - باسمه - اخطارا باستغنائهم عنها ليستردها حالما يشاء ٠٠ ثم أضاف : « ان ابراهيم لديه عنوانه ، فيما أعتقد » ٠٠ وأرسلت البرقية ، فرد بارودى بأخرى قائلا انه سيستعيد اللولية ٠ وفى اليوم نفسه حضر « الريس » الى « الفيللا » ليتلقى « البقشيش » ويودع مخدوميه السابقين ٠ ولم يشر قط الى مصيره ومصير ملاحيه القريب ، ولكنه لم يكد ينصرف حتى رفعت اللولية مراسيها وعبرت النيل الى الضفة الغربية ، حيث ألقت مرساها ثانية ، فى بقعة تكاد تواجه حديقة الفيللا ٠٠ وفى المساء ، كانت أصوات الملاحين تسمع من بعد وهم يقيمون حفلة الطرب المعتادة !

وسمعتهم مسز ارماين وهى تتمشى وحدها فى الحديقة ، بجوار حاجز الأمواج، ورأت الضوء الأزرق على قمة الصارى٠٠ أما نوافذ القمرات فكانت حالكة الظلام٠ اذن فهذه نهاية رحلتهما الى الجنوب !٠٠ ووقفت على مقربة من السور الحجرى الذى كان يفصل الحديقة عن الأرض الفضاء الممتدة وراءها ، والتى كان بعضها قفرا وبعضها حقولا مزروعة !٠٠ ما خطر لمسز ارماين قط انهما سوف يعودان من رحلتهما ٠٠ ثلاثة !٠٠ فما كانت تحلم بتدخل ايزاكسون !

لقد كانت هذه نهاية رحلتهما ٠٠ ولكن كيف ينتهى الأمر كله ؟٠٠ ان بارودى لم يبد أية اشارة ٠ فهو لم يكتب اليها كلمة واحدة قط ، كما انها لم تجرؤ قط على الكتابة اليه ٠٠ ولم يكن قد طلب اليها أن تكتب له ، وذلك يعنى انه لم يكن

يريدها على ان تكتب . لقد كانت تخافه كل الخوف ، وكان خوفها منه جزءا من تلك الفتنة المروعة التى كان يستغلها فى السيطرة عليها !.. انها وهى التى طالما كان لها الكثير من العبيد ـ عندما كانت فى عنفوان شبابها ـ قد انتهت الى هذه النهاية .. الى ان تصبح امة من الرقيق !

وجلست على أحجار حاجز الأمواج ، بجوار السور . ولم تكن الليلة مقمرة ، ولكن الرؤى تبدو دانية واضحة ، فى ليالى مصر الصافية ، حتى عندما تخلو من القمر !.. وكان الساحل الأسمر ينحدر ـ الى يمين مسز ارماين ـ فى ميل شديد الى ضفة أشبه بشاطىء رملى زحفت المياه على شطر كبير منه .. وكانت تنمو حوله ـ فيما يشبه حوضا كبيرا من الرمل والطين الرخو ـ عدد من الشجيرات التى تؤلف دغلة غير كثيفة .. ولم تكن مسز ارماين قد هبطت لتتمشى على هذا الشاطىء الرملى من قبل ، ولو انها كانت تنزل اليه لتستقل « الفلوكة » .. ولكنها فى هذه الليلة لم تلبث ان نزلت الى الشاطىء ـ بعد ان جلست وقتا بلا حراك ـ وراحت تتمشى فوق الرمال القريبة من حافة الماء . ولم يكن بوسعها ، فى هذا المكان ، ان ترى المنزل بنوافذه المضيئة التى كانت تتحدث اليها عن الحياة التى ورطت نفسها فيها .. لم يكن بوسعها ان ترى شيئا سوى ظلمة النهر العظيم ، والخطوط الخارجية القائمة لحاجز الأمواج ، وقمة الضفة ـ حيث تبدأ الحديقة ـ ثم أشباح الشجيرات المعتمة المتشابكة .. وعند قدميها كانت المياه تستقر فى سكون ، أشبه بمياه بحيرة ساكنة ، فى حين كان التيار قويا فى داخل النهر !

وظلت تقول لنفسها وهى تذرع الشاطىء ذهابا وجيئة فى هذه الوحدة : «ماذا ترانى فاعلة ؟ ماذا ترانى فاعلة ؟ » . وقد يكون من الغريب حقا ، ان ذلك الرجل البعيد عنها ـ بارودى ـ كان يخيفها ، حتى فى تلك اللحظة ، اكثر مما كان يخيفها ايزاكسون ، القريب منها .. انها لم تكن تدرى ما يعتزم كل منهما ان يفعل .. كانت فريسة قلق مزدوج ذى شعبتين .. كانت تعتقد ان ايزاكسون سيعيد لزوجها صحته ، ما لم تجد ـ حتى فى هذه الظروف ـ وسيلة للتخلص منه !.. وبارودى ؟ ما الذى يزمع عمله ؟.. وكانت تنظر عبر النهر فترى ذلك الضوء الأزرق .. لماذا رست اللولية هناك ؟ هل كان بارودى قادما ليلحق بها ؟ .. ليته يأتى حقا !

واسرعت فى سيرها ، دون أن تعى تماما أنها قد أوسعت خطاها .. ليته يأتى حقا ، فقد أصبحت تشعر بأنها لن ترضخ له اذا جاء ، وانما ستعمل على رؤيته ، وترغمه على الخروج من خفايا عقله الشرقى العميقة ، ليدرك ما كانت تحس به ! .. لقد سيطرت أنانيته العظيمة على أنانيتها ، ولكن اليأس بدأ يتملكها ، واخذ تفكيرها فى جمالها الآفل يقض مضجعها باستمرار ، بالرغم من أنها كانت لا تفتأ تبعد هذا التفكير عنها ، اذ صممت على أن تفكر دائما فى أن التغير الذى ألم

بهيئتها كان تغيرا طفيفا ، وان مثل هذا التغير سوف يكون وقتيا ٠٠ ان القليل - القليل فقط - مما كانت تريده ، كفيل بأن يعيد اليها نضارتها وربيع جمالها حتما !٠٠ وانقلبت تفكر فى ماير ايزاكسون - الذى أصبح يقيم فى المنزل قريبا منها - بعينيه الثاقبتين المروعتين ، اللتين تنمان عن عقل ثاقب رهيب !٠٠ ان هذا الرجل يستطيع ان يتجرد من كل رحمة أو شفقة ، ولكن ليس مع نيجل ٠٠وهل يمكن قط أن يكون قاسيا مجردا من الرحمة معها ، دون أن يكون قاسيا مجردا من الرحمة مع نيجل فى الوقت نفسه ؟!

وراحت تتطلع الى النهر ، وقد وقفت جامدة بلا حراك ٠٠ لو ان بارودى كان على ظهر اللولية الليلة ، لاستقلت قاربا وذهبت اليه - ألم تكن خليقة بأن تفعل؟ - ولقالت له انها لم تعد تطيق حياتها ، وان لا بد لها من أن تكون معه ٠٠ ولتركته يعاملها كيفما يشاء !٠٠ وكانت وهى تفكر فى شفقة نيجل و رقته ، تشتهى أن تتذوق القسوة من بارودى ! ولكن هذا يستلزم ان تكون معه ٠٠ انها لو استطاعت فقط أن تكون مع بارودى - فى أى مكان ، وعلى أية صورة - لطرحت عنها ذكرى هذه الحياة البغيضة مع نيجل الى الأبد ٠٠ انها لن تفكر فى نيجل بعد ذلك قط ، فلن يكون ثمة وقت تضيعه فى ذلك !

« ولكن ماذا ترانى فاعلة ؟ ماذا ترانى فاعلة ؟ » ٠ لقد عادت هذه العبارة الى ذهنها ثانية ٠٠ كما أن شطحات الخيال عقيمة لا طائل وراءها ، وليس ثمة أى جدوى من اطلاق العنان للخيال ٠٠ لا بد من حضور بارودى ٠٠ بل لا بد من انه قادم حقا ، والا ما رست اللولية على الضفة الغربية ٠ ولكن لعلها كانت هناك لقضاء الليل فحسب ، وقد تبحر فى الغد !٠٠ وأحست مسز ارماين بأنها لن تستطيع البقاء فى الاقصر - اذا أبحرت اللولية فى الصباح - بل ستستقل القطار وتذهب بعيدا ٠٠ الى أين ؟ الى أى مكان ٠٠ الى القاهرة !٠٠ سيكون بوسعها أن تنتحل بعض الأعذار ، كأن تقول أنها يجب أن تحصل على بعض الثياب ٠٠ثياب الحداد على هارويتش !٠٠ وسيكون ذلك عذرا كافيا ٠٠ ستقول انها ذاهبة لقضاء يومين فقط ، وسوف يسمح لها نيجل بالذهاب ٠ وماير ايزاكسون ؟٠٠ لم تكن مسز ارماين تعرف رغباته ونواياه بالنسبة اليها ، ولكنها فى هذه اللحظة بالذات لم تعد تبالى بذلك ، فان العودة الى الفيللا وذهاب اللولية لاحا وكأنهما نفخا فى النار المتأججة فى أعماقها فزاداها اشتعالا !٠٠ كانت قد نجحت وهى على ظهر اللولية - فى ذلك المكان المغلق ، الشبيه بسجن جميل - فى تركيز حواسها الى حد معين ، على الامور التى كانت تقوم بأدائها !٠٠ ولقد قضت ساعات فظيعة من السأم ، بل من اليأس ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تجتازها بسلام ٠٠ ثم انها كانت وقتئذ هى الآمرة الناهية !٠٠ أما الآن ، فقد انتزع نيجل من بين يديها قسرا ، ولم يعد السجن الجميل ملكا لهما !

ثم ان هذه العودة الى المنزل الذى شـــهد بداية حياتها فى مصر كانت تثير مشاعرها على نحو غريب ٠٠ فها هى ذى اللولية ترسو مرة ثانيـة حيث كانت ترسو عنـدما كان بارودى على ظهرها ٠٠ وها هى ذى مسز ارماين تسمع مرة ثانية ـ من ضفة النيل القصية ـ أنشودة الله (الذكر) ، كما كان الشأن فى تلك الليلة التى سمعتها فيها للمرة الأولى ٠٠ ولكن ما أكثر ما حدث بين ذلك الحين والآن !٠٠ لقد أصبح المنزل القائم خلفها يضم رجلين ٠٠ الرجل الذى لم يكن يعرفهـا ولكنه يحبها ٠٠ والرجل الذى كان يعرفهـا حق المعرفة ويبغضها !٠٠ ولكن الرجل الذى كان يحبها ويريدها كما هى ، لم يكن موجودا !٠٠ وكانت تحس بأنها يجب أن تراه ثانية وسريعا ، وانها يجب أن تطلعه على ما حدث منذ ان أبحرت على اللولية ٠٠ ومع ذلك فهل تستطيع ، أو هل تجرؤ ، على أن تترك نيجل وحده مع ماير ايزاكسون ؟

★ ★ ★

• وعادت تتمشى ثانية فوق الرمال، وهى تروحوتغدو أمام خمائل الشجيرات المظلمة ٠٠ لقد مرت بها ـ عندما وقف ايزاكسون أمامها بغتة فى معبد ادفو ـ لحظة من الذعر الشامل ٠٠ لحظة لا يمكن ان تمر بحياة المرء الا مرة واحدة ٠٠ وتبعت ذلك فترة خوف ونضال ، بل ألم وعذاب !٠٠ ومع ذلك فلم تكن فى هذه الفترة لحظة تدانى تلك اللحظةمن الفزع ، لأنها كانت تواجه المعلوم ـ لا المجهول غير المتوقع بالمرة ـ وكانت تناضله وما زال من واجبها أن تناضله !٠٠ ولـكن لا بد لها من أن تحصل على كلمـة من بارودى ، وأن تنـال نظرة من بارودى ، فبغير هاتين ، كانت تحس بأنها قد تقدم ـ بل لا بد من أن تقدم ـ على خطوة طائشة أو يائسة ٠٠ فقد كانت على وشك أن تستنفد كل وسائلها او لعلها على وشك أن تفقد قواها !٠٠ ولقـد كانت أعنف لطمة تلقتهـا حتى الآن هى فرار الدكتور هارتلى من دائرة نفوذها ، فان ذلك الفرار قد أضعف ثقتها بنفسها ، وكان كارثة تنبىء فى أسى بكوارث أخرى مقبلة ٠٠ بل لقد أثار فى ذهنها شكا لا ريب فى أنه كان سخيفا !

هب ان نيجل استطاع أن يتحرر من عبوديته لها ؟! لو انه ذهب من حياتهـا نهائيا لما اكترثت البتة ، فما كانت تود ان يأسى من اجلها اذا تركته وهو على قيد الحياة ٠٠ على انه لن يلبث ان يغدو ـ بالنسبة لها ـ فى عداد الأموات ، اذا ما فارقته ٠٠ انه لم يكن لها أكثر من حمل ثقيل يجثم على صدرها ، ويحول بينها وبين كل ما خلقت من أجله ، وكل ما كانت تشتهيه !٠٠ على انها يجب ان تنفرد بالنفوذ والسلطان طالما بقيت معه ، فان أية ثغرة فى سلطانها كانت كفيلة بأن تمكن ايزاكسون منها بعد ان غدا يعيش عن كثب ٠٠ وكانت موقنة من

ان ايزاكسون لن يشفق عليها اذا وفق الى استمالة نيجل الى صفه !٠٠ فماذا تراها فاعلة ؟ أجل ، ماذا تراها فاعلة ؟٠٠ انها لتلعن فى قرارة نفسها ــ وبكل ما فى قلبها من قوة ــ تلك الناحية العملية الجامدة ، ذات الأنانية الصارخة ، فى خلق بارودى وطبيعته ! ولـكنها كانت تخشى أن تتحداها ، فهى تذكر كلماته جيدا : « ان علينا أن نفعل كل ما نريده فى هذه الدنيا دون ان يفقدنا ذلك شيئا ! » ٠٠ وكانت تتمثله ــ بل طالما تراءى لها ــ وهو يذهب الى باب الخيمة لينضم الى تلك الجارية المخضبة بالألوان والدهون الزاهية !

كانت على وشك ان تبلغ آخر حدود الاحتمال ، وقد أحست اليـوم بذلك بصورة قوية ٠٠ وكان حمزة قد تركهم خفية ، يوم عودتهم الى الفيللا ، دون كلمة واحدة !٠٠ ولقد سأل عنه نيجل مرة أو اثنتين ، فقالت له فى بادىء الأمر انه ذهب ليزور عائلته ، ثم قالت بعد ذلك انه ذهب ليقيم خارج الدار بعد أن أسيء اليـه ، اذ لم يعد يسمح له بخدمة سيده والعناية به ٠٠ « وهى أوامر الدكتور ايزاكسون كما تعلم ! » ٠٠ ولـكن نيجل لم يقل شيئا ، فأين ذهب حمزة ؟٠٠ لقد سألت مسز ارماين ابراهيم عنه ، ولكن ابراهيم أجاب ــ دون أن يبتسم كعادته ــ بأنه لا يعرف شيئا عنه ٠٠ ولقد راح الأمل ينمو فى قلب مسز ارماين ــ فى الوقت ذاته ــ فى أن حمزة قد ذهب ليبحث عن بارودى ، وانه قد لا يلبث أن يعود برسالة منه !٠٠ ومع ذلك ، فهل يمكن أن ينالها اى خير ، أو توافيها أية سعادة ، عن طريق المكارى المصلى ؟٠٠ لقد كانت دائما ــ وبوحى من غريزتها ــ تقرن بينه وبين القضاء والقدر ، وتربط بينه وبين الشر الذى تتلوه الأحزان والآلام ٠٠ وكانت النظرة التى تلوح فى عينيه ، عندما كان يسدد بصره اليها ، تبدو أشبه بوعيد صامت هادىء ٠٠ كانت فى قرارة نفسها مقتنعة كل الاقتناع بأنه يمقتها !

ووقفت مرة أخرى جامدة بلا حراك على حافة النهر ٠٠ كانت تسمع الملاحين وهم ما يزالون ينشدون على ظهر اللولية ، وتسمع نباح الكلاب الخافت ، ولعله آت من قرية الاقصر ٠ ورفعت وجهها تتطلع الى النجوم فى حركة آلية ، فذكرت كيف كان نيجل يحدق فى هذه النجوم فى اسـتغراق ، بينما كانت تريد أن ينصرف اليها بكليته !٠٠ ثم عادت تنظر طويلا ــ مرة أخرى ــ الى ذلك الضوء الأزرق الذى كان يتألق فوق قمة الصارى الأكبر للولية ٠٠ وفجأة ، سمعت حفيفا خلفها بين الشجيرات ، فاستدارت لتوها ، واذا بها ترى ابراهيم مقبلا نحوها من بين الظلمات المتكاثفة ٠٠ فقالت تسأله فى حدة : « ما الذى تفعله هنا ؟ » ٠٠ وكانت لهجتها خشنة ، اذ أفزعتها الضجة التى أثارها مقدمه ٠٠ فقال ابراهيم : « يحسن أن تعودى يا سيدتى ، فان هذا المكان منعزل تماما ، ولا يأتى أحد قط اليه ! »

ومشت نحو الضفة ، فوضع يده فى رفق تحت مرفقها ليسندها ٠٠ فلما ارتقيا الضفة قالت له : « أين حمزة يا ابراهيم ؟ » ٠ فتجهم وجهــه الشبيه بوجوه الصبية ، وقال : «لست ادرى يا سيدتى ٠٠ اننى لا اعرف أى شيء عن حمزة» ٠ وللمرة الاولى ، خطر لمسز ارماين ان ابراهيم وحمزة لم يعودا صديقين حميمين ٠٠ وفتحت شفتيها وهى تهم بان تستفسر عن علاقتهما ، ولكنها اطبقتهما ثانية دون ان تقول شيئا ٠ ومضيا معا الى المنزل فى صمت !

وعندما اطلت مسز ارماين من نافذتها فى صباح اليوم التالى ، كانت اللولية لا تزال راسية فى مكانها على الضفة المقابلة ، فتناولت منظارا مقربا وراحت تنظر خلاله لترى ان كانت هنـاك اية حركة بين الملاحين توحى بالاستعداد للرحيـل العاجل ٠٠ ولكن كل شيء كان هادئا على ظهر الدهبية ، وكان الملاحون يجلسون متربعين على السطح الأسفل فى هناءة الكسالى ٠٠ لا بد اذن ان يكون بارودى قادما عما قريب !

وعزمت على أن تتذرع بالصبر قليلا ، والا تلتمس الأعذار للسفر الى القاهرة ، فقد شعرت ـ مع حلول الصباح ، ودون ان تعرف لذلك سببا ـ بأن فى وسعها ان تكون أكثر احتمالا للظروف الحاضرة ٠ ولكن ، ما ان توالت الأيام واحدا بعد الآخر ، دون أن تبدو اية اشارة من بارودى ـ بينما ظلت اللولية قابعة عند الضفة الغربية ، والمصاريع الخشبية مغلقة على نوافذ القمرات بها ـ حتى عاود مسز ارماين قلقها الشديد وازداد اضطراب أعصابها ، ثم اخذ يستفحل ويتفاقم ساعة بعد أخرى ٠٠ ولم يكن ايزاكسون قد ذهب للاقامة بأحد الفنادق ، وانما اتخذ مقامه فى الفيللا ، كما لو كان هذا التصرف امرا طبيعيا ، واستمر يعيش معهما فيها ٠ ومن ثم فقد كانت مضطرة الى رؤيته دواما ، والى أن تسلك نحوه مسلكا مهذبا ، وتظهر له الرقة والدماثة ٠٠ وكان اشرافه على نيجل ورقابته له مستمرين فى غير كلال أو تعب ، كما أن القاعدة التى قررها ـ منذ ان بدا اقامته معهما ـ ظلت متبعة فى تشدد بالغ ، لا تلين ولا تسترخى ، فلم يكن يسمح لنيجل على الاطلاق بان يتناول أى شيء من أية يد غير يد الطبيب !

ولقد ظلت العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة مثيرة للعجب ، مشوبة بالحرج ٠٠ فعلى الرغم من ان ثقة نيجل بالطبيب كانت مطلقــة ، الا أنه لم يعد قط الى الفته السابقة الوثيقة مع صديقه !٠٠ وكان ايزاكسون ـ بادىء ذى بدء ـ يتوقع فى قرارة نفسه نموا متزايدا فى الثقة الشخصية بينهما ، فقد ظن انه كلما خفت حدة الضعف الجسمانى ، وبدأت القوة تدب شيئا فشيئا فى ذلك الجسد المعذب المتداعى ، فان نيجل سيتحول ـ وربما ٠٠ دون ان يفطن ـ فيغدو أوفر سعادة وصداقة ٠ ولكن ، بالرغم من ان الطبيب قد تلقى شكر المريض وعرفانه بالجميل ، الا ان الصديق لم يتلق قط مودة الصديق والفته !٠٠ كان نفوذ « بيللا دونا »

راسخا قوى الشكيمة ٠٠ كانت المرأة تقف دواما بين هذين الرجلين ، وتفرق بينهما ، حتى فى هذه الأيام التى أخذ أحدهما يخدم الآخر ويرعاه ، ويعيد اليه حياته ، بل ويضحى بكل شىء فى سبيله !٠٠ فليس من شك فى ان اقامة ايزاكسون الطويلة فى مصر كانت خليقة بأن تضر بمصالحه، اذ انه لم يكن يضيع على نفسه بسببها مالا كثيرا فى الحاضر فحسب ، وانما كان من المحتمل ـ ان لم يكن من المحقق ـ ان تمتد الخسارة الى المستقبل ٠٠ ولقد مرت به لحظات كان فيها يمعن التفكير فى هذا الأمر ، فيجزع له فى قرارة نفسه ٠٠ ولكن هذه اللحظات مرت سريعا ، وكان يجد جزاءه فيما أخذ المريض يكتسبه من قوة متزايدة ٠٠ ومع ذلك فقد كان من العسير أحيانا أن يطيق هذا التحفظ الصخرى الذى كان يجعل الحياة فى « فيللا اندرود » كئيبة قاتمة ٠٠ ولكنها كانت خليقة بان تغدو أشد عسرا وصعوبة لو لم يلجأ هو الآخر ، مثل بيللا دونا ، الى العمل فى الظلام ٠٠ فقد أخذ ـ منذ وصولهم الى الاقصر ـ يبحث وينقب عن الدافع لهذا العمل الذى أرشده اليه الهامه وعلمه !٠٠ وقد حانت أخيرا اللحظة التى توصل فيها اليه !٠٠ فقد راح حسن ـ بتحريض من ايزاكسون ـ يستغل سخط ابراهيم وحنقه من الطريقة التى عومل بها واحلال حمزة محله كل هذه المدة الطويلة ، فاستدرجه الى الافضاء له بحقيقة ما كانت تفعله مسز ارماين فى الأيام التى قضاها نيجل بعيدا عنها فى (الفيوم) !

ولقد أصاب علاج ايزاكسون لنيجل نجاحا باهرا ، فما ان بدأت الحرارة تشتد فى الوجه القبلى ، حتى كانت صحة المريض تتقدم يوما بعد يوم ٠ ورأت مسز ارماين الحياة تعود الى العينين اللتين كانتا من قبل تفيضان بالاعياء وبالملل من حياة ظللتها فجأة سحب الألم الكثيفة ٠٠ وبدأت أطراف المريض تتحرك فى مزيد من السهولة واليسر ، بعد أن ازداد تدفق الحيوية فى البدن السقيم ٠٠ ولم تعد الليالى تبدو طويلة مضنية بسبب عذاب الآلام الروماتزمية الحادة ، كما لم يعد الفم والحلق اللذان أضناهما الجفاف يتهافتان باستمرار على السوائل المبردة التى لم تكن تخفف من تحرقهما ٠٠ وصار فى استطاعة المريض أن يحتمل الضوء دون عناء أو ضيق ، وسكنت تماما آلام البطن الفظيعة التى كانت تجعله يتلوى ويكاد يشتهى الموت ٠٠ كذلك اختفى من الوجه تقريبا ذلك اللون البشع الذى كان يروع كل من يرى نيجل ، حتى أولئك الذين لم يروه الا عرضا ٠٠ ومع أنه كان لا يزال شديد النحول والشحوب ، الا ان ذلك لم يبد غريبا ٠٠ كان وجهه لا يزال يوحى بأنه قاسى مرضا خطيرا ، ولكنه لم يكن يوحى بالموت !٠٠ وهكذا أخذ نيجل يسير نحو الشفاء بخطى واسعة ٠٠ وكان من المحتمل ان يظل فترة طويلة قبل أن يستعيد قواه كاملة ، ولكنه كان قد تجاوز نطاق الخطر ٠٠ وقد تبين ذلك ذات يوم ، فقال لنفسه ، فى نوع من العجب الممزوج بالسرور ٠٠ وهو

سرور تقاسمته الرزانة والخفة ، خفة النفس التى تحس ثانية بلمسات الشباب !
وكان اليوم الذى تبين فيه ذلك ، هو اليوم الذى اهتدى فيه ايزاكسون الى الدافع الذى كان يبحث عنه في الظلام ٠٠ وكان هو أيضا اليوم الذى قالت فيه مسز ارماين لنفسها انها لم تعد تطيق المضى فى الاحتمال ، فلا بد لها من الذهاب الى القاهرة ، ولو ليومين أو ثلاثة ٠٠ واذا لم يكن بارودى هنـاك ، فيجب ان تذهب الى الاسكندرية للبحث عنه ، فان الرغبة المكبوتة ، والصبر الاضطرارى ، ووجود ماير ايزاكسون باستمرار ، واضطرارها الى التظاهر بالرقة واللياقة ، بل وبالشكر والعرفان ، ثم تلك الغيرة التى كانت تنمو كنمو العشب الغزير ، فى تربة من الجهل بالحقائق ٠٠ كل هذه جعلتها أخيرا لا تطيق الصبر ، وحثتها على أن تتعجل الأمور !٠٠ وكانت على يقين من انها لو بقيت فى الفيللا أكثر من ذلك ، فانهـا قد تشى بنفسها وتفشى سرها فى انفجـار فجائى !٠٠ وقد لزم ايزاكسون الصمت كل هذه المدة ، ازاء أسباب مرض زوجها ، حتى انها كانت أحيانا تخادع نفسها وتوحى اليها بانه لم يعرف حقيقة الأمر ، وبأنها كانت حمقاء فى افراطها فى الخوف منه الى هذا الحد !٠٠ ولقد جاهدت فى اقناع نفسها بهذه الفكرة حتى نجحت فى ذلك !

★ ★ ★

◆ وكانت اللولية لا تزال مستقرة عند الشاطىء الغربى للنيل ، ولكن مسز ارماين كانت ، حين تتأملها من الحديقة فى كل ليلة ، تجد نوافذها مظلمة ٠٠ وقد حاولت أن تتحرى الأمر من ابراهيم ، غير ان ابراهيم لم يعد ذلك الغلام الدائم الابتسام الذى كان عبدا لها ٠٠ كان يؤدى واجباته فى عناية ، وكان دائما جم الأدب كعهدها به ، ولـكنه اكتسى طابعا من الغموض والجمود والقلق ، بل ومن الحـزن والأسى ٠٠ فلما ذكرت بارودى ، قال لها : « لست أعرف شيئا يا سيدتى ! » ٠٠ ولكنها مضت تقول فى الحـاح : « حسنا ، ولكن الذين على ظهر اللولية ٠٠ الريس ، والملاحون ؟ » ٠٠ فقال : « ولا هم يعرفون شيئا ٠٠ ما من أحد هنـا يعرف شيئا على الاطلاق ! » ٠٠ واذ ذاك وطدت عزمها على الا تنتظر بعد ذلك ، وعلى ان تذهب لتكشف الحقيقة بنفسها ٠٠ وربما كانت اللمحة التى بدت فى عينى زوجها ، والتى نمت عن عودة الحياة اليه ، هى التى عجلت أخيرا بهذا القرار !

وخرجت الى الشرفة حيث كان مستلقيا فوق مقعد طويل ، تحت مظلة كبيرة ٠٠ وكان على أحد مسندى المقعد كتاب مفتوح ، ولكنه لم يكن يقرأ فيه ، وانما كان مضطجعا يتطلع نحو الحديقة ونحو التلال التى كانت تحف بصحراء ليبيا ٠٠ ولم يكن ايزاكسون معه ، اذ كان قد خرج من المنزل ، ولعله ذهب ليتمشى على

شاطىء النيل • واقتربت مسز ارماين تمشى على استحياء ، وفى تراخ وتكاسل •• وما لبثت أن جلست بالقرب من زوجها ، ثم قالت فى أرق أصواتها وأحلاها : « اتراك تحلم ؟ » • فهز رأسه وأجاب : « بل اننى استيقظ •• أستيقظ عائدا الى الحياة ! » •• فقالت : « انك تبدو اليوم أوفر قوة بالفعل ! » •• فقال فى لهفة : « أقوى من الأمس ؟ أتظنين ذلك ؟ هل تلاحظين ذلك يا روبى ؟ » •• وأجابت : « أجل » ، فقال : «هذا غريب حقا ! اننى •• اننى اليوم أعرف ان كل شىء سينتهى على ما يرام بالنسبة لى •• اننى اليوم أعرف اننى لن ألبث حتى أعود ذلك الرجل الذى كنته يوما من الأيام •• تصورى ذلك يا روبى ! » •• فقالت : « وأنا اليوم أوقن من ذلك يا نيجل •• وهذا هو السبب فى اننى قد شعرت أخيرا بأن فى وسعى أن أسألك شيئا »

ـ سلينى أى شىء •• أى شىء !•• اننى أود أن أفعل أى شىء يدخل السرور على نفسك بعد كل هذا الوقت الذى قضيته فى شقاء وعناء !

ـ انه رجاء صغير عادى ذلك الذى أتقدم به اليك •• كل ما أريد هو أن تسمح لى بأن أستقل قطار المساء وأذهب الى القاهرة

فاربد وجهه ، ومد يده ليتحسس يدها ، وهو يقول فى صوت يبدو فيه التردد والاحجام : « تريدين الذهاب •• تريدين الذهاب الى القاهرة ! » •• فاجابت فى اصرار رقيق : « أجل يا نيجل •• لقد كنت أتفقد ثيابى فى الأيام الأخيرة فوجدتها قد غدت أسمالا » •• فقال : « ولكن أثوابك •• » ، ولم تمهله حتى يتم عبارته ، بل قالت : « انها ليست الأثواب فحسب ، بل ان كل ملابسى غدت أسمالا ! ألا تسمح لى بالذهاب ليومين اثنين ، حتى أحضر بعض أشياء قليلة أرانى فى حاجة اليها حقا ؟•• اننى لن أنفق كثيرا من النقود » •• فهتف : « كأن هذا هو كل ما فى الأمر ! » •• وضغط يدها ، فكانت هذه الضغطة دليلا على عودة قواه • واستطرد قائلا : « انما الذى يهمنى هو اننى سأحرم منك ! »

ـ يومين فقط !•• ثم ان معك الدكتور ايزاكسون • والواقع اننى أردت الذهاب أثناء وجوده معنا ، حتى لا أتركك وحدك • وبهذه المناسبة يا نيجل ، ألا تستطيع أثناء غيابى أن تحاول معرفة ما ندين به اليه ؟•• لا بد أن يكون مبلغا طائلا !

فشرد بال نيجل فجأة ، ثم قال فى بطء : « ما فكرت فى ذلك البتة ! » •• فقالت : « لأنك كنت مريضا •• ولكنى طالما فكرت فيه ، وقد آن ان تفكر فيه أنت ! » •• فقال : « نعم •• انه أنقذ حياتى ، ولن أستطيع ما حييت أن أفيه حقه ! » •• ولكنها قالت تهون عليه : « آه ! بل انك تستطيع ذلك حقا ، فالأطباء انما يفعلون ذلك لقاء مبالغ معلومة ، كما تعرف » •• فتململ فى مقعده ، وألقى عليها نظرة قلقة وهو يقول أخيرا : « اننى أود •• بل كم وددت ان تكونى

وايزاكسون خير صديقين » • فهتفت فى مرارة : « أبعد كل ما أخبرتك به ؟! » • فقال : « اننى أقدر ذلك •• ولكنه أنقذ حياتى ! » •• وكان جوابها : « هناك أشياء لا تستطيع المرأة أن تنساها قط يا نيجل •• واننى ـ بطبيعة الحال ـ أحس بشكر عميق لماير ايزاكسون الطبيب •• أما ماير ايزاكسون الرجل ، فلا أستطيع قط أن أكون له صديقة •• اننى مضطرة الى أن أقول لك الحقيقة دائما ، حتى ولو آلمتك ! » • فتمتم : « أجل •• أجل ! »

ـ حاول أن تعرف أثناء غيابى بالقاهرة بكم ندين له ، فانى أعتقد أنه لن يبقى معنا الى الأبد ، لا سيما بعد أن أصبحت تشعر بتحسن كبير !

ـ كلا •• لا بد أنه يريد الرحيل ، طبعا !

وكان يتكلم فى تردد ، فانه ـ بتلك الأثرة البريئة التى تنتاب المريض ـ كان قد اعتبر وجود ايزاكسون أمرا مفروغا منه الى حد بعيد •• وها هى ذى تجعله يشعر بخطل حدسه ، فلا بد له من أن يفهم الموقف كله على حقيقته الآن• كم كان يعتمد على ايزاكسون !•• ونظر الى زوجته •• وكم كان يعتمد عليها ، هى الأخرى !•• انه ليعاوده ذلك الشعور بالضعف ، وكأنه طفل صغير •• ولكن هذين الانسانين اللذين كان يتوكأ عليهما ، كانا يتبادلان عداء مستحكما •• لم يكن عداء سافرا صريحا ، وانما كان عداء كامنا خفيا !•• ولم يكن يدرى على التحقيق كيف نشأ هذا العداء ، ولا الى أى حد بلغ ، ولكن روبى طالما أخبرته بأشياء كثيرة عن ماير ايزاكسون •• وكان يعلم ان ايزاكسون يسىء الظن بها ، وتملؤه الشكوك والريب نحوها •• بل انه ليحس بأنه لا يزال يضمر لها هذا الشعور • وقالت : « هل أستطيع الذهاب ، اذن ؟ » •• ولم يستطع ان يجد سببا لمنعها من السفر ، فقد كان يفكر فى خدمتها الطويلة له ••

ـ طبعا يا عزيزتى ، اذهبى !•• ولكنك لن تسافرى الليلة طبعا ؟

ـ بل الليلة اذا سمحت لى •• ولن آخذ سوى حقيبة واحدة •• وكلما عجلت بالسفر ، أسرعت فى العودة !

فتساءل : « بعد يومين ؟ » •• وكان جوابها : « بعد يومين » • وعاد يسألها : « وأين ستنزلين ؟ » • فقالت : « فى شبرد » •• فقال : « اننى لا أرتاح الى ذهابك منفردة •• وشد ما وددت أن تكون لديك وصيفة ! » •• واذ ذاك قالت : « هأنتذا قد حدست » •• وأجفل قائلا : « ماذا ؟ » •• فأجابت : « ما وددت من قبل أن أقوله لك ، ولكنى سأفعل الآن : هل تسمح لى بأن تكون لى وصيفة ، مرة ثانية ؟ » •• فهتف : « أهذا ما تريدينه ، أن تحضرى وصيفة ؟ » •• فابتسمت ، وبدا عليها الخجل والحياء وهى تقول : « لقد استطعت ان أدبر كل شىء بلا وصيفة ، ولكن •• » • ومنذ تلك اللحظة ، أصبح هو الذى يلح عليها ، ويرجوها ، لكى تسافر !

وعاد ايزاكسون من الخارج ليجد كل شيء مرتبا ، متفقا عليه ٠٠ فلما أخبر بذلك ، كان كل ما قاله : « أظنه أمرا رائعا حقا أن تستطيع مسز ارماين البقاء بغير وصيفة ، طوال هذه المدة ! » ٠٠ ثم أوى الى حجرته واعتكف بداخلها فترة طويلة ، قائلا ان لديه خطابات يريد أن يكتبها ٠٠ ومع ذلك فانه لم يرسل الى مكتب البريد أى خطاب فى ذلك اليوم !٠٠ وكانت مسز ارماين - فى تلك الأثناء - عاكفة على اعداد حقيبتها بمساعدة أحد الخدم النوبيين ، مع انها لم تضع فيها سوى بضعة أشياء قليلة ٠٠ وكانت - وهى مقدمة أخيرا على عمل حاسم محدد - تعجب من استطاعتها احتمال الانتظار كل هذه المدة الطويلة ٠٠ كما ان الحركة المتصلة فى اعداد التدابير الخاصة بهذه الرحلة ، أثارت فيها انفعالا شديدا خفيا كاد يكون محموما !٠٠ وراحت تقول لنفسها ، وهى تروح وتغدو فى حجرةالزينة الخاصة بها : « ليتنى أذهب بغير رجعة ! ليتنى أملك ألا أرى زوجى وايزاكسون ثانية ! » ٠٠ واذ خطرت لها هذه الفكرة ، تمهلت قليلا ، ثم وقفت فى مكانها بلا حراك !

هب ان الأمر كان كذلك حقا !٠٠ هب انها وجدت بارودى ، وأخبرته بكل ما حدث ، وحدثته عن شقائها وآلامها ، وتوسلت اليه ان يسمح لها بالبقاء معه ! ٠٠ انه قد يكون رحيما شفوقا ، وقد يخضع مرة واحدة لرغباتها ، بدلا من أن يفرض عليها أوامره !٠٠ قد تثور من جراء ذلك فضيحة مدوية ، ولكن ماذا يهمها ؟٠٠ انها لم تعد تكترث بالرأى العام ، ولم تعد تريد الآن الا أن تفر من كل ما يذكرها بأوروبا ، وبحياتها الماضية ، وأن تغوص فى أعماق الشرق ، فتضيع فيه الى الأبد !٠٠ لم يكن المستقبل البعيد ليهمها فى شيء ، بل ان كل ما أصبحت تفكر فيه - وكل ما أصبحت معنية به - هو أن تعمد الى الفرار فى الحال ، وأن تنال ذلك الشيء الواحد الذى كانت تريده ٠٠ الشيء الذى كان كل كيانها يهتف فى طلبه بغير انقطاع !٠٠ لقد أصبحت تتسلط عليها فكرة واحدة، أشبه بالوسواس ٠٠ فكرة لا يمكن أن تتسلط الا على امرأة فى مثل طباعها ، وفى هذه السن الحرجة ٠٠ انها قد لا تعود ثانية على الاطلاق !٠٠ قد يكون هذا آخر أيامها مع نيجل !

وفى حجرته القريبة من حجرتها ، كان ايزاكسون يجلس فى الشرفة ، ويدخن النرجيلة ، وهو يفكر فى ذلك أيضا !٠٠ ولم يكن واثقا كل الثقة ، ولكنه كان ميالا الى الاعتقاد بأن سفر « بيللا دونا » هذا قد يكون قرارا نهائيا ، فهل ينبغى أن يسمح لها بالرحيل ؟٠٠ وراح يفكر فى ذلك ويقلب الأمر على شتى الوجوه ، بدلا من كتابة تلك الخطابات التى زعمها ٠٠ لقد كان يرى من واجبه ألا يسمح لها بالذهاب ٠٠ اذ انه لو قدر لكل شيء أن يعلن ويعرف ، فسوف يقول الناس والعالم ، ان الواجب كان يقتضيه ان يبادر الى العمل بمجرد اكتشافه ذلك الشيء

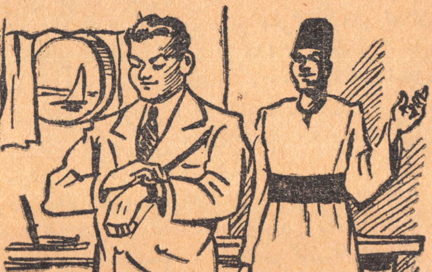
٠٠ كان من واجبه ان يعمل ولا يفلت الفرصة !٠٠ ولكن الواقع انه لم يكن ليهتم بالعالم ، وانما كان يفكر فى صديقه ، وكيف يعمل لخيره ومصلحته ٠ وما ان رفع أصابعه عن النرجيلة ، حتى كان قد قرر أن يسمح لبيللا دونا بالرحيل !

وفى ذلك المساء - قبيل الغروب - وقفت مسز ارماين تقبل زوجها وتودعه ، وهى تسائل نفسها عما اذا كانت ستراه ثانية يوما ما ٠٠ ثم مدت يدها الى ماير ايزاكسون ، وهى تقول فى مرح : « وداعا يا دكتور ٠٠ أرجو أن تعنى به عناية عظيمة ! » ٠٠ فتناول ايزاكسون يدها ٠ وبالرغم من القرار الذى اتخذه بعد الظهر ، فانه عاد - فى تلك اللحظة الدقيقة - يسائل نفسه : « هل أسمح لها بالرحيل ؟ » ٠٠ بل انه ساءل نفسه : « هل أدعها تذهب ؟ » ٠ وكان أثر هذا السؤال الأخير فى نفسه من القوة بحيث راح يشدد الضغط على يدها - عن غير وعى - وكأنه ينتوى أن يحتجزها ويمنعها عن الرحيل ٠ وسرعان ما لاحت فى عينيها تلك النظرة التى رآها فيهما عندما وجدت نفسها أمامه وجها لوجه فى هيكل معبد ادفو ٠٠ نظرة تنم عن الفزع الهائل !

- هل تعدين بالبقاء يومين فقط فى القاهرة يا روبى ؟

كان صوت نيجل قد انبعث بهذه العبارة ٠٠ ثم عاد يردد : « هل تعدين ؟ » ٠ فأجابت ، وقد استقرت عيناها على ايزاكسون : « أعدك صادقة يا نيجل ! » ٠٠ فخلى ايزاكسون عن يدها ٠٠وعندئذ تنهدت ثم انطلقت خارجة لا تلوى على شىء !

الفصل الثانى والاربعون



◆ جلب رحيل مسز ارماين شعورا عميقا بالارتياح لدى ايزاكسون ٠٠ فما أن تأمل ساعته وأدرك ان القطار قد غادر محطة الأقصر ، ثم جاء ابراهيم فاخبر

نيجل بأن « سيدتى » قد حظيت بمكان مريح فى القطار ، حتى أحس ايزاكسون بسرور كذلك الذى يداخل المرء حين يطرح عن عاتقيه حمـل ثقيل ، أو حين يطلق سراحه - على غير توقع - من سجن قاس ، كان حبيسا به لفترة طويلة .. فلقد فطن اذ ذاك الى مدى ما كان يعانيه من ضيق وعناء لاضطراره الى صحبة مسز ارماين . ولقد آلمه ان يشهد أسى نيجل الواضح لسفر زوجته ، وشوقه الجلى الى عودتها .. وزاده ألما ان شعر بالعطف على نيجل ، وعلى مشاعره هذه !

ولم يكن نيجل ينشد هذا العطف من ايزاكسون ، فان ذلك التحفظ القوى القائم بين الرجلين كان يتدخل بينهما .. كان ايزاكسون يجهـد فى اخفاء سروره ، بينما كان نيجل يجهد فى اخفاء شعوره بالوحدة المفاجئة !.. ولكن الظاهر ان ايزاكسون مثل دوره على نحو أفضل من رفيقه ، أو لعل قوةملاحظته كانت أكثر حدة من قوة ملاحظة نيجل .. فبينما كان يرى بوضوح مؤلم حالة صديقه العقلية - فى تلك الليلة الاولى من وحدتهما الثنائية - كان نيجل لايكاد يحدس حالة صديقه العقليـة الا قليلا . وكان عشـاؤهما مشوبا بالوحشة والكآبة ، اذ ان رحيل مسز ارماين ضاعف من شدة التحفظ الذى كان يقف بينهما ، بدلا من أن يحطمه !.. ولكن سرور ايزاكسون الداخلى - على الرغم من حرصه على اخفائه - ما لبث أن بدا محسوسا ، كما لابد للسرور أن يفعل.. وما لبث نيجل أن بدأ يلين قليلا ، دون أن يعرف سبب ذلك تماما . وحول ايزاكسون مجرى الحديث ، الذى كان يتعثر حينا ويتوقف حينا آخر ، الى حالة نيجل الصحية ، وعندئذ قال نيجل ، كما سبق ان قال لزوجته : « اننى اليوم أشعر كما لو كنت أستيقظ عائدا الى الحيـاة » . فقال الطبيب : « اليوم فقط ؟ » . وكان جواب نيجل : « آه .. لقد كنت أشعر بالتحسن يوما بعد يوم .. أما اليوم فاننى أشبه بباب عسير الحركة ، قدر له ان ينـدفع مفتوحا مرة واحدة » . فقال ايزاكسون : « ان هذا لا يدهشنى ، بل ان هذهالطفرات المفاجئة غالبا ما تكون من علامات النقاهة » .. وهنا قال نيجل ، وقد بدا عليه القلق فجأة : « ولكن .. ولكن ، ألا تتلوها نكسات ؟ »

- أحيانا ، وعلى الأخص فى حالات الحمى .. ولكننا فى حالة مثل حالتك لا ينبغى أن نتوقع شيئا من هذا القبيل !

وكأنما أوحت هذه الكلمات الاخيرة الى نيجل بمجرى جديد للتفكير .. فبعد أن جلس صامتا لدقيقتين أو ثلاث - وهو يلوح رصينا أو بالأحرى مشـغول البال - قال : « وبهذه المناسبة ، ما الذى كان قد أصابنى تماما ؟ ما الذى كان لدى حقا من أنواع المرض ؟.. لقد كنت طوال هذه المدة مشغولا بمرضى ، فلم اسألك عن ذلك قط ؟ » . وحاول ان يتظاهر بالمرح وهو ينطق بهـذه الكلمات الاخيرة .. ثم أضاف : « أم ترانى قد سألتك ؟ » .. فقال ايزاكسون

فى صوت يوحى بأن طبيعته كانت فى تلك اللحظة لا تميل الى الافاضة فى الحديث : « كلا ٠٠ لا أظنك سألتنى ! »

ـ هل كان ذلك كله من أثر ضربة الشمس ؟٠٠ ولكنى ٠٠ ولكنى واثق من انه لم يكن كذلك !

ـ كلا ٠٠ اننى لا أعزو ذلك كله الى ضربة شمس ، وأظن ان هارتلى لم يكن مصيبا تماما فى هذه الناحية

فتساءل نيجل وقد وجد موضوعا للحديث مأمون العواقب: « اذن ، فماذا ؟ » ٠٠ وكان من الواضح انه أصبح يشعر بالمزيد من الحرية ، أو لعله أراد ان يكفر عن جموده السابق وقلة اهتمامه بأسباب مرضه ، بأن يبدى اهتماما حقيقيا شديدا بها الآن ٠٠ وسأله ايزاكسون : « لقد كنت متوعكا قبل أن تذهب للحفر والتنقيب بغير قبعة ، أليس كذلك ؟ » ٠ فأجاب : « بلى ٠٠ منذ تلك المرة التى سبحت فيها فى النيل بالقرب من قوص ٠٠ اذ يبدو أن كل شىء قد بدأ حوالى ذلك الوقت ٠٠ ولكن هل تعلم ـ ولو اننى لم أقل ذلك لأحد قط ـ اننى لم أكن على ما يرام تماما عندما نزلت الى النيل ٠٠ واعتقد أن ذلك كان سببا فى ان أصبت بالبرد ؟ » ٠٠ فقال ايزاكسون : « هذا جد محتمل ! » ٠٠ ومضى نيجل فى حديثه : « لقد كنت فى أكمل صحة عندما بدأنا رحلتنا ٠٠ أعنى عندما انتقلنا الى اللولية ٠ وكأنما كان فى الامر شىء يرتبط بهذه السفينة ، فاننى أعتقد الآن أن حالتى بدأت فى الانحدار السريع بمجرد أن صعدنا فوقها ٠٠ غير أن الامر جاء تدريجيا بحيث اننى لم ألاحظ شيئا فى البداية ٠ وقد زاد استحمامى فى النيل من توعكى ، ثم جاء التنقيب عن الآثار فأجهز على تماما »

وأحضر الخادم آخر أصناف العشاء الخفيف ، فوضعه على المائدة ٠ وصب ايزاكسون قليلا من ماء فيشى فى كوبه ، ثم بدأ يعصر فوقه نصف ليمونة ، فراح نيجل يرقب هذه العملية التى كانت تجرى أمامه فى عناية واهتمام بالغين ٠ وأخيرا قال : « هلا أخبرتنى عما كان بى ؟ » ٠ فقال الطبيب : « كانت لديك مجموعة من الاعراض المعقدة ! » ٠٠ فعاد الآخر يسأله : « أتعنى ان من المستحيل أن تذكر اسما يشملها كلها ؟ » ٠ وأخذ ايزاكسون يعصر آخر قطرة من الليمون فى الكوب ، ثم تناول منشفته ، وراح يجفف أصابعه الطويلة السمراء فى تمهل وعناية ٠٠ ثم قال أخيرا ـ مستشهدا بقول معروف : « وما قيمة الاسم ؟ » ٠ وراح ينظر عبر المائدة الى نيجل ، بينما كانت الأسئلة تكاد تضىء فى عينيه ٠ وقال نيجل : « هل تعنى انك لا تريد أن تخبرنى بذلك الاسم ؟ » ٠٠ وبدا ان فضوله بلغ درجة الاصرار والالحاح ، وكأنما أوقظ بغتة ، أو كأنما داخله شعور خفى !

ـ لست أقول ذلك ، ولكننا معشر الاطباء نلجأ الى الحرص غالبا .. اننا لا نحب أن نتورط فى شىء !

ـ قد يجوز هذا بالنسبة لهارتلى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة اليك !

وتمهل لحظة قبل أن يستطرد قائلا فى صراحة : « انك تراوغنى ! » . فتناول ايزاكسون قدح الماء والليمون وجرع ما به ، ثم وضعه على المائدة .. فعاد نيجل يقول : « انك تراوغنى .. فلماذا ؟ » .. فتساءل الطبيب : « أليس يكفيك انك تتقدم نحو الشفاء ؟ وأى خير يعود عليك من معرفة ماكنت تشكو منه ؟ » . فأجاب : « جميل ! ولكن أليس من الطبيعى أن أرغب فى معرفته ؟ لماذا ينبغى أن يكون هناك أى سر غامض بشأنه ؟ » . وتوقف عن الكلام ، ثم مال الى الأمام قليلا وهو يستند بذراعه الى المائدة ، وقال : « هل عرفت زوجتى ما هو ؟ » . فأجاب ايزاكسون : « اننى لم أخبرها به قط ! ». فعاد يسأله : « ولكن هل تراها تعرفه ؟ » .. وكان الصوت الذى ألقى هذا السؤال يكاد ينضح بالشك والارتياب ، كما أن العينين اللتين نظرتا الى ايزاكسون كانتا مليئتين بالشك والارتياب كذلك !

ـ وكيف يمكن لى أن أعلم ؟ لقد أخبرتنى بأنها تظنها ضربة شمس !

ـ هذا هو الهراء الذى كان هارتلى يهذى به ، فهو قد بث هذه الفكرة فى رأسها .. ولكنها منذ حضورك ، قد تبينت دون شك ان الامر اكثر من ذلك

فقال الطبيب : « أظن ذلك » .. وانتظر نيجل عسى أن يسمع المزيد ، ولكن ايزاكسون أخلد الى الصمت . وانتهى العشاء ، فنهض نيجل وسار نحو حجرة الجلوس وهو يمشى بخطى ثابتة ، وان كانت مشيته قد خلت من تلك الخفة الوثابة التى تنم عن اكتمال القوة والنشاط .. وكان يقول : « هل نجلس فى الشرفة ؟ » .. فقال ايزاكسون : « اذا أنت أحببت ، وعلى ان ترتدى معطفا .. وسأحضره لك ! » .. فهتف نيجل : « أوه ، لا تكلف نفسك ! ». ولكن الطبيب كان قد مضى . وما لبث ان عاد بعد لحظة يحمل المعطف وبطانية خفيفة .. وبعد ان ساعد نيجل على ارتداء المعطف ، أمسك بذراعه يقوده الى المقعد ، حتى اذا ما جلس فوقه نشر البطانية على ركبتيه .. فقال نيجل فى عذوبة : « ما أعظم طيبتك معى يا ايزاكسون ! انك شديد الرفق بى ، واننى لأشكر لك هذا الصنيع » .. فهتف الطبيب : « عفوا ! » . ولكن نيجل استطرد قائلا : « لقد كنا اليوم بالذات نتكلم فى هذا الأمر ، أنا وروبى .. كانت تقول انه لا ينبغى لنا أن نستغل لطفك ، وانه لا ينبغى لنا أن نحتجزك هنا الآن بعد اجتيازى مرحلة الخطر ! »

« انها تريد أن تتخلص منى ! اذن فهى راجعة لا محالة ! » .. أومضت هذه الفكرة فى ذهن ايزاكسون ، فقلبت اقتناعه السابق رأسا على عقب ،ذلك

الاقتناع الذى كان يسيطر على مسلكه أثناء العشاء الى حد ما ٠٠ ولكنه قال فى تراخ : « آه !٠٠ اننى لست فى عجلة من أمرى ٠٠ كما انى أريد ان أعيد لك قواك كاملة ! » ، فهتف نيجل : « حسنا ، ولكن مرضاك فى لندن ؟ انك تعلم اننى كنت من الشعور بشدة المرض بحيث انقلبت أنانيا فظيعا ، لا افكر الا فى نفسى فحسب !٠٠ لقد جعلت من زوجتى جارية مستعبدة ، وهاندا أمعن فى ابقائك بعيدا عن لندن كل هذه المدة » ٠٠ وكان صوته يزداد حرارة كلما مضى فى كلامه ٠٠ كان تحفظه يوشك أن يذوب ، وقد أوشك الصديق ان يتحرك فى قلب المريض !٠٠ كان غياب زوجته قد بدل شعوره نحو ايزاكسون، ولو أنه - قطعا - لم يتبين هذه الحقيقة ، فان عداوتها الصامتة الدائمة كانت أشبه بغاز يتسرب خفية فيؤثر فى زوجها دون أن يشعر ! أما الآن وقد بعدت عنه ، فانه كان يرتد تدريجيا بوحى من فطرته الى تلك الصلة القديمة التى كانت تربطه بصديقه ، وان لم يصل اليها بعد !٠٠ كان يتوق الى الخلاص من أية عوائق تقف بينهما ، ولا سبيل الى بلوغ ذلك الا بأن يجعل ايزاكسون يفهم روبى على حقيقتها ، كما فهمها هو !٠٠ ولو استطاع فقط أن يتم هذه الخطوة قبل عودتها !٠٠ واتته هذه الفكرة ، فأشاعت الدفء فى صوته ، والحرارة فى مسلكه ٠٠ وفتح ايزاكسون فمه لينطق ببعض عبارات المجاملة والاحتجاج ، ولكن نيجل استطرد يقول : « ثم هل تعلم من الذى جعلنى افتح عينى على هذه الأنانية من جانبى ، وأتبين مبلغ ايثارك العظيم لى ببقائك معى كل هذه المدة ؟ »

ولم يجب ايزاكسون بكلمة ٠٠ بينما استأنف نيجل حديثه : « انها زوجتى ! لقد فتحت عينى على هذه الحقائق ، ولولاها لما فكرت البتة فى فداحة الخسائر التى حاقت بك ٠٠ لا الخسائر المادية فحسب ، ولكن ٠٠٠ » ٠ وأحس ايزاكسون كأنما لدغه شىء سام ، فقال : « أرجو ان لا تتكلم عن أى شىء من هذا القبيل ! » ٠ فقال نيجل : « اننى لأعلم انى لا أستطيع البتة مكافأتك على كل ما أسديته لنا » ٠ فهتف ايزاكسون : « بل فى وسعك ان تفعل »٠٠ وكان صوت الطبيب حادا قاطعا ، حتى لقد اجفل منه نيجل وهتف يقول : « فى وسعنا أن نفعل ؟ وكيف ؟ » ٠٠ فقال ايزاكسون ، وهو يشدد الضغط على الكلمة الاخيرة : « فى وسعك أنت ! » ٠٠ فتساءل نيجل : « وكيف ؟ »

- أولا ، بعدم التحدث معى فى شأن تلك ٠٠ تلك « الأتعاب » المعتادة التى يقدمها المرضى للأطباء !

- ولكن كيف تنتظر منى ان أقبل كل هذه الخدمة المتفانية دون أن أقدم لك أى جزاء لقاءها ؟

ـ ربما كان فى وسعك ان تقدم لى هذا الجزء .. وهو الجزء الوحيد الذى اريده !

فتساءل نيجل : « ولكن ما هـو ؟ » . واجاب الطبيب : « انني .. لن اخبرك به الليلة ! » .. فتسـاءل نيجل : « ومتى تخبرني به اذن ؟ » .. فتردد ايزاكسون . كان وجهه يتأجج بتعبيرات شتى .. وكان أشبه برجـل أثيرت اشجانه فى عنف وقوة .. رجـل يوشك ان ينفجر !.. وعاد يقول : « لن اخبرك به الليلة ! » .. فقال نيجل : « ولكن يجب أن تخبرنى » . وهنا قال ايزاكسون : « فى الوقت المناسب !.. لقد سألتنى على العشاء عما كان بك ، وأى مرض كنت تعانى .. ولعلك لاحظت اننى لم أعن باخبارك وقتئذ . حسنا ، سوف أخبرك عنه قبـل أن تتخلص منى ! » . فتسـاءل نيجل : « أتتخلص منك ؟! » .. فأجاب الطبيب : « أجل .. اجل ، لا تحسبنى غفلت عن فهم ما كنت تحاول أن تقوله لى الليلة .. لقد اردت ان توحى الى بلباقة ، بأن موعد رحيلى قد حان ، بعد ان أتممت مهمتى ! »

واحس نيجل بالم موجع من هذه الكلمات ، فقال : « ما قصدت شيئا من هذا القبيل .. كل ما فى الامر ان زوجتى نبهتنى الى الخسائر الفادحة التى تلحق بك من جراء بقائك هنا فى مثل هذا الوقت ! » .. فقال ايزاكسون : « هناك شيء لابد لى من ان أجعلك تفهمه يا ارماين قبل ان آتركك .. وعندما أقوله لك ، فسوف يكون فى وسعك أن تمنحنى الجزاء الوحيـد الذى اريده منك ، والذى احتاج اليه بكل قواى ! » .. فقال نيجل : « ولكن ، الا تريد ان تخبرنى به الآن ؟ » .. غير ان الطبيب اجاب : « ليس الليلة .. فلا داعى هناك للعجلة » .. ثم نهض واقفا وهـو يستطرد : « متى تتوقع عودة مسز ارماين ؟ » .. فأجاب نيجل : « بعد اربع ليال ، فانها تحتاج الى يومين كاملين فى القاهرة ، ثم انهـا تقضى ليلتين فى السفر ! » . فقـال ايزاكسون : « ساخبرك قبل ان تعود ! » .. واستدار ايزاكسون على أثر هذه الكلمات ، ثم مضى يسير بخطى واسعة نحو الحديقة ، حتى اختفى فى ظلماتها

وما ان غدا وحده هناك ، حتى راح يلوم نفسه على حدة طبعه واندفاعه ، ومع ذلك فما من ريب فى أنهما كانا يقودانه الى الطريق الصحيحة .. فلقد أيقظته كلمات نيجل هذه على الحقيقة البسيطة ، وهى أن هذه الرابطة يجب ان تفصم عراها .. وان تفصم فورا !.. لقد رأى الآن أنه كان يتردد من يوم لآخر ، ويرجىء اتخاذ أى قرار نهائى ، ولكن مسز ارماين كانت أقوى منه .. لقد كانت هى السبب ـ بما أوحته الى نيجل ـ فى أن عزمه قد استقر أخيرا على ما ينبغى عمله ، وكان ذلك فى الواقع مستمدا من حزمها هى !.. فلما أدرك ذلك ، راح يعجب فى قرارة نفسه بتلك المرأة التى كان يبغضها حقا !..

فان عملها فى الظلام هو الذى يدفعه الآن الى العمل فى الضوء ، اذ بات هذا أمرا لا مفر منه ولا سبيل الى اتقائه .. ذلك لأنه كان يجد ما يبرر تردده ، عندما كان يعتقد ان رحيل مسز ارماين الى القاهرة قد يكون فرارا من زوجها .. فما كان ثمة داع لأن يزيد من عــذاب نيجل ، مادامت « بيللا دونا » ستختفى نهائيا من حياته .. بل قد يكون من الخير لنيجل ان يفقدها دون ان يشعر بأنه فقد معها كل المثل العليا .. أما وهى راجعة ، وأما وقد صــار حتما على ايزاكسون ـ ولا مفر من رحيله قريبا على أية حال ـ فلابد له من أن يكشف الحقيقة لصديقه ، مهما يكن الثمن !

وفيما كان يذرع الحديقة بخطاه الواسعة ، أخذ يحاول أن يحشد قواه جميعا لمواجهة أصعب الواجبات التى فرضتها عليه الحياة حتى الآن ، وأشدها قسوة وهولا . فلما عاد الى الشرفة لم يجد نيجل فيها ، اذ كان قد أوى الى فراشه !

★ ★ ★

ومر اليوم التالى دون أن يتبادل الرجلان كلمة واحــدة فى موضوع الليلة الماضية ، وانما راحا يطرقان شتى الأحاديث العادية الفارغة .. ولكن تلك السحابة من التحفظ المتبادل عادت مرة أخرى تظللهمــا وتجعل صلتهما قلقة لا تستقر على حال

وبزغ فجر يوم جديد . وكانت مسز ارماين قد غابت ليلتين حتى الآن ، فاذا هى نفذت الخطة التى أعلنتها لهما ، فسوف تبرح القــاهرة راجعة الى الأقصر فى مساء اليوم التالى . ولم يكن قد وصل منها اى خطاب .. وكان السؤال الذى لا يفتأ يتردد فى ذهن ايزاكسون : « هل تعود حقا ؟ » .. ذلك لأنه اذا تكلم ـ ثم لم تعد قط ـ فانما يكون قد طعن صديقه فى قلبه على غير جدوى .. أما اذا عادت دون ان يكون قد تكلم ؟.. وهكذا أصبح ايزاكسون فريسة للشكوك ونهبا للخواطر المتضاربة !.. ولم يعد يعرف ماذا يفعــل ، ولكن ألم يكن ينبعث من أعماقه صوت ملح متصل الهمسات لا يفتأ يردد شيئا واحدا ، أشبه بأمواج المحيط الطويلة المتتابعة ؟

لقد كان يشعر ـ فى بعض الأحيان ـ بهذا الصوت ، فيحاول جاهــدا ألا ينصت اليه ، وألا يكترث له .. هذا الصوت الذى ينبعث من أعماق رجــل ليخبره بان فى المجاهرة بالحقيقة قوة وصلابة ، وبان الضعف لم ينتج الخير يوما من الايام ، ولن ينتجه قط حتى نهاية كل شىء !.. ولكن هناك حقائق معينة تبدو المجاهرة بها ضربا من القسوة المفرطة .. وكيف يمكن للمرء أن يقسو على رجل يعود الى الحياة بخطوات تكاد تكون مترددة ؟.. الا ليت شىء يحدث فيحسم الأمر .. أى شىء .. أى حادث خارجى !.. ولكن ايزاكسون

لم يستطع أن يحدد لنفسه ما عسى أن يكون هذا الشيء ٠٠ لقد كان من الامور الصبيانية فى الواقع أن يعلل المرء نفسه بالأمل فى « أى شيء » بغير تحديد ، وانه ليعرف ذلك ٠٠ ومع ذلك ـ وعلى نحو غير معقول ـ مضى ايزاكسون يرجو ويؤمل

وكان من الغريب حقا أن يقع هذا الحادث ٠٠ وفى اليوم نفسه !٠٠ فقد تلقى نيجل بعد الظهر برقية حملها اليه ابراهيم فى الشرفة ، حيث كان الرجلان يجلسان معا ، ففضها نيجل فى لهفة لم يحاول اخفاءها ٠٠ وما لبث أن قال : « انها منها ٠٠ سترحل الليلة ، فتكون هنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد ٠ لقد كانت تتعجل العودة ، فهى لم تقض فى القاهرة الا تلك الليلة الواحدة فقط ! » ٠٠ وكان ينظر الى ايزاكسون ، فرأى البغتة تبدو فى وجهه ، فسأله : « هل تعانى شيئا ؟ » ٠ فأجاب الطبيب : « كلا ٠٠ لماذا ؟ » ٠٠ فقال نيجل : « انك لا تبدو فى حالتك الطبيعية تماما » ٠٠ولكن ايزاكسون قال : « بل اننى على خير ما يرام ! » ٠٠ فتمتم نيجل : « آه ! »

وعلى أثر ذلك تعلل ايزاكسون ببعض الأعذار ، وغادر الشرفة ٠٠ كان قد اتخذ قراره النهائى ، ولم يعد ثمة صراع فى قرارة نفسه ٠٠ ولكنه كان منقبض القلب ، محزونا ، يشعر باضطراب لاذع رهيب ، وهو يتمثل صديقه وكأنه رجل حكم عليه بالاعدام ولم يخطر بموعد تنفيذ هذا الحكم !٠٠ كان التوجس يتساقط فوقه كما ينهمر المطر المثلج فى الطقس الراكد الثقيل ! وسار فى خطوات آلية نحو ضفة النهر ، فاذا الماء يبدو كصفحة بللورية تعلوها هنا وهناك فقاعات تتلاقى عندها التيارات المتقابلة ٠ وكان النهر يلوح أضيق من المعتاد ، ولعل ذلك من أثر بعض الظواهر الجوية ، فكأنما كانت الضفة المقابلة أقل بعدا من عهده بها ٠٠ ولم يحدث قط من قبل ان اخذ ايزاكسون بصفاء مصر السحرى الى هذا الحد ، بل انه فى غمار شقائه هذا ـ وهو شقاء كان يؤثر عليه جسمانيا ـ لم يملك الا أن يقف ساكنا ذاهلا مشدوها ، وقد استبد به العجب والاعجاب !٠٠ ألا كم يبدو كل شيء قريبا ! وكم تبدو دقائق كل شيء واضحة مروعة فى هذه الأمسية الفاتنة !

وما لبثت عيناه أن تحولتا ناحية اللولية ٠٠ كانت هى الاخرى تبدو قريبة الى حد غريب ، واضحة جلية الى حد غريب أيضا !٠٠ ولقد راح يرقبها فى بادىء الامر لهذا السبب وحده ، ولكنه سرعان ما لاحظ ضوضاء غير عادية فوق ظهرها ٠٠ كان الرجال يتحركون بسرعة فوقها ـ على السطح الأسفل والسطح الأعلى معا ـ ويروحون ويغدون بغير انقطاع ٠ وكان ثمة رجل يتسلق الصارى الطويل ، بينما كان آخر يهبط من فوق سياج الشرفة الى المؤخرة٠٠ فماذا كانت تعنيه هذه الحركة الدائبة ؟٠٠ لا ريب ان سيد اللولية كان على

وشك الحضور .. ذلك الرجل الذى رآه ايزاكسون يسوق الجياد الروسية ، ثم رآه فى أسمال بالية ، يجلس متربعا فى ظلمات « غرزة » الحشيش فى أحشاء القاهرة .. وها هى ذى « بيللا دونا » تعود مهرعة بعد ليلة واحدة فقط فى القاهرة !

ونسى ايزاكسون ذلك الجمال الأخاذ الذى يصحب انحدار الشمس نحو المغيب ، فلم تمض دقائق حتى عاد الى المنزل .. ولكنه لم يكد يفرغ من تناول العشاء حتى ترك نيجل جالسا فى الشرفة وعاد الى ضفة النهر ثانية .. واذا اللولية تتألق بالاضواء من مقدمتها حتى المؤخرة .. كانت الانوار تسطع من كل نافذة فى قمراتها ، بينما كان الملاحون يمعنون فى صخبهم ولهوهم وقد ضموا الى دقات « الدربكة » أنغام المزامير . وكان بعضهم يرقص أيضا ، فقد رأى ايزاكسون - على صفحة من الضوء القوى لمنعكس على السطح الأسفل - أشباحا سوداء أخذت تتكشف له أحيانا وهى تتحرك حركات غريبة وحشية ، كأنها ظلال المجانين !.. ولبث ايزاكسون بضع دقائق ينصت ويشاهد هذه المناظر ، ولكنه ما لبث أن فكر فى قطار كان ينهب الطريق قادما الى الأقصر .. وعندئذ أسرع يجتاز الحديقة عائدا الى الشرفة ، والى نيجل ! .. كان لابد له من ان ينصت الى الصوت العميق - الذى كان يهمس فى أعماقه - وان يطيعه ، فلم يعد يستطيع المقاومة أكثر من ذلك !

★ ★ ★

◆ وقال نيجل وهو يراه قادما : « لقد دبت الحياة فى اللولية الليلة ! » . فأجاب الطبيب : « نعم » .. وظل واقفا ريثما أشعل سيجارا ، ثم جلس بالقرب من صديقه . وكان الضوء المنبعث من حجرة الجلوس يغمرهما من فتحة الباب خلفهما ، كما كانت أنغام المزامير الحادة ودقات « الدربكة » المكتومة تصل اليهما عبر النهر . وما لبث أن أضاف : « ان الانوار تتألق فى السفينة كلها » . فقال نيجل : « أهى كذلك ؟.. ربما كان بارودى قد حضر الى الجنوب » .. واذ ذاك قال ايزاكسون : « يبدو أن الامر كذلك »

ووضع ساقا فوق الأخرى ، ثم ما لبث أن أنزلها .. انه لم يشعر بنفسه قط من قبل فى مثل هذا الجبن والاستخذاء .. كان يعرف ما ينبغى عليه عمله ، وكان يعرف أنه لابد أن يفعله قبل ان يعود ونيجل الى الحجرة التى كانا يجلسان فى شرفتها .. ومع ذلك فانه لم يستطع أن يقسر نفسه على البدء بالحديث .. كان يقول لنفسه : « عندما أفرغ من تدخين هذا السيجار ! »

وقال نيجل : « انك لم تر بارودى قط .. فهو من أظرف الاشخاص الذين وقع عليهم بصرى يوما من الأيام .. انه قوى كالثور ، فيما أعتقد ! وهو

واسع الثراء ، كما انه في رايي شخص على جانب كبير من الطيبة ! ولكنى لا اظن زوجتى تميل اليه ، فهو ليس بالرجل الخليق باعجاب النساء ! » ٠٠ فساله ايزاكسون : « وما الذى يجعلك تظن ذلك ؟ » ٠٠ واجاب نيجـل : « لست أدرى ٠٠ ربما كان مسلكه ! ثم انه لا يبدو معنيا بهن على الاطلاق ، ولكنا لم نره سوى مرتين ، بعد ان زاملنا على الباخرة عند قدومنا الى مصر٠٠ فقد تناول العشاء هنا مرة ، وفى اليوم التالى زرنا اللولية معه ، ثم لم تقع عليه أنظارنا منذ ذلك الحين ٠٠ فقد ذهب جنوبا ، بينما ذهبنا نحن الى الشمال ٠٠ الى الفيوم ! »

ـ ولكن ٠٠ ولكنك ذهبت الى الفيوم وحدك ، أليس كذلك ؟٠٠ اعنى فى بادىء الأمر

ـ آه ، نعم !٠٠ فى صباح اليوم التالى لابحار بارودى الى (ارمنت)

ـ وهل مكثت مسز ارماين وحدها هنا بعض الوقت ؟

ـ نعم ٠٠ ولكن لفترة قصيرة ، كنت أعد لها خلالها شيئا من وسائل الراحة هناك ٠٠ ولكننا مع ذلك لم نكن نعيش فى ترف ٠ ومهما يكن من امر فانها لم تهتم لذلك !

ـ ألم تكن ٠٠ ألا تعتقد ان مسز ارماين ربما كانت قد عانت شيئا من الملل والسأم خلال هذا الوقت ؟

ـ اى وقت ؟٠٠ هل تعنى فى الفيوم ؟

ـ بل أعنى بينما كنت أنت بعيدا فى الفيوم

ـ أظن ذلك ٠٠ لابد أن يكون كذلك !٠٠ ولكن لماذا ؟

فقال الطبيب : « حسـنا » ، وطوح بسيجاره بعيدا ، فقـال نيجل : « لم لم تكمل تدخين سيجارك ؟ » ٠٠ وكان من الواضح أنه بدأ يدهش لكلمات صديقه ومسلـكه ٠ وقال ايزاكسون : « كلا ، لا أريد أن أدخن الليلة ، وانما أريد أن أتحدث ٠٠ بل لا بد لى من ان أتحدث اليك ٠ هل تذكر حديثنا ليلة ان سافرت مسز ارماين ؟ » ٠ فسأله نيجل : « عن مرضى ؟ » ٠ واذ قال الطبيب : « نعم » ٠٠ أردف نيجل : « اننى أذكره طبعا ! » ٠ وهنـا قال ايزاكسون : « لقد قلت لك اذ ذاك اننى لن أقبل منك ذلك الجزاء النقدى المعتاد ، لقاء أى شىء استطعت ان أفعله من أجلك ٠٠ وقلت لك ان فى وسعك أن تكافئنى بطريقة أخرى » ٠٠ فقاطعه نيجل متسائلا : « وما هذه الطريقة ؟ » ٠٠ فأجاب : « هذا ما سأحاول أن أخبرك به ، ولكن ٠٠ ولكنه ليس أمرا يسيرا ٠٠ اننى أريد منك أن تفهم ٠٠ أريد منك أن تفهم ٠٠ »

وخيم الصمت لحظة ، ثم قال نيجل : « ولكن ، ماذا ؟٠٠ ما الذى تريد منى ان افهمه ؟ » ٠٠ فسأله الطبيب : « ارماين ٠٠ هل تثق تماما فى صداقتى لك ؟ » ٠

وكان جواب الآخر : « نعم » . فعاد يسأله : « وهل تثق فى انها صداقة خالية من الغـرض تماما ؟ » .. فهتف نيجل : « انني موقن من ذلك » .. وهنا قال ايزاكسون : « ومع ذلك فقد عاملتني طوال هذا الوقت فى كثير من التحفظ كما لو انك كنت تعـرفني مجرد معرفة سطحية » .. فبدا الارتبـاك على نيجل وهو يقول : « انني لم أقصد .. بل انني أشعر نحوك بشكر عميق .. شكر عميق .. لقد أنقذت حياتي ! » .. فقال ايزاكسون فى جد وخطورة : « لقد فعلت ذلك حقا .. ولو لم أتبعك فى النهر جنوبا ، لانتهى بك الأمر الى الموت حتما ! »

ـ انك .. لقد قلت انك سوف تخبرني عما كان بي

ـ وسوف أفعل ! ـ وماذا كان ذلك ؟

ـ لم يكن للسباحة التى قمت بها فى (قوص) علاقة بما أصابك .. أما عن ضربة الشمس ، فانك لم تصب بها على الاطلاق ! لقد بدأت تشعر بالتوعك بعد بدء رحلتك النيلية مباشرة ، أليس كذلك ؟

فقال نيجل : « بلى !.. هذا حق ! » . واذ ذاك قال ايزاكسون : « أفلم يخطر لك البتة ان من المستغرب جدا ان شابا مثلك فى عنفوان صحته ـ اعتاد العيش فى الخلاء فى جو من أجمل أجواء العالم ـ يصاب فجأة بمثل هذا المرض الخفى ؟ » . فتساءل نيجل : « الخفى ؟! » .. فتساءل الطبيب بدوره : «أو لم يكن كذلك ؟» . فقال نيجل : « لقد كان عجيبا .. وكنت أفكر فى ذلك دائما ! » .. ثم مال فى مقعده قليلا الى الأمام ، وراح يتفرس فى ايزاكسون قائلا : « ماذا كانت حقيقة مرضي ؟ » .. فقال ايزاكسـون ببطء ، وهو يبذل جهدا شديدا : « لقـد كنت تعاني من تسمم بالرصاص ! »

فازداد نيجل ميلا الى الامام ، وراح يحرك يديه فوق مسندي مقعده الطويل ، وهو يهتف : « رصاص ؟.. تسمم بالرصاص ؟! » .. فأجاب الطبيب : « نعم » .. وعاد نيجل يتساءل : «هل كنت.. هل تقول انني كنت مصابا بالتسمم ؟» . فأجاب الطبيب : « بل كنت تسمم يوما بعد يوم .. كنت تسمم ببطء شـديد خلال فترة طويلة من الزمن ! » .. فهتف نيجل : « كنت أتلقى سما ؟! » .. وأخذ نيجل يردد العبارة فى تثاقل ، وفيما يشبه البلاهة .. وظل لحظة مشدوها مبهور الأنفاس ، بينما قال ايزاكسون : « ولو لم أصل فى الوقت المناسب لكنت قد قتلت بغير شك ! » .. فهتف صديقه : « قتلت ؟! ولكن .. ولكن من الذى يحتمل ان يرغب فى قتلي بحق السماء ؟ »

وظل ايزاكسـون صامتا .. ولـكن نيجل عاد يردد : « من الذى يحتمل ان يرغب فى قتلي ؟ » .. وكان صوته فى هذه المرة مليئا بالعنف، فقال ايزاكسون : « لقد كان على ظهر اللولبية شخص أراد موتك ولا بد ! » . فهتف : «ولكن من ؟ من ؟ النوبيون ؟ ابراهيم ؟ حمزة ؟ » . ولم يجب ايزاكسون ، بل ما كان بوسعه

ان يجيب فى تلك اللحظة ٠٠ فاستطرد نيجل : « لقد كنت أعاملهم معاملة طيبة ، وكنت أدفع لهم أجورا طيبة ٠ كان لديهم كل ما يمكن أن يرغبوا فيه ، وكانوا يعيشون فى ميسرة ٠ انهم كانوا يظهرون تعلقا بنا ، بل لقد كانوا يتعلقون بنا حقا ! اننى أعلم انهم كانوا كذلك ! » ٠٠ فقال ايزاكسون : « اننى لم أقل انهم لم يكونوا كذلك »

ـ ما الذى تعنيه اذن ؟ لم يكن يوجد معى على اللولية شخص آخر !

ـ بلى ٠٠ كان يوجد !

ـ كان يوجد شخص آخر ؟٠٠ اذن فأنا لم أره قط !٠٠ هل تريد أن تقول انه كان هناك شخص آخر مختفيا فى مكان ما على اللولية ؟٠٠ ما هذا الذى تقوله يا ايزاكسون ؟

وكان انفعاله قد ازداد اشتعالا ، كما اشتد غضبه ٠٠ فقال الطبيب : « اسمع يا ارماين ، هاك الجزء الذى أريده منك ٠٠ اننى لا أريد أن أرحل وأدعك هنا فى مصر ٠٠ أريد أن آخذك معى بعيدا ! » ٠ فتساءل الآخر فى عجب : « تأخذنى بعيدا ؟ الى أين ؟ » ٠ وكان جواب ايزاكسون : « الى أى مكان ٠٠ الى انجلترا ! » فقال : « اننا ذاهبان الى انجلترا بمجرد ان تعود لى قواى تماما ٠٠ ولكنك لم تخبرنى ٠٠ أنت تقول اننى كنت مسموما ، وأنا أريد أن أعرف من الذى كان يدس لى السم ! » ٠٠ ولم يتلق جوابا قط ، فعاد يقول : « لعلك لا تعرف ! أو هل تعرف ؟ » ٠ فقام ايزاكسون من مجلسه ، اذ شعر بأنه لن يستطيع الاستمرار فى الكلام وهو جالس ٠٠ ثم قال : « اذا كنت تريد أن تكافئنى ، فدعنى آخذك معى فى هدوء ٠٠ اننى طبيب ، ولن تساور أحد أية ظنون حول ذلك ٠٠ ولا حاجة لأن أقول شيئا آخر ! »

ـ تأخذنى بعيدا ؟ ولكننى قد شفيت الآن تقريبا ، ولا يمكن أن يكون ثمة خطر بعد ذلك !

ـ اذا أتيت معى ، فلن يكون !

ـ ولكنك تنسى اننى لست وحدى ٠٠ ولا بد من ان أستشير زوجتى !

فقال ايزاكسون : « هذا ما لا أريد منك أن تفعله ! » ٠٠ وهتف نيجل فى دهشة : « لا تريد ؟٠٠ أتعنى أن أذهب معك بدون ٠٠؟ » ٠ فقال ايزاكسون مؤكدا : « أعنى ٠٠ بدون مسز ارماين » ٠٠ فعاد نيجل يتساءل ماخوذا : « أأترك زوجتى ؟٠٠ أأترك روبى ؟٠٠ أأهجرها بعد كل الذى فعلته من أجلى ؟ » ٠٠ فأجاب الطبيب فى اصرار : « نعم ! » ٠ واذ ذاك تساءل نيجل : « ولماذا ؟ » ٠ ولم يحر ايزاكسون جوابا ، فراح نيجل يحدق فيه ـ فى صمت ـ مدة خيل الى ايزاكسون انها دقائق طويلة ٠ وما لبث أن تورد وجهه ، ثم احتقن بالدماء المتصاعدة حتى جبهته ٠٠ كان وجها يبدو منتفخا ، وكان شيئا يندفع من داخله

محاولا الخروج من مسامه ٠٠ ثم غاضت الدماء ، تاركة خلفها شحوبا قاتما ، كما غاصت العينان فى محجريهما ٠٠ وبدأ يقول متلعثما : « هل ٠٠ هل تجرؤ على ٠٠ أن تظن ٠٠ هل تجرأ على ٠٠ أن تقول ٠٠؟ »

– اننى أقول ان عليك أن تأتى معى بعيدا عن مسز ارماين ٠٠ ولا تسألنى السبب !

– أنت ٠٠ أنت أيها الكاذب !٠٠ أيها الكاذب اللعين !

وكان يتكلم فى بطء ، وفى صوت خافت متهدج أجش ٠٠ ومضى يقول : « أما انك تبغضها ، فهذا ما أعرفه !٠٠ لقد أخبرتنى‌هى به !٠٠ولكن أن تجرؤ على ٠٠ على ٠٠ » ٠ وانقطع صوته ، فكف عن الكلام ٠ وما لبث ان مال فى مقعده الى الأمام ، وأشار بيده وهو يقول : « اذهب !٠٠ اخرج من هنا !٠٠ لو اننى ٠٠ لو اننى كنت بصحتى ٠٠ لأخرجتك قسرا ! » ٠٠ ولكن ايزاكسون لم يتحرك ، ولا هو أحس بالغضب ٠٠ بل انه لم يشعر الا بشفقة بالغة نحو ذلك الرجل الذى لم يكن يستطيع أن يرى ، ولم يكن يستطيع أن يفهم حقيقة تلك النفس التى ظل يعاشرها طويلا وفى ألفة ومودة كاملتين كما كان يصور له [illegible] بصيرته !٠٠ وكان ايزاكسون يرى فى مثل هذا العمى وفى مثل هذا الجهل ، امرا مفجعا مروعا ٠٠ ولكنه كان يرى فى ذلك جمالا ، وتدميرا لجمال شىء بغيض مروع !٠٠ الا انه ما لبث ان قال فى هدوء : « اذا لم يكن بد من ذهابى ، فينبغى أن تسمعنى أولا » ٠٠ فصاح‌نيجل : «لن أسمعك٠٠ لن أسمع منك كلمةواحدة!»

وارتفعت يده ثانية تشير نحو الباب، فقال ايزاكسون : « اننى أنقذت حياتك، فلا بد من ان تسمعنى » ٠٠ ودون ان ينتظر اذنا من نيجل ، مضى يقول فى هدوء بالغ ، وفى بساطة عظيمة ، كل ما كان ينبغى أن يقوله !٠٠ ولكنه ، حتى فى هذه اللحظة الدقيقة ، لم يخبره بكل شىء ، بل كتم عنه زيارة مسز تشبستو له فى عيادته ، وكشفها عن دخيلتها هناك ٠٠ ولم يذكر له شيئا عن بارودى ٠٠ ففى تلك اللحظة الحرجة ، راحت تتصارع فى نفسه شخصيتان : الرجل ذو التربية الانجليزية ، واليهودى الشرقى ٠ ولم يلبث الأخير ان هزم وولى الأدبار ، فتغلب الخلق الانجليزى فى نفس ايزاكسون !٠٠ على انه وصف زيارتيه لفندق سافوى ، وكيف ذهب فى المرة الأخيرة وقد عقد عزمه على أن يرجو مسز تشبستو بألا تذهب الى مصر ، وألا تربط نفسها بصديقه ٠٠ كيف بدأ حديثه ، وكيف أقنعته سخريتها الباردة الصلبة المجردة من كل لين ، بعبث وساطته ٠٠ ثم انثنى الى هذه الأيام الأخيرة ، بعد ان تم زواجهما ورحيلهما ، فذكر ما خالجه عندما تلقى خطاب صديقه الذى وصف فيه سعادته وصحته الرائعة ، وعندما تلقى – بعد ذلك بقليل – الخطاب الآخر من السيدة المريضة التى ذكرت عن نيجل « لونه الغريب غير المألوف » ٠٠ وروى ايزاكسون كيف وضع هذين الخطابين

جنبا الى جنب فى لندن ، وراح يقارن بينهما ، وكيف جاء الى مصر - رغم ارادته - تحت دفع الهام قوى أوحى اليه بأن صديقه معرض للخطر والمتاعب ٠٠ وكيف حمله هذا الالهام نفسه الى تكتم وصوله ٠٠ ثم كيف ازدادت مخاوفه لما سمعه عرضا من أحد معارفه ، عند التقائه به على شرفة فندق شبرد !

وهكذا مضى فى حكايته السريعة الموجزة ، حتى وصل الى اللقاء فى معبد حتحو ٠٠ ولكنه - وقد بلغ هذه النقطة فى قصته - لم يعد يكتم عن نيجل شيئا من التفاصيل الدقيقة ، فوصف له فزع مسز ارماين الواضح عند ظهوره أمامها ، واكاذيبها ، واغفالها ذكر أى شيء عن مرض زوجها ، الى ان تبينت أنه - أى ايزاكسون - قد سمع بذلك فى الاقصر ٠٠ ثم ما كان من ادعائها ان مرضه الخطير لم يكن الا توعكا بسيطا نشأ عن الحزن لوفاة اللورد هارويتش ٠٠ومحاولتها منع ايزاكسون من الحضور الى اللولية ، والرقعة التى أرسلتها له ، وسيره على ضفة النهر فى ظلمة الليل حتى وصل الى اللولية ، ثم استراقه السمع على حديثهما ، وكيف دفعته الكلمات التى سمعها الى الالحاح فى طلب رؤية نيجل ٠٠ وحديثه الطويل مع مسز ارماين فى حجرة الاستقبال ، وكيف استطاع أن يقتحم طريقه بالحيلة الى الجناح الخلفى للدهبية ٠٠ وتحدث - بعد ذلك - عن النزاع الذى نشب بينه وبين الدكتور هارتلى ، الذى كان واقعا تحت تأثير مسز ارماين ٠٠ وأخيرا حدثه عن النصر النهائى الذى فاز به ٠٠ كيف ؟٠٠ بالتهديد ٠٠ التهديد الذى لا يمكن أن يخيف الا امرأة مذنبة !٠٠ وختم حديثه قائلا : « لقد قلت لمسز ارماين اننى اما أن أتولى العناية بحالتك ، واما أن أتصل بسلطات البوليس ، وعندئذ - عندئذ فقط - استسلمت ، وتركتنى أحضر الى الدهبية لأعالجك ، وأعيدك الى الحياة ! »

وساد الصمت لحظة ٠ ثم هتف نيجل يسأله فى تحد قوى يفيض بالمرارة : « ولكن كيف تسنى لك أن تعرف ؟٠٠ حتى لو كان ذلك صحيحا ، فكيف كان يمكن أن تعرفه ؟ » ٠٠ فقال ايزاكسون : « لم أكن أعرف عن يقين ٠٠ انما هى شكوك ساورتنى ، ولكنى فى سبيل انقاذك جازفت باطلاق السهم فأصاب المرمى ! لقد كان مرضك بسبب تناولك - خلال فترة طويلة من الوقت - جرعات صغيرة من أحد مركبات الرصاص ، وهو مسحوق ناعم لا تكاد تحس به اذا لمسته ، ولا يمكن تمييزه عن ذرات الرمل الدقيقة التى يحملها الهواء من الصحراء !٠٠ وقد كانت مسز ارماين تقوم - أو تجعل غيرها يقوم - بدس هذا السم لك ! »

- كذبت ! كذبت ! يا لك من كاذب !

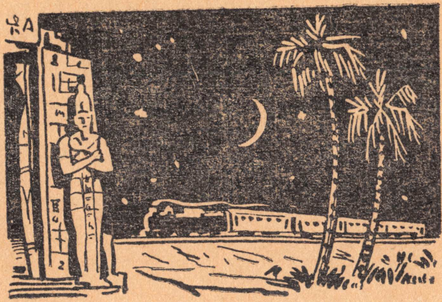
- هل كانت تقدم لك الطعام بنفسها ؟٠٠ هل كانت تعد لك القهوة ؟

فهم نيجل بالنهوض من مقعده ، وقد تقلص جسمه فى قوة ضارية ٠٠ وراح يهتف فى نوع من الصراخ والعويل المكتوم : « انصرف !٠٠ اخرج ! » ٠ و غدا

وجهه ناصع البياض فى اصفرار ٠٠ كما كان فمه لا يكف عن التقلص ، ثم أردف : « والله لأخرجنك بنفسى ! » ٠٠ واعتمد على مسندى المقعد ، ثم هب واقفا ، وتقدم من ايزاكسون ، فقال هذا : « سأخرج ، ولكنى سأترك لك هذا » ٠٠ وأخرج من جيبه الخطاب الذى أرسلته له مسز ارماين فى الليلة الأولى ، فوضعه على المنضدة ، ثم استدار فى عجلة ، وانطلق الى ظلمات الحديقة ٠٠ وقبل أن يغيب المنزل عن ناظريه ، تلفت خلفه ، فرأى نيجل وقد غاص فى مقعده ، فى وضع يدل على الانهيار التام !

وكانت تنبعث ، من ضفة النيل الغربية ، أنغام المزمار الحادة الخافتة ، ودقات « الدربكة » المكتومة ، وغناء النوبيين الأخن ٠٠ بينما بدت أضواء اللولية كصف من العيون النارية المتقدة ، تحدق فى الفضاء ، عبر النيل !

الفصل الثالث والاربعون



◆ استقلت مسز ارماين قطار الليل فى الأقصر ، وسمعت صفير القاطرة ، ثم أحست بالمركبة تتحرك فى بطء - أولا - ثم تزداد سرعة باطراد . ورات منازل القرى تختفى واحدا اثر الآخر ، حتى لم تعد ترى سوى الحقول الطويلة وسلاسل الجبال ، ذات اليمين وذات اليسار ، وقد بدت واضحة ، ظاهرة رغم المساء .. واذ ذاك تملكتها نوبة من الفرح الطاغى الجامح ، كشخص أحدق به خطر عظيم ثم وجد نفسه فجأة وعلى غير انتظار ، ينجو بنفسه ويفر الى شاطىء الأمان !.. لقد غدت وحدها أخيرا ، لا تراقبها عيون الحب والحنان ، ولا عيون الشك والوعيد أو - بالأحرى - البغض والكراهية .. كيف استطاعت أن تحتمل ذلك العناء كل هذه المدة الطويلة ؟.. انها لتعجب من ذلك حقا ، ولا تكاد تدرى كيف وجدت الجلد على ذلك !.. وبالرغم من أنهـا أحست بفرح وابتهاج ، الا أنها أحست أيضا بعنف الجهد الهائل الذى كانت تكابده !.. كانت تعرف أن أعصـابها قد تهدمت ، وان السعادة وحـدها هى الكفيلة بشفائها ، فلابد لها من أن تنال الحياة التى تريدها ، بل ولابد من أن تنالها الآن ، والا قضى عليها نهائيا .. فهل تراها فى طريق بلوغ هذه الحياة ؟.. وهنا اختفت الفرحة ، وعاد الخوف يضيق الخناق عليها !.. فحتى لو أنهـا وجدت بارودى فى القاهرة ، فأى نوع من الاستقبال سوف تلقاه على يديه ؟

وأخرجت من حقيبتها - بأصابع قلقة ملهوفة - ذلك الصندوق المذهب الذى اهداها اياه ، ثم فتحت غطاءه .. ولكنها بعد أن فتحته ، لم تجرؤ على النظر

الى صورتها فى المرآة ، فردت الغطاء فى حدة وأعادت الصندوق الى الحقيبة ، ثم اضطجعت فى ركن مقصورتها .. وراحت تقول لنفسها : « لن أستسلم للقلق الليلة ، ولن أزعج نفسى بالتفكير فى شىء .. لابد لى الليلة من ان أنام .. لابد لى من أن أبدو فى خير صورة غدا ، فقد يتوقف كل شىء الآن على الحالة التى أبدو فيها عندما أصل الى القاهرة ! » .. وأغمضت عينيها وهى عازمة على الاستسلام للهدوء والسكينة .. وما لبثت أن مضت الى فراشها ، وفى عزمها أن تنام !

ولكنها لم تنم طبعا ، رغم انها راحت تجاهد ، فى هدوء ـ ثم فى حنق ـ فى سبيل اقتناص النوم .. فقد أبى ان يواتيها طواعية !.. ومضت ساعات الظلام الطويلة شيئا فشيئا ، وبدأ ضوء اليوم الجديد ـ الشاحب ـ يزحف الى داخل المركبة المتأرجحة ، فجلست المرأة المجهدة الكليلة التى قضت ليلتها تتقلب من جنب الى جنب فى حركات مهتاجة كانت تحاول ان تخففها ما استطاعت . وأسندت ظهرها الى الوسادة « المهروسة » ، وقد أدركت ان من المحتمل أن يكون وجهها قد اتخذ الآن سمة جديدة ، فازداد بروز عظام وجنتيها ، وتهدلت زوايا فمها بشكل يدعو للرثاء .. وفيما كانت تجلس فى فراشها ، وقد رفعت ركبتها وأرخت يديها ، أحست بأنها اليوم أشد قبحا مما كانت فى اليوم السابق . فلما وصل القطار الى القاهرة ، أسدلت الخمار على وجهها ثم هبطت ، فاستقلت مركبة الى فندق « شبرد » .. وكانت تعرف عنوانا تستطيع ان تجد بارودى فيه ـ اذا ما كان فى القاهرة ـ فما كادت تدخل الى حجرتها ، حتى جلست وكتبت اليه بالفرنسية تقول :

« فندق شبرد ـ صباح الثلاثاء

« حضرت الى القاهرة لقضاء يوم أتسوق فيه .. فهل أستطيع ان أراك ؟.. اذا كان الأمر كذلك ، فأرجو أن تخبرنى أين وفى أية ساعة ـ روبى ارماين »

ثم اغلقت الخطاب ، وطلبت الى الخادم أن يبعث به رسولا لتسليمه فى الحال.. كما أمرت أن ترسل اليها القهوة وبعض الشطائر بعد نصف ساعة ،وأسرعت تأخذ حماما ساخنا .. وكم تمنت وقتئذ لو كانت معها وصيفة بارعة !.. كان مما يبعث على الجنون ألا تجد مساعدة من أحد ، الا من وصيفة سويسرية بدينة ، تابعة للفندق .. وتبينت فى فزع مروع ، أنها كانت شاحبة اللون ، بادية الاعياء والارهاق .. بل انها كادت ان لا تعرف وجهها فى المرآة ، فبدلا من أن تبدو أصغر سنا من حقيقتها ، خيل اليها أنها اصبحت تبدو أكبر سنا مما هى .. بل أكبر بكثير !.. كان منظرها صدمة عنيفة لها !..ولكنها كانت قد قضت ليلتها فى السفر ، ولم تستطع النوم .. وكل امرأة لابد من

ان تبدو أكبر سنا بعد مثل هذا السفر الليلى !٠٠ ولسوف تغدو على مايرام بعد أن تنال قسطا من الراحة ٠ وكانت عند وصولها قد حجزت حجرة للجلوس ملحقة بمخدعها ، فمضت اليها وتناولت افطارها ، وطلبت بعض الصحف ، ثم اضطجعت على الأريكة لتقرأها ٠٠ وكانت تتوقع عودة الرسول الذى أوفدته الى بارودى فى كل لحظة ٠ وعندما حضر أخيرا ، قفزت من مضجعها فوق الأريكة تسأله : « هل أحضرت رسالة ؟ » ٠ فقال الرسول انه لم يحضر شيئا ، اذ لم يكن السيد موجودا !

وسألته : « وهل تركت الرسالة ؟ » ٠ فأجاب : « نعم يا سيدتى » ٠ واذ ذاك قالت له : « تستطيع ان تعود اليه ثانية بعد قليل ٠٠ اذهب ثانية فى الساعة الثانية عشرة ، لترى ان كان السيد قد حضر ، اذ أنه قد يعود لتناول الغداء ٠٠ وعليك أن تنتظر حتى موعد الغداء ، فانى أريد ردا على رسالتى ! » ٠ وذهب الرجل ٠ ومضى الصباح بطيئا متثاقلا ، ثم جاءت الساعة الثانية عشرة ، ولكن الرسول لم يعد٠ فطلبت مسز ارماين الغداء فى حجرتها، ولكنها لم تستطع أن تأكل شيئا يذكر ، فطلبت قهوة ثقيلة ٠ وبينما كانت ترشف قدحها الثانى ، سمعت طرقا على الباب ، فصاحت : « ادخل » ٠٠ وظهر الرسول ثانية ! ٠٠ فهتفت به : « حسنا ؟٠٠ حسنا ؟ » ٠٠ فتطلع الرجل نحوها وكأنما أفزعه صوتها ، ثم قال : « ان السيد لم يحضر الى منزله ياسيدتى »

ـ ومتى يحضر اليه ؟

ـ لست أدرى يا سيدتى

ـ أهو فى القاهرة ؟

ـ لا أعرف يا سيدتى

ـ وما الذى تعرفه ؟٠٠ ما الفائدة منك ، وما الغرض من وجودك هنا ؟!٠٠ اذهب ثانية فى الحال ، وابحث عما اذا كان السيد فى القاهرة أم لا ؟

فمضى الرسول مسرعا وهو يتلفت خلفه !٠٠ وكانت مسز ارماين تهتز غضبا ، وقد شعرت بميل جارف الى أن تهجم على الرجل وتضربه جزاء غبائه، كما يضرب العبيد أحيانا من سادتهم حين يرتكبون خطأ ٠٠ فلما انفردت بنفسها ، أطلقت صيحتين أو ثلاثا تفرج بها عن الألم المكبوت ٠ وكان جسدها يتلظى بنوع من الحرارة الجافة القاسية ٠٠ كانت تحس بالنيران تلفحها من كل جانب !٠٠ و مضت ساعة ، وأخيرا سمعت طرقا على الباب من جديد ٠٠ ودخل الرسول فقال متجهما : « لقد كان السيد فى القاهرة أمس ياسيدتى » ٠٠ فصاحت مغضبة : « ان ما أريد ان أعرفه هو : هل السيد موجود فى القاهرة الآن ؟ » ٠٠ فقال : « انهم لا يعرفون يا سيدتى ! » ٠٠ فصاحت :

« لا يعرفون ؟! لابد أن يعرفوا ! » • فقال : « انهم لا يعرفون يا سيدتى » ، ولكنها صاحت : « ولكنى أقول لك انهم لابد أن يعرفوا ! » •• فعاد يقول : « انهم لا يعرفون يا سيدتى »

فقفزت من فوق الأريكة وهى تحس بالدماء تتصاعد الى رأسها •• ولم تكن تعرف ما الذى كانت توشك أن تفعله ، ولكن النظرة التى بدت فى عينى الرجل ـ عندما واجهته ـ أعادتها الى الصواب ، وذكرتها بآداب السلوك ، فلم تنبس بكلمة أخرى ، ومنحته بعض النقود ، ثم أولته ظهرها •• فلما سمعت الباب يغلق ، لم تعد تستطيع السيطرة على قواها ، وضبط أعصابها ، حتى ذكرت فجأة ـ ومرة ثانية ـ وجهها الذى أصبح حطاما ، فمضت الى حجرة النوم لتخرج منها بعد نصف ساعة وقد ارتدت ثياب الخروج •• فقد صممت على أن تذهب بنفسها الى منزل بارودى •• لقد انبعث فى أعماقها ـ بعد كل هذه الشهور من عبودية الطاعة والخوف ـ شيء تعدى حدود الطاعة وحدود الخوف ، واستقر به العزم فى ضراوة ، فلم يعد يقيم للعواقب وزنا !

واستقلت مركبة الى منزل بارودى ، وكان فى ضواحى القاهرة ـ فى الجزيرة ، على مقربة من النيل ـ وقد أحاطت به حديقة كبيرة ، وسترته عن العيان أسوار مرتفعة •• وكانت ثمة بوابة عالية ، من الحديد المتقن الصنع ، تفضى اليه • وقد كانت مغلقة عندما جذب الحوذى أعنة الجوادين ، كما كان وراءها ـ الى اليسار ـ مسكن صغير خرج منه رجل وطنى طويل القامة ، فغادرت مسز ارماين العربة فى عجلة ، ووقفت تتطلع خلال البوابة ، ثم قالت بالفرنسية : « هل محمود بارودى فى القاهرة ؟ » •• فقال الوطنى شيئا بالعربية • وعندئذ عادت تسأله بالانجليزية : « هل بارودى افندى فى القاهرة ؟ » • فأجاب الرجل فى انجليزية حرص على اجادتها ، وهو يتكلم متمهلا : « نعم ، أظن ذلك ! »

ـ أهو فى المدينة ؟

ـ أظن ذلك

فأخرجت كيس نقودها ، وفتحته ، ثم منحت الرجل شيئا من المال ، قائلة: « وأين هو الآن ؟ » •• فقال : « لا أدرى » •• فسألته من جديد : « ومتى يعود الى هنا ؟ » •• ومرة أخرى قال الرجل : « لا أدرى » •• فشعرت بميل جارف الى الصراخ ، ولكنها قاومت هذا الميل وقالت : « هل تظن انه سيعود الليلة ؟ » •• وكان جوابه : « لا أدرى •• انه احيانا يقضى الليل بطوله فى القاهرة » •• وعادت تسأله فى لهفة : « ولكن ، ألم يذهب بعيدا ؟ ألم يرحل عن القاهرة ؟ أهو فى القاهرة ؟ » •• فقال : « أظن ذلك ! »

ووقفا لحظة وكل منهما يحدق النظر فى الآخر من خلال البوابة •• وكانت

عينا الرجل لا تعبران عن شيء على الاطلاق ، فكأنه شبه نائم ٠٠ وما لبثت مسز ارماين أن استدارت وصعدت الى المركبة وهى تصيح بالحوذى : « عد ثانية الى شبرد ! » ٠ فلوح الرجل بسوطه فى الهواء ، وانطلقت الجياد خببا ٠ حتى اذا بلغت مسز ارماين الفندق ، عزمت على أن تقضى فترة العصر بطولها على الشرفة ، فقد يحضر بارودى اليها مصادفة ٠٠ ليس ذلك ببعيد الاحتمال ، فقد سمعت ان كل ذى شخصية فى القاهرة اما أن يحضر الى شبرد أو يرى مارا به فى ساعات العصر !٠٠ وهكذا جلست فى مقعد كبير مريح بجوار السياج ، أمام منضدة صغيرة ٠ وابتاعت بعض الصحف ، واحدى المجلات ، وجلست تتظاهر أحيانا بالقراءة ، دون أن تكف لحظة عن التطلع ٠٠ التطلع الى الرجال الذين كانوا يصعدون ويهبطون الدرج العريض ، والى الرجال الذين كانوا يروحون ويغدون أمامه ، راجلين او راكبين ، فى الشارع المزدحم٠ وحان وقت الشاى ، فأمرت باحضاره ، وراحت ترشفه فى بطء ٠ كان رأسها يؤلمها ، وكانت عيناها متعبتين لفرط التحديق فى وجوه الكثير من الرجال ، ولكنها مع ذلك ظلت ترقب الوجوه حتى بدأ المساء يهبط ، وحتى سمعت الجرس يدوى من داخل الفندق معلنا حلول موعد العشاء بعد نصف ساعة ٠٠ ما الذى بوسعها أن تفعله أكثر من ذلك ؟

وبدأت تجمع الصحف فى حركة آلية ٠٠ فقد أدركت ان لابد لها من الدخول الى الفندق ، اذ أصبحت الشرفة مقفرة تقريبا ٠٠ وكانت على وشك أن تهم بالنهوض ، عندما قدم رجلان ـ احدهما انجليزى والآخر أمريكى ـ فصعدا الدرج ثم جلسا الى منضدة قريبة منها ٠٠ وكان أحد الرجلين هو «ستارنورث» ـ الذى رأيناه مع ايزاكسون يوم وصوله ـ والذى لم تكن تعرفه ، ولم يسبق لها أن سمعت عنه ٠٠ وطلب ستارنورث شرابا ، ثم انهمك فى الحديث مع رفيقه ٠٠ كانا يتكلمان عن القاهرة ، بينما جلست مسز ارماين ساكنة تصغى الى حديثهما ٠٠ وبدأ ستارنورث يصف الأحياء الوطنية ، وما لبث أن جاء ذكر « غرزة » الحشيش التى كان قد صحب ايزاكسون اليها ، فاخبر صديقه عن موضعها بينما كان يصفها له ، فسمعت مسز ارماين اسم الشارع: « باب المطيرة » ! ٠٠ ثم راح يتحدث عن المصريين الاغنياء الذين يرتادون هذا المقهى ، فذكر اسم « بارودى » بين أسمائهم ٠٠ وما لبث أن نهض بعد ذلك مع رفيقه ومضيا الى داخل الفندق !

وفى تلك الليلة ارتدت مسز ارماين ثيابا بسيطة ، وأسدلت خمارها ، ثم صحبت دليلا من الوطنيين ، وانطلقت تحج الى الأماكن الغريبة فى المدينة ٠٠ ومكثت طويلا ـ وطويلا جدا ـ تحت ذلك السقف الأسود للمقهى الذى يدخن فيه الحشيش ٠٠ وكانت منهوكة القوى ، ومع ذلك فقد أحست بنشاط جنونى ،

وكأنما أصابتها الحمى ٠ وراحت تجرع قدحا بعد الآخر من القهوة الثقيلة ، وترقب المدخنين المستغرقين فى الخيال ، والراقصات الحالمات ، حتى خيل اليها انها تعيش فى كابوس فظيع ، وانها قد انتزعت من الارض ومن كل الاشياء التى عرفتها حتى الآن ٠٠ على أن بارودى لم يحضر !

★ ★ ★

◆ وعادت أخيرا الى الفندق مارة بتلك الاحياء الصاخبة الراقصة ، وقد ازداد شعورها بالضيق الطاغى ٠٠ ولم يطرق النوم جفنيها فى تلك الليلة أيضا ٠٠ فلما أقبل النهار التالى ، أحست بأنها مريضة حقا ٠٠ ومع ذلك فقد ظل جسدها يختلج ، وعقلها ينبض ، فى حرارة أشبه بسورة الحمى ٠٠ وما كادت تتناول طعام الافطار - وان لم تمس منه الا قليلا - حتى استقلت المركبة ثانية ، ومضت الى منزل بارودى ٠ وهناك ، قابلها الوطنى النائم عند السياج ، فراحت تسأله فى صوت متهدج ٠٠وجاءها الجواب : « لقد رحل ! » ٠٠ فهتفت جزعة : « رحل ؟٠٠ الى أين ؟ » ٠ وجاءها الجواب : « لقد ذهب الى الأقصر ٠ فان له دهبية فى الأقصر ! » ٠٠ فصاحت : « أذهب الى الأقصر ؟٠٠ متى ؟ » ٠٠فقال الرجل : « لقد علمنا ذلك فىالليلة الماضية ! »٠ وعادت تسأله : « وهل أخذ الرسالة التى بعثت بها صباح الأمس ؟ » ٠٠ فهز رأسه نفيا ، وقال : « انه لم يعد الى هنا ! »

وهكذا أبرقت مسز ارماين الى الفيللا ، ثم استقلت قطار الليل عائدة الى الأقصر !٠٠ ووصلت فى حوالى الساعة التاسعة من الصباح ، بعد ليلة أخرى من السهاد الأليم ٠ وبينما كانت تمر - فى عربتها - أمام فندق « ونتر بالاس » ، شاهدت رجلا يتمشى وحيدا فوق الشرفة ٠ وشد ما ذهلت عندما تبينت انه ماير ايزاكسون ٠٠ ولقد رآها - فهى واثقة من ذلك تماما - ولكنه أشاح بوجهه للتو ، ولم يرفع قبعته تحية لها !٠٠ ترى هل أحنت له رأسها محيية أم أنها لم تفعل ؟٠٠ انها لا تعلم على وجه التحقيق ، ولكن مهما يكن من أمر فان مسلكه بدا غريبا شاذا !٠٠ ثم انها لا تستطيع أن تفهم لماذا كان فى الفندق ٠٠ فهل حدث شىء فى الفيللا ؟٠٠ وقبل ان يتسع لها الوقت للتساؤل ، كانت العربة تقف أمام الباب ٠٠ وكانت تتوقع أن تجد ابراهيم فى انتظارها بالمحطة ، ولكنه لم يحضر ٠ كما انه لم يستقبلها عند الباب الذى فتحه البستانى ، فأومأت برأسها ردا على تحيته ، وأسرعت تجتاز الحديقة ، وتدخل المنزل ، وهى تهتف منادية : « نيجل ! نيجل ! »

وسمعت على الفور وقع خطوات بطيئة ، ثم رأت زوجها قادما نحوها من حجرة الجلوس ، فخيل اليها انه يبدو جد مريض ٠٠ وكان يقول : « أهلا

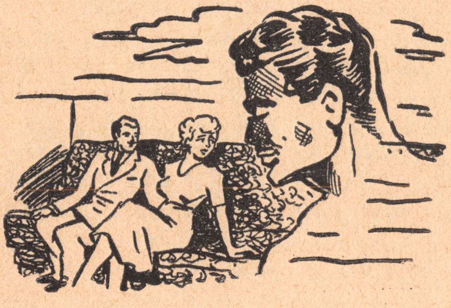
يا روبى .. ها قد عدت ! » . ومد اليها يده ، بينما لاحت فى عينيه ـ وكانتا غائرتين الى حد غريب ـ نظرة تحوى قدرا كبيرا من الشوق والحنان وهما تحدقان فى عينيها .. فقالت : « أجل .. لقد عجلت بالحضور ، اذ لم أكن لأحتمل القاهرة ، فهى شديدة الحر ، فظيعة .. ثم اننى كنت أحس بأننى تعسة هناك ! » .. وكانا يقفان فى الردهة الصغيرة ، فقال : « شد ما تبدين متعبة .. الى حد فظيع حقا ! » .. وكان لا يزال يمسك بيدها ، فلوت شفتيها قائلة : « أأبدو كذلك ؟.. انهما ليلتا السفر .. لم أنم فيهما قط ! »

ـ والوصيفة ؟.. هل أحضرت واحدة ؟

ـ كلا .. ماذا يهم ذلك ؟

وكان مثل هذا السؤال يبدو لها ـ الآن ـ تافها سخيفا ، فأضافت : « يجب ان أجلس .. اننى أكاد أموت ! » .. وكانت تحس حقا بان قواها الجسدية توشك ان تخونها وان ساقيها تهتزان تحتها ، فقال نيجل : « تعالى الى حجرة الجلوس .. ثم انه يجب ان تتناولى فطورا » .. وخلى عن يدها ، فمضت الى حجرة الجلوس وارتمت على أحد المقاعد وهى تتأوه . ولحق بها بعد لحظة ، فوجدها تستند بظهرها الى الوسائد ، وقد مدت ذراعيها وأغمضت عينيها .. ولكنها كانت فى هذا الوقت كله تقول لنفسها « بارودى هنا !.. بارودى هنا .. وأنا لا أستطيع الذهاب اليه ! لا أستطيع الذهاب ! لا أستطيع الذهاب ! » .. كان يخيل اليها انها ترى عنقه القوى الغليظ ، وحاجبيه المائلين الى أعلى ، فوق عينيه الواسعتين الجريئتين ، ويديه الكبيرتين اللتين تنمان عن رجولة دافقة ، ثم صدره الرياضى العريض

وأحست بنيجل يجلس بجوارها ، ففتحت عينيها وقالت فى جهد : « لماذا لم يحضر ابراهيم الى المحطة ؟ » .فأجاب: « آه !.. أظنه كان مشغولا ! » ..وبدا



التوجس والحذر فى صوتها وهى تقـول : « مشغول ؟! » . فقال نيجـل : « أجل .. وهو يعد لك الافطار الآن ، فقد أمرته بذلك » .. اذن فقد كان فى المنزل .. وعندئذ شعرت بنوع من الارتياح وهى لا تكاد تعرف السبب . وفتح الباب ودخل ابراهيم فى خفة وهدوء يحمل الصينية بين يديه ، فقـال لها : « صباح الخير يا سيدتى » . فقالت : « طاب صباحك يا ابراهيم » . ووضع الصينية فى سكون ، ووقف لحظة يتأملها . وما لبث ان تسلل خارجا .. وقال نيجل: « لسوف تجدين نفسك أحسن حالا ، بعد أن تتناولى افطارك » .. فقالت : « كان ينبغى ان آخذ حماما أولا .. ولكننى لن أستطيع الانتظار ! »

وجلست أمام المنضدة الصغيرة ، وصبت لنفسها قدحا من الشاى الثقيل.. وفيما كانت تفعل ذلك ، راحت تنظر الى زوجها من جديد ، فخيل اليها - مرة أخرى - انه كان يلوح شديد المرض ، ولكنها لم تشر الى ذلك بأية اشارة.. ورشفت جرعة من الشاى وقضمت قطعـة من الخبز المحمر ، ثم قالت فجأة : « آه !.. لقد رأيت الدكتور ايزاكسون فى شرفة ونتر بالاس عندما مررت أمام الفندق الآن » . فقال فى غير اكتراث : « أحقا ؟ » .. فقالت : « نعم ! ما الذى ذهب يفعله هناك هذا الصباح ؟ » . فأجابها : « أظنه يقيم هناك » .. فوضعت مسز ارماين القدح الذى كانت ترفعه وقتئذ الى فمها ، وراحت تحملق فى زوجها وهى تقول : « يقيم هناك ؟.. الدكتور ايزاكسون ! » .. فقال : « أظن ذلك »

- ولكن .. هل تعنى انه غادر هذه الفيللا ؟

- نعم .. لقد انصرف فى الليلة الماضية

واذ ذاك تساءلت : « لماذا ؟.. لماذا ؟ » . فقال : « لماذا ؟.. حسنا .. حسنا .. لقد نشب بيننا بعض النقاش ، وانتهينا على خلاف ، فغادر المنزل !» .. فهتفت : « هل تشاجرتما ؟ » .. وكان جواب نيجل : « أجل .. أظن ان لنا نسميه كذلك ! » .. وفى غمرة ما كانت تحسه من اجهـاد ، ومن الم جسدى وتشتت فكرى ، شعرت مسز ارماين بوخزة حادة - فقد كانت اشبه بذلك حقا - من الفرح والغبطة . وقالت : « وهل غادر الدكتور ايزاكسون المنزل نهائيا ؟ » . فأجاب : « نعم .. ولن يعود الى هنا ثانية ! » . فتناولت مزيدا من الشاى ، وازدادت قابليتها للطعام .. بل انها للمرة الاولى - منذ ايام كثيرة - شعرت برغبة فى الاكل !.. وكانت صدمة الخوف التى اعترتها قد ذهبت وانقضت ، وتذكرت ما داخلها حين أمسك نيجل بيدها فى قوة وهما فى الردهة .. وأخيرا قالت : « ولماذا تشاجرتما ؟ » . فقال : « آه .. لقد قامت بيننا مناقشة ! »

ثم كف عن الحديث فجأة ، فأسرعت قائلة : « فهمت .. فهمت !.. لعلك

فعلت ما طلبت اليك أن تفعله ، فأخبرته بأنك الآن من القوة بحيث يستطيع العودة الى لندن » •• فقال نيجل : « أجل •• قلت ذلك بالفعل ! » • فتساءلت : « وحدثته عما ندين به له ؟ » •• فقال : « أجل » •• وعادت تسأله : « وهل غضب من ذلك ؟ » ••فقال : « لقد تحدثت عن ذلك ، و•• » ، وتحول فجأة قائلا : « روبى ، بكم تريننا مدينين له ؟•• لابد ان أرسل له اذنا مصرفيا بالمبلغ • نعم •• لابد أن أرسله له الليلة ! » •• فهزت كتفيها وقالت : « لست أدرى ، ولكن •• لابد انه سيفتح فمه بالحديث عنا ، بعد ان تشاجرتما ! » • فقال نيجل فى بطء : « أظنك •• أعتقد انك تظلمينه من هذه الناحية ! »

– هل تظن ذلك ؟•• حسنا ، ينبغى أن أصعد وأستحم الآن أولا •• وربما تأخرت قليلا !

– دعينى أحضر وأجلس معك •• هل تسمحين لى ؟•• أعنى بعد بضع دقائق ؟

– ليس الآن••والأفضل أن تحاول ان تحسب ديونك للدكتور ايزاكسون!

ثم غادرت الحجرة على عجل ، فما كادت تصل الى غرفتها حتى أوصدت الباب وهرعت الى الشرفة حيث راحت تنظر الى اللولية ، فرأت العلم المصرى مرفوعا •• ترى هل بارودى عليها الآن ؟•• يجب أن تعرف ، وفى الحال !•• وأسرعت تقرع الجرس ، ثم فتحت الباب وقالت للنوبى الذى لبى النداء : « أريد ابراهيم » •• فانسحب النوبى • وان هى الا لحظة حتى كان ابراهيم يصعد الدرج فى مشيته الهادئة • فهتفت تقول فى همس : « ابراهيم •• ابراهيم ، هل بارودى على ظهر اللولية ؟ » •• فأجابها : « نعم يا سيدتى ! » •• ولم تستطع كتمان صيحة الفرح – التى أوشكت ان تنبعث من صدرها – الا فى صعوبة بالغة ، ثم قالت : « أهو هنا ؟ »

وفى غمرة الانفعال الذى استبد بها ، وضعت يدها على كتفه وشددت الضغط عليها دون أن تشعر ، وأرفت قائلة : « ابراهيم •• ابراهيم ، اننى أريد ان تعد لى الفلوكة الليلة – بمجرد الفراغ من العشاء – عند نهاية الحديقة • أفهمت ؟ » •• فتطلع اليها فى رصانة وجد ، بينما كانت تستطرد : « هل تستطيع أن تجذف بى الى ضفة النيل الأخرى وحدك دون معونة ؟ » •• فهتف : « سيدتى •• اننى قوى كرمسيس الثانى ! » •• واذ ذاك قالت : « حسنا اذن •• عليك أن تعد قاربا صغيرا ، خفيفا ، ليكون أكثر سرعة فى انطلاقه • وكم سيمكث بارودى هنا ؟ » •• فأجاب : « لا أدرى » •• ولكنها قالت : « حاول ان تعرف ! •• هل حمزة معه ؟ » • وبدا الشر فى عينى ابراهيم ، ثم قال : « حمزة ؟•• انه هناك ، ولكن حمزة ولد شرير •• اننى لم أعد أكلم حمزة الآن » •• فهتفت :

« لا تنس !٠٠ لا تنس ٠٠ بعد العشاء مباشرة ! » ٠٠ ثم أغلقت الباب وأوصدته ثانية !

وأخذت حماما ساخنا ، ثم تركت شعرها مرسلا ، والتفت بمعطف منزلى ، واستلقت على الفراش وهى تحاول أن تنال شيئا من الراحة ٠٠ ولكن جسدها كان ينبض بالرغبة فى الحركة الدائبة ، على الرغم مما كانت تحس به من اعياء وكلال ٠ وكانت تخرج الى الشرفة ـ مرة بعد أخرى ـ فتنظر الى اللولية ٠٠ بل لقد أحضرت منظارا مقربا ، وراحت تحاول أن تتبين « بارودى » على السطح العلوى ٠٠ الا أنها لم تستطع رؤيته ٠ وما لبثت أن أخرجت الى الشرفة مقعدا طويلا ، ولكنها اذ همت بالاستلقاء فوقه ، سمعت طرقا على الباب وصوتا يهتف : « روبى ! » ٠٠ وكان نيجل هو القادم !٠٠ وأحست فى تلك اللحظة بميل شديد الى أن تندفع الى الحجرة ، وتفتح الباب ، ثم تمسك به من كتفيه فتطوح به الى خارج المنزل ٠٠ بل خارج حياتها كلها !

وعاد يهتف : « روبى ! » ٠ فصاحت : « ها أنذى قادمة ! » ٠٠ وتمهلت لحظة، محاولة أن تسيطر على مشاعرها ٠٠ كانت تحس بكل عصب من أعصابها يرتعد ويهتز ٠ وعاد نيجل يهتف : « ان الباب موصد يا روبى ! » ٠ فقالت: « أجل ٠٠ انني أعرف ذلك ٠٠ ها أنذى قادمة ٠٠ قادمة ! » ٠ وصرفت بأسنانها ، ثم مضت الى الباب ففتحته قائلة : « تعال ، ادخل ! ادخل أيها الرجل اللجوج ! »

ـ لجوج ؟٠٠ ولكنى لم أرك منذ ثلاث ليال !٠٠ ثم اننى لا أستطيع العيش بدونك يا روبى !٠٠ شكرا لله ، فلسوف نكون معا وحدنا الليلة ٠٠ وبودى أن تعزفى لى قليلا بعد العشاء !

فتقلص وجهها ، وقالت : « هذا ما لم أكن متعبة الى درجة لا أستطيع معها العزف ! » ٠ فقال : « سنأوى الى الفراش مبكرين ! » ٠٠ ثم أغلق الباب ، وأردف قائلا : « سأجلس معك هنا ، فانني أريد أن آخذ رأيك فى هذا الاذن المصرفى الخاص بايزاكسون ٠٠ وأرسل زفرة عميقة ٠٠ وكان يمسك فى يده بقلم من الرصاص وبعض الأوراق ٠ ثم جلس بجانب احدى المناضد واستطرد يقول : « أريد أن أزيح هذا الموضوع عن تفكيرى ٠٠ فبعد ذلك الذى حدث ، لا بد أن أدفع لايزاكسون، ولو أننى أعتقد اننا اذا لم نفعل فسوف ٠٠ » ٠ وتنهد ثانية ، ثم أردف قائلا : « لنر الآن ؟٠٠ متى حضر الى الذهبية ـ لأول مرة ـ كى يعنى بى ! »

★ ★ ★

◆ مضى ذلك اليوم بطيئا متثاقلا وكأنه يمشى على قدمين من الرصاص ٠٠ ولم تدر مسز ارماين ان كانت ستقوى على الاحتمال حتى نهاية اليوم ، دون أن

تنفجر فى نوبة عصبية هوجاء !٠٠ فقد خيل اليها انها كانت تتشبث فى جنون بآخر ما بقى لديها من وشائج ضبط النفس والتماسك ٠٠ لقد لبثت طويلا تمثل دورها بحيث كان انهيارها وتخاذلها الآن ـ وهى على وشك بلوغ نهاية المأساة ـ أمرا محزنا مخزيا ٠٠ أجل ، لسوف ترى نهاية المأساة اليوم حتما ، فقد استبد الاعياء والارهاق بقوى مسز ارماين جميعا ، وكانت مصرة على أن تقول لبارودى ذلك ٠٠ يجب أن يأخذها بعيدا ، أو يدعها تلحق به فى أى مكان آخر ٠٠ لا بد لها ـ على أية حال ـ من أن تتخلص من حياتها مع نيجل ، فهى لم تعد تستطيع المضى فى تمثيل دور المخلصة المتفانية ، التى وجدت الأمن والدعة أخيرا ـ بعد الكثير من التجارب ـ بين ذراعى الكرامة والاعتبار !

ولم تستطع قضاء اليوم دون أن تثير شكوك نيجل وريبته ، الا بعد أن بذلت فى سبيل ذلك جهدا قاسيا مضنيا ، لا سيما وانه بدا فى ذلك اليوم شديد الانتباه اليها على نحو غريب !٠٠ كانت عيناه تستقران عليها دائما ، وترقبانها فى نظرات لم تكن تفهمها تماما ٠٠ ولم يتركها وحدها لحظة قط ، حتى لقد خالجها شعور عجيب بأنه كان اليوم ، مثلها ، على وشك ال ٠٠ ـ ماذا ؟ ـ هل هو الافضاء بشىء ما والاعتراف بشىء ما ، أو ـ ربما ـ الكشف عن دخيلة قلبه على نحو ما ؟ ٠٠ انها لا تدرى ٠٠ كل الذى تدريه انه لم يكن فى حالة طبيعية ، وقد تساءلت مرة أو اثنتين ، عما يمكن أن تكون الحقيقة الكاملة لأسباب شجاره مع ايزاكسون ٠٠ ولكن ـ مهما يكن من أمر ـ فان هذه الأسباب لم تكن تعنيها فى شىء ، لا سيما وقد كانت من الاهتمام المفرط بنفسها ـ فى ذلك اليوم ـ بحيث لم يعد يهمها شىء قط ، حتى علاقة ايزاكسون بزوجها !٠٠ لقد ذهب ايزاكسون ٠٠ ذهب دون أن يعمد الى تدميرها !٠٠ وهذا كاف كل الكفاية ، فلا داعى لأن تزعج نفسها اليوم بالتفكير فى أشياء تافهة !

واقترب المساء أخيرا ، ينساب فوق طرقات الذهب الرائعة ، فلما رأت مسز ارماين بداية ذلك التبدل الذى حل بالسماء ، ازداد فى كيانها تأجج نيران الانفعال والقلق ونفاد الصبر ٠٠ فقد أصبحت تحس ـ اذ اقتربت ساعة لقائها ببارودى ـ بأنها لن تستطيع احتمال لحظة أخرى من التأخير ٠ أما كيف تستطيع الفرار من زوجها ، فذلك ما لم تكن تعرفه ٠٠ ولكنها لم تهتم لذلك ولم تشغل نفسها به ، فما كانت لتستطيع أن تسوس نيجل على نحو ما ، ولن يكون فشلها الليلة فى ذلك أول فشل من نوعه !٠٠ على ان اللحظة الحاسمة لا بد ان تواتيها وهى على استعداد !٠٠ انها واثقة من ذلك كل الثقة !

وفى تلك الليلة اتقنت زينة وجهها كما لم تفعل من قبل ، فطلت وجنتيها بطلاء وردى رقيق ، وسودت حاجبيها أكثر من المعتاد ، وزادت من الحمرة القانية فى

شفتيها .. ولقد وجدت عناء مضنيا فى ان تكسب وجهها مظهر الشباب ، وكانت عيناها تتقدان كالجمر من خلال ظلال الأصباغ المحيطة بهما ، كما كان شعرها منسقا فى اتقان على خير وضع يلائمها . ثم ارتدت ثوبا من ثياب السهرة العارية ، كان يكشف عن أكبر قدر من قوامها الذى كان محتفظا بجماله .. ومضت تقنع نفسها بانها لم تكن تبدو الليلة أكبر سنا مما رآها بارودى آخر مرة .. وكانت المرآة قد خيبت ظنها فى قسوة ضارية ، ولكنها كانت عازمة على ألا تصدق ما تقوله المرآة !.. فلما أتمت استعدادها أخيرا ، هبطت الى الطابق الأسفل لتجتاز - للمرة الأخيرة - تلك المحنة من العذاب .. فهكذا كانت تسميها فيما بينها وبين نفسها .. عذاب العشاء على انفراد مع نيجل !.. ولم يكن نيجل قد هبط بعد ، فلما همت بالخروج الى الشرفة ، اذا به يحضر الى حجرة الجلوس مرتديا ثوب العشاء .. وكانت هذه هى الليلة الأولى - منذ مرضه - التى ارتدى فيها هذا الثوب ، الذى بدا فى نظرها دليلا على أن نيجل يوشك ان يرتد سريعا الى حياته العادية النشيطة . وكان مظهر المرض - الذى خيل اليها انها طالعته على وجهه هذا الصباح - قد تحول الى مظهر من الجد والرصانة ، لا بد انه كان دليلا على انفعال داخلى !

وعندما دخل الى الحجرة ، قالت لنفسها انها لم تر نيجل قط يبدو من قبل على هذا النحو من الغموض الحافل بالمعانى الخفية ، ولم تتصور قط من قبل أن فى وسعه ان يكون كذلك يوما من الأيام .. فقد كان فى وجهه شىء روعها وانقبض له قلبها !.. وراح هو الآخر - وهو يدنو منها - يحدق فيها وكأنه يراها بعينين جديدتين ، وقد بدا حازما ثابت العزم ، كما لو كان قد اتخذ قرارا خطيرا ، فى الفترة التى أعقبت لقاءهما الأخير ، منذ ساعة !.. لقد كان طوال اليوم يرقبها بنظرات غريبة ، وهو بادى القلق والتفكير .. متخاذلا أحيانا ، ونشيطا متوفزا أحيانا أخرى !.. أما الآن ، فعلى الرغم من أنه يبدو جادا منفعلا ، الا انه لاح - كذلك - حازما قوى العزم .. وكان هذا الحزم دليلا جديدا على الصحة !.. وجالت عيناه فوق كتفيها العاريتين ، ثم قال : « أمن أجلى هذا ؟! » .. وكان صوته متهدجا . ولكن اللمحة التى كانت فى عينيه تبدلت وهو ينظر الى وجهها .. فقالت فى فتور : « لقد اضطررت الى ذلك الليلة يا نيجل .. كنت أعلم أننى لا بد أن أبدو مخيفة بعد كل هذا السفر الشاق .. وينبغى أن تصفح عنى الليلة ! » .. فقال : « اننى لأصفح بلا ريب ، فقد كان جميلا منك أن تكبدى نفسك هذه المشقة من أجلى ، حتى ولو كنت ... تعالى !.. لقد أعد العشاء ! »

وجذب ذراعها فتأبطه ، ومضى يقودها الى حجرة المائدة . وبينما كانا يتخذان مجلسهما ، قالت فى غير اكتراث : « أين ابراهيم الليلة ؟ » .. وكانت تعلم أين

هو ، ولكنها تساءلت ذرا للرماد في عيني نيجل ، الذى قال فى سذاجة : « لقد سألنى الاذن له بالذهاب الى القرية ليرى والدته ، فأذنت له » ٠٠ وتنهدت فى ارتياح وهى تتمثل ابراهيم وقد ذهب لاحضار الفلوكة التي ستقلها الى الضفة الأخرى من النيل !٠٠ وسرى فى بدنها انفعال حار ٠٠ لسوف ترى بارودي بعد ساعتين ، وربما أقل من ذلك ! سوف تكون وحدها مع بارودى !٠٠ ما أطول ما انتظرت ، وما أقسى ما احتملت من عذاب ، وما أشد ما كابدت من أخطار ، ومن فشل !٠٠ ولكنها سرعان ما نسيت كل شيء فى غمرة تلك الفكرة التى اندفعت الى رأسها اندفاع النبيذ المسكر : « سوف أكون الليلة مع بارودى » ٠٠ على انها لم تذهب الى أبعد من هذه الفكرة ، فلم تسأل نفسها عن أى نوع من الاستقبال ستجده منه ٠٠ كانت خمر عقلها قد بعثت فيها نوعا من الاستخفاف ، ومن الطيش ، حال دون التفكير العميق ، واكتسح كل المخاوف ٠٠ وبدا كأن نوبة من الشباب - أتراها كانت آخر نوباته ؟! - قد وثبت فى أعماقها ، كما يسطع اللهب من كومة من الرماد !٠٠ وقد جعلت اللهب يندفع ناحية نيجل !

وما لبث ان راح يقول من جديد : « أهذا من أجلي ؟! » ٠٠ كان يعيد تلك العبارة ليقنع نفسه ، ولكنه كان يردد فى نفسه أيضا تلك الكلمات المروعة التى لطم بها الرجل الذى أنقذه من الموت : « أنت أيها الكاذب !٠٠ أيها الكاذب اللعين ! » ٠٠ ولم يكن العشاء « عذابا » كما كانت تتوقع مسز ارماين ، فقد راحت تتكلم وتضحك كثيرا ٠٠ كانت مرحة طروبا ، رقيقة ، لطيفة ٠٠ تماما كما كانت فى تلك الأيام الخالية التى اعتادت فيها ان تسحر الرجال بمفاتنها العقلية مثلما تسحرهم بمفاتنها الجسدية المجردة !٠٠ وكان نيجل يستجيب لحالتها هذه فى لهفة تكاد تكون صبيانية ٠٠ ولم يكن مرحها وطربها يبهجانه فحسب ، وانما بدا انهما كانا يطمئنان شيئا معينا فيه ٠٠ وقد لاحظت ذلك ، وأدركت - اذ لاحظته - مع هذا الحزم الظاهرى ، وتحته ، ان هناك شيئا آخر ٠٠ كانت ثمة صفة مختلفة كل الاختلاف ، صفة غريبة عليها ، وان أحست بها بما يشبه التخمين المبهم ٠٠ أحست بها ، بذلك الالهام الدائم اليقظة ، الذى يكمن فى نفوس بعض النساء ٠ فقد كان مرحها الظاهر يمد يد المعونة الى شيء فى قرارة نيجل ، ويقوده الى الأمام قدما ٠٠ ولكن الى أين ؟٠٠ كان من المحتوم ان تعرف الليلة ٠٠ أو هذا هو المفروض !

وفرغا من العشاء أخيرا ، فنهضا ليذهبا الى حجرة الجلوس ، وعندئذ بدأ يتملك مسز ارماين حنين جنونى الى الفرار ٠٠ كانت واثقة من أن « الفلوكة » تنتظرها الآن فوق المياه الساكنة ، عند حاجز الأمواج ، وتحت الحديقة مباشرة ٠٠ ولو ان نيجل بقي في حجرة المائدة لحظة ليتم تدخين سيجارته ، لاستطاعت

هى أن تتسلل الى الخارج لتراها !٠٠ ومن الطبيعى انها لن تقدم على الرحيل الا بعد أن تطمئن الىصعود نيجل الى الطابق العلوى ، ولكنها كانت تتوق الى التحقق من وجود القارب فى الموضع المتفق عليه ٠٠ ومن ثم قالت فى تراخ ، وهو يهم باتباعها نحو الباب : « هلا دخنت سيجارتك هنا ؟ » ٠٠ فهتف : « هنا ؟!٠٠ وحدى ؟ » ٠٠ وكان صوته ينبض بالدهشة ، فغمغمتوهى تصطنع عدم الاكتراث بينما كانت تتقدم فى سيرها نحو باب الحجرة : « ظننت انك ربما أردت ان تشرب كأسا أخرى من النبيذ ! »

– كلا ٠٠ بل اننى قادم الى الشرفة معك !

– لفترة وجيزة فقط ، اذ ينبغى أن تأوى الى الفراش سريعا ٠٠ لا بد لى الآن – وقد ذهب الدكتور ايزاكسون – من أن أعود الى أداء دور الممرضة الصارمة ، حتى لا يعاودك المرض !٠٠ فانى موقنة من أنه سوف ينحى علىباللائمة لو حدثهذا

– من أين لك هذا اليقين ؟!

فأفزعتها نبرات صـــوته ٠٠ وكانت قد بلغت باب حجرة الجلوس ، فوقفت جامدة بلا حراك وهى تتلفت نحـوه ٠٠ ثم قالت : « من أين ؟٠٠ عجبـا ! لأن الدكتور ايزاكسون لا يثق بى على أى وجه من الوجوه ! » ٠٠ فقال : « ولكنى أثق بك » ٠٠ ومرة أخرى ، رأت تلك اللمحة الغامضة ترتسم على أساريره ٠٠ فقالت : « نعم ، أعلم ذلك ٠٠ فانك تختلف عنه ! » ٠٠ ثم فتحت الباب ،ودلفت الى الشرفة ٠٠ وما كادت تلجها ، حتى سمعت الملاحين النوبيين على ظهر اللولية وهم يبدأون انشودتهم العاطفية – كما اختارت أن تسميها فيما بينها وبين نفسها الليلة ! – وكان غناؤهم يشق قلبها ، ويخرق كل خلية من جسمها !٠٠ وودت لو تندفع نحوه ٠٠ الآن ٠٠ فى الحال ٠٠ دون دقيقة أخرى من الانتظار !٠٠ كان جسمها لا يطيق السكون ، وما أجبرته على الهدوء – وهى تجتاز الحجرة نحو الشرفة – الا بصعوبة بالغة ٠ وجاء نيجل فوقف ملاصقا لها ، فقالت : « آه ، لا بد لى من دثار هنا ! » ٠٠ فبادر قائلا : « سأحضره لك ! » ٠٠ وهتفتمتظاهرة بالمعارضة : « كلا ، كلا ٠٠ لا ينبغى أن تصعد الدرج ، فان هذا يتعبك ! » ٠٠ ولكنه قال : « لن يحدث هذا ٠٠ الليلة ! »

ثم خلفها ومضى ٠٠ وما كاد الباب يغلق وراءه ، حتى اندفعت كالسهم نحو الحديقة ، وهتفت : «ابراهيم !٠٠ ابراهيم، هل أنت هناك ؟» ٠٠فواتاها صوته : « أجل يا سيدتى ! » ٠٠ وما لبث ان تقدم نحوها من حافة الماء ، حتى وقف الى جانبها ٠٠ وقالت : « اننى لم أستطع بعد ان آتى ، ولكنى سأحضر بأسرع ما فى وسعى ! » ٠٠ فغمغم الفتى : « أجل ! » ٠ وراح ينظر اليها لحظة ، وما لبث أن قال : « لست أدرى ما الذى سيقوله محمود بارودى لنا ٠٠ فان لديه فتاة على

السطح ! » •• فتساءلت : « على السطح ؟ » •• وكان جوابه : « أجل ، على سطح اللولبية ! » •• وفى تلك اللحظة انبعث صوت نيجل : « روبى !•• روبى ! أين أنت؟ » •• فصاحت بابراهيم : «ارجع •• ارجع •• انتظرنى •• انتظر !» •

وعاد نيجل ينادى : « روبى ! » • فهتفت : « اننى هنا •• هانذى قادمة يا نيجل ! »

الفصل الرابع والاربعون



• **التقت** به فى الحديقة ـ على مسافة قصيرة من الشرفه ـ فاذا به قد ارتدى معطفا وقبعة رخوة ، كما حمل اليها معطفها .. وبادرها قائلا اذ رآها : « ماكان ينبغى ان تخرجى لتتمشى فى هواء الليل وذراعاك وكتفاك عارية ! » . ورفع معطفها الى محاذاة كتفيها ليساعدها على ارتدائه ، فأدارت ظهرها ، ورفعت ذراعيها ، وأخذت ترتديه وهى تقول : « ان الجو دافىء الليلة ! »

ـ ومع ذلك فلم يكن تصرفك من الحكمة فى شىء !

فقالت متظاهرة بمداعبته : « أو تريد ان تقوم ـ انت الآخر ـ بمهمة الممرضة ؟ » .. ولكن صوتها كان خلوا من كل أثر للمرح ، كما كانت أساريرها خلوا من كل أثر للسرور والحيوية . وما لبث نيجل ان قال :

ـ هل تحبين أن نتمشى قليلا ؟.. أتودين ان نذهب حتى ضفة النهر ؟

فبادرت قائلة فى عجلة : « كلا ، كلا .. ما ينبغى لك ان تتعب نفسك ! .. فلنجلس هنا ، وسأسلمك الى الفراش عما قريب !

ـ لم يحن الوقت بعد !

فقالت : « اننى . . » ، ولكنه قطع عليها حديثها قائلا : « لست أمانع فى النوم اصرارا على ان تعزفى لى .. كما ان الضوضاء المنبعثة من جانب النهر ستطغى على العزف وتزعجنا .. لا ، **ولكنى أحب ان أتحدث اليك .. بل لا بد لى من ان أتحدث اليك الليلة ! »**

فارتخى أحد جانبى فمها ، ولكنها أدارت وجهها فى عجلة فلم ينتبه الى اضطرابها .. وما لبثا ان ارتقيا الشرفة ، وبلغا بقعة تقع عليها اضواء الحجرة ، فقال : «اجلسى هنا ياروبى .. بجانبى ! » .. فجلست فى المكان الذى أشار اليه . وعلى الرغم من ان الرغبة فى الحركة استولت ـ مسعورة ـ على بدنها الكليل المحموم وأخذت تنهشه ، فقد اضطرت الى ان تجلس ساكنة . وجلس نيجل ملاصقا لها .. وخيم الصمت لحظة ، ثم قالت يائسة وهى تحاول ان تحطم هذا الصمت : « آه .. اننا لم نتناول القهوة بعد العشاء الليلة .. هل .. هل تحب ان أعد لك القهوة مرة أخرى ! »

قالت ذلك اعتباطا ، وهى تتخبط على غير هدى .. **كان كل مناها أن تتحرك ، وان تفعل شيئا .. أى شىء ! .. كانت تحس بأنه لا بد لها من ان تشغل نفسها بأية وسيلة ، والا انفجرت صارخة ، ثائرة** .. وعادت تهم بالنهوض ، وهى تردد :

ـ هل أقوم ؟ .. هل اذهب لاعدادها ؟

فرمقها نيجل بنظرة ثابتة ، وهو يقول : « لا ياروبى .. ليس الليلة ! » . فغاصت فى مقعدها ثانية ، وقالت : « لا بأس .. ولكنى كنت أظن انك أحببت قهوتى ! » . فقال : « لقد أحببتها .. وسأحبها من جديد بعد اذ شفيت! » .. ومد يده

فتحسس يدها وهو يقول : « ولكن .. ليس الليلة ! » .. فتمتمت مستسلمة : « كما تشاء ! »

— ان لدينا .. هناك امور أخرى الليلة !

وظل يرمقها بعينين لا تطرفان ولا تتحولان . . فقالت : « امور أخرى ؟! .. اجل .. النوم ! .. يجب ان تنعم الليلة براحة موفورة . . وكذلك أنا ! »

ولقد اندفعت فى صوتها — رغما عنها — رنة من السخرية الضارية ، وهى تنطق بالكلمتين الاخيرتين .. فخشيت مما قد يحدث نتيجة لذلك ،وانفجرت فى نوبة من السعال المفتعل، وهى تجذب المعطف حول صدرها وعنقها العاريين . . وكان لا بد لها من ان تجذب يدها من يد نيجل حتى تفعل ذلك ، فشعرت بأنها سعيدة راضية اذ أتيحت لها هذه الفرصة للخلاص من قبضته . وما لبثت ان قالت : «لقد ابتلعت كثيرا من الغبار والرمل فى القطار ! »

ومد يده ليمسك بيدها ثانية ، فاضطرت لأن تدعها له ، وعندئذ مضى يقول : « لسوف أنعم بالراحة الليلة ياروبى ، لأننى انتهيت الى قرار ! .. ولو اننى لم أصل الى هذا القرار .. لو .. لو اننى تبعت فكرتى الأولى ،وظللت على قرارى الأول، لما استطعت ان أشعر براحة قط ! »

وراحت تحملق فى صمت وهو يستأنف الحديث قائلا : « روبى .. هل تذكرين ليلتنا الأولى هنا ؟ »

فقسرت نفسها على ان تقول : «نعم » !.. ولكن الا ينتهى قط ؟.. الا يدع يدها من يده ؟.. أفلن يدعها قط تفر الى النيل ، والى تلك الموسيقى الهمجية ؟ !

وعاد نيجل يقول : « أظن اننا كنا متقاربين — كل من الآخر — اذ ذاك . ولكن .. ولكنى أعتقد اننا الآن أشد تدانيا وأوثق تقاربا .. أليس كذلك ؟.. الا تشعرين بذلك ؟ » . فجهدت مسز أرماين حتى استطاعت أن تقول : « بلى ! »

ــ اننا الآن أشد تدانيا وأوثق تقاربا ، لأننى قد جربتك .. جربتك طيلة هذا المرض الفظيع !

واشتدت قبضة يده على يدها ، وهو يستطرد قائلا : « ولكن .. لعلك لم تجربينى ، كما جربتك ! » . فهتفت فى رياء وهى واجفة القلب : « أوه ! .. اننى لأشك البتة فى .. » . ولم تتم عبارتها ، اذ قاطعها نيجل قائلا : « كلا .. ولكنى اريد أن تعرفينى وان تفهمينى ، كما أعتقد اننى قد فهمتك .. **وهذا هو السبب فى اننى سأقول لك شيئا .. شيئا رهيبا .. شيئا مروعا ! »**

فقالت فيما يشبه الهمس : « رهيبا ؟ ! .. مروعا ؟ ! »

ــ نعم ! .. ولم يكن فى نيتى أن أخبرك به قط .. ولكنى عندما رأيتك تعودين اليوم ، وتعودين لى مسرعة ، دون أن تتمى مهمتك التى ذهبت من اجلها ، بدأت أشعر على نحو ما بأن من واجبى أن أخبرك .. اننى أكون شخصا وضيعا لو اننى اخفيت عنك ، فمن حقك ان تعلمى ..

ولم تقل شيئا ، اذ لم يكن لديها أية فكرة عما هو مقبل على الافضاء به ! .. وراح يؤكد القول ثانية : « نعم ، ان من حقك أن تعلمى .. » . وتمهل لحظة .. ولم يعد ينظر اليها اذ ذاك ، وانما راح يحدق فى الظلمات أمامه . ثم اردف قائلا : « لقد كنا هنا فى الليلة الماضية ، أنا وايزاكسون .. »

فتحركت فى مقعدها حين سمعت اسم الطبيب ، بينما تابع زوجها كلامه : « وكنت قبل ذلك قد سألته عما كنت مريضا به ، وعما أصابنى .. وكان قد وعدنى بأن يخبرنى فيما بعد ! » . وعاد ــ اذ ذاك ــ ينظر اليها ، فرسمت بشفتيها كلمة « نعم » دون أن تنطق بها .. بينما استأنف نيجل الحديث قائلا : « فلما جئنا الى هنا بعد العشاء ، سألته مرة أخرى ان يخبرنى .. وكنت قد تلقيت برقيتك »

فأومأت برأسها .. وتمهل نيجل لحظة ، ثم استطرد قائلا :

«وكان ايزاكسون قد عرف انك ستبكرين بالحضور قبل الموعد الذى كنا نرتقبك فيه بيوم» .. فأومأت برأسها ثانية ، واذ ذاك قال وكأنه يبذل جهدا : **« وعندئذ أخبرنى .. وسأخبرك بما قاله .. قال اننى كنت مسموما ! »**

وهنا تقلصت يدها بغتة تحت يده .. بينما كان يستطرد : **« كنت مسمما بنوع من مستحضرات الرصاص كنت اتناوله فى جرعات صغيرة جدا ، خلال فترة طويلة من الزمن ! »** .. فهتفت : « مسمما ؟ ! » .. فقال : « أجل ! »

ـ وهل .. وهل تصدق شيئا كهذا ؟

ـ نعم .. لأن ايزاكسون فى هذه الشئون ، عالم خبير !

فعادت تردد : « مسمما ؟! » .. ولكنها كانت تنطق بالكلمة بغير ذلك الفزع الذى كان يتوقعان تستشعره .. كانت تنطق بها فى حركة آلية ، وتبلد عجيب ، فظن أن الدهشة ربما أذهلتها وعقلت لسانها . . ومن ثم فانه أردف وهو لا يزال يمسك بيدها فى قوة : « وليس هذا كل شيء .. فقد سألته عمن يمكن أن يرغب فى موتى ، على ظهر اللولية .. »

وامسك لحظة ، فبذلت جهدا خارقا حتى استطاعت ان تقول : « هذا .. هذا عين ما كنت أفكر فيه ! » .. وعاد نيجل يقول : «واذ ذاك .. قال لى شيئا فظيعا !» .. فهتفت : « ما هو ؟ »

ـ قال انك أنت التى فعلت ذلك !

فانتزعت يدها من يده فى حدة ، واعتدلت فى جلستها ، وهى تسند ظهرها الى المقعد . . وظلت جامدة بلا حراك ، بينما راحا يتبادلان النظرات .. ولم يقطع صمتهما سوى ذلك الغناء الذى لم يكن انبعاثه ينقطع من اللولية !

اذن فقد قيل كل شيء !

اذن فقد استطاع ايزاكسون أن يكتشف الحقيقة كاملة ، واخبر نيجل بها !

وعندئذ أحست بارتيـاح ، فكأنمـا انزاح عن كاهلها حمل ثقيل .. وكان يخيل اليهـا انها ـ فى جلستها تلك ـ لم تكن تحملق فى نيجل ، وانمـا كانت تحملق فى نفسها ! .. وكانت وهى تحملق فى نفسها تعجب لهذا الموقف. وعاد نيجل يقول : « قال انك انت التى فعلتها ! . . أو على الاقل كنت تعلمـين ان السم يدس لى ، وكنت تقصدين ذلك عن عمد ! » .

فلبثت ساكنة لا تنطق ولا تتحرك .. وبينما كانت تفكر فى هذه الحقيقة التى انكشفت لزوجها ، راحت تفكر كذلك فى حقيقة اخرى ، هى : تلك الفتاة التى ذكر ابراهيم انها ترافق بارودى على ظهر اللوليـة ! .. وكان نيجـل يقول اذ ذاك : « وعند ذاك طلبت اليـه ان يذهب ، والا اخرجته بالقوة ! » . فهتفت : « آه ! »

وكان فى صيحتها هذه نوع من الدهشة المصحوبة بالمرارة .. وخيل الى نيجل انه يرى فى هاتين العينين اللتين كانتا تنظران اليه ، لمحة تنم عن العجب والاستغراب .. ولـكنه استمر فى حديثه قائلا : « وعندئذ انصرف بعد أن أخبرنى ببعض .. ببعض أشياء أخرى ! » .

وكان ثمـة شىء فيها ـ فى وجهها ، أو مسلكها ، أو صمتها القاتل الذى لم تقطعه غير هذه الصيحة التى كادت تبدو هازلة ساخرة ـ قـد بدأ يؤثر فى زوجها تأثيرا واضحا .. فعاد يردد : « بعض أشياء أخرى ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟ »

ـ قال انه حضر من انجلترا لان بعض الشكوك قد ساورته فى أن شيئا ما لم يكن على ما يرام .. وأخبرنى بأنه التقى بك مصادفة فى معبد ادفو ، وانك قد ابديت شيئا من الذعر والهلع لرؤيته ، وانك لم تكونى أنت التى طلبت اليـه ان يحضر الى اللولية ليرانى ، وانما كان الامر على العكس .. فهو الذى طلب اليك أن يحضر ولكنك رفضت السماح له بالحضور .. وقال انك لم تكتفى بذلك بل ارسلت اليه خطابا تطلبين اليه فيه الا

يحضر .. وقد أعطانى ذلك الخطاب ، وها هو ذا .. ولكنى لم أقرأه !

ثم دس يده فى جيب معطفه ، وأخرج الخطاب .. ولكنه أخرج معه شيئا آخر .. أخرج ذلك الصندوق المذهب الذى أهداه اليها بارودى فى بساتين البرتقال .. وقال: « ها هو ذا الخطاب ! » . ثم وضعه على المنضدة وأردف قائلا وهو يشير الى الصندوق المذهب : « وقد وجدت هذا فى حجرتك عندما ذهبت لأحضر لك المعطف .. انه ملىء بالمواد الشرقية التى تستعمل لزينة النساء ! »

وكانت فى عينيه نظرة مليئة بالتساؤل ، فقالت : « لقد اشتريته من القاهرة أمس ! » .. فوضع الصندوق على المنضدة ، ثم مضى يقول : « ولقد قال ايزاكسون كذلك أنه على الرغم من ذلك الخطاب ، فقد حضر فى تلك الليلة ،وسمعنا ونحن نتحدث فى الشرفة ، وسمعنى أقول أننى اتمنى لو أنه كان موجودا فى مصر ! »

* * *

• **وتمهل** نيجل ثانية .. اذ كانت القصة التى يرويها قد أيقظت شيئا فى ذهنه ثم قال : « لماذا لم تخبرينى وقتئذ بأنك كنت تعلمين بوجوده فى مصر ؟ »

فلم تفعل أكثر من أن ترفع حاجبيها الى أعلى .. كان الاستخفاف قد بدا يطغى فى اعماقها شيئا فشيئا .. وكان يمتزج به احساس غريب قوى بالقضاء والقدر !

— هل كان ذلك لانك كنت تكرهين ايزاكسون كرها شديدا؟

— هكذا كان الامر !

— ولكن .. ولكنك قلت بعد ذلك ، عندما كان معى ، انك انت التى احضرته !.. قلت انك التقيت به فى المعبد فرجوته ان يحضر ليرانى .. اننى اذكر ذلك تماما !

ـ حقا ؟!

وكان يخيل اليها ان القدر هو الذى يحرك شفتيها ، وانههو الذى كان يلقنها كل كلمة تقولها !

ـ نعم .. فلماذا حدث ذلك ؟.. لماذا قلت ذلك ؟

ـ أننى لا أذكر !

ـ أنت لا تذكرين ؟!

وعندئذ نهض من مقعده فى بطء ، ثم قال: « على ان اعجب شيء قاله ايزاكسون هو هذا » ، ووضع يده على ظهر مقعدها ثم مال قليلا الى الامام نحوها ، وقال مستطردا : « لقد ذكر انه ارغمك اخيرا على السماح لهبالعناية بى كطبيبعن طريق.. عن طريق تهديده اياك ! » .. فهتفت : « آه ! »

ـ لقد هددك بأنه سيدعو البوليس ، اذا انت اصررت على الرفض !

فلم تنبس ببنت شفة .. كان كل ما يقوله يتدفق أمامها أشبه بالمياه الجارية .. لم يكن يعنى بالنسبة اليها أكثر من مجرد مياه جارية .. ولقد كان من الواضح انها قد كافحت وناضلت طويلا .. وكان انتقام الطبيعة منها ممثلا فى هذا الاستخفاف المروع الذى تملكها بعد كل ما مر بها من فزع ، ومن كفاح ، ومن صبر مكظوم يائس !

ـ روبى !

ـ ...

ـ روبى !

واذ ذاك تطلعت اليه قائلة : « نعم .. ماذا هناك ؟ »

ـ انك لا تقولين شيئا !

ـ ولماذا ينبغى أن أقول اى شيء .. ما الذى تريد منى أن اقوله ؟

ـ اريد ؟.. اننى .. ولكن ..

ثم انحنى فوقها ، واستطرد : « ما أراك تظنين . . انالظنون

لا تراودك بأننى ..؟ »

وامسك عن الكلام ، فهتفت وكأنها تستحثه : « ماذا ؟ »

ـ لقد اخبرتك بكل هذا لاثبت لك ثقتى الكاملة بك .. لم اخبرك به الا لكى لا يكون بيننا أى شىء !.. حتى لا يقف بيننا أى ظل من الظلال ، كما يحتمل ان يحدث اذا اخفيت هـذا الامر عنك !

ـ آه !

ـ واذا كانت هناك أمور لا أفهمها ، وهى امور تافهة بالنسبة لعلاقتنا ، فانى اعلم انك سوف توضحينها لى . اليس كذلك؟

ـ ليس الليلة !.. اننى لا استطيع ان اوضح شيئا الليلة !

ـ كلا .. فأنت متعبة .. غدا .. غدا !

فعادت تغمغم : « آه ! »

وعندئذ مال فوقها ثم أمسك بيديها ، وهتف قائلا : « تعالى معى الى الطابق العلوى.. تعالى! » فنهضت من مقعدها، بينما كان ماضيا فى تضرعه: « تعالى.. سأثبت لك !.. سأثبت لك! »

وكان فى هيئته ومسلكه نوع من القنوط ، والالم الحاد اللاذع .. كان يحاول أن يجذبها نحو المنزل .. ولكنها كانت تقاومه !.. وهتف بها : « روبى ! » .. فصاحت : « لن آتى معك ! »

فوقف ساكنا ،ثم عاد يقول وقد تبدلت نبراته: «روبى!» .. فعادت بدورها تصيح : «لن آتى معك!» .. واذ ذاك اشتدت برودة يديه وهما فوق يديها .. وما لبث أن تركهما ،فسقطتا الى جانبيها ..

وعندئذ قالت : «اذن فأنت لم تصدق ماقاله لك ايزاكسون؟»

كانت الفكرة الوحيدة التى تملكتها تقول لها : « لسوف اجعله يهبنى حريتى !.. لسوف أجعله يهبنى حريتى، وبذلك يضطر بارودى الى الاحتفاظ بى ! ». وصاح نيجل: « ماذا ؟» فعادت تقول :« اذن فأنت لم تصدق ما قاله لك ايزاكسون؟!»

— أصدقه ؟.. لقد طردته !

— أيها الغبى الابله !

ثم خطت مقتربة منه ، وعادت تقول : « **أيها الغبى الابله !.. ان ذلك صحيح كل الصحة !** »

ثم اختطفت الصندوق المذهب من فوق المنضدة ، ولكنه انتزعه من بين يديها .. وراح يهمس وقد غدت شفتاه فى مثل بياض الثلج :

— من ؟.. من ؟

— **محمود بارودي !**

فسقط الصندوق من يده فوق أرض الشرفة ، وتناثرت منه معدات زينتها التى كان يبغضها دائما !

* * *

• **واستدارت** فى عجلة، وهى تحكم وضع المعطف حولها ،ثم انطلقت تعدو نحو ضفة النيل .. وهتفت: «ابراهيم !ابراهيم» . فواتاها صوته : « سيدتى ! »

وأقبل عليها ابراهيم فى خطوات واسعة ، فصاحت: «هيا .. خذ بيدى !. ساعدنى !.. اسرع ! »

وكانت تكاد تلقى بنفسها من فوق ضفة النهر ، وهى تهتف: « أين القارب ؟.. آه ! »

فقد تعثرت وهى تخطو الى القارب ، حتى كادت تسقط بداخله ، وصاحت فى لهفة : « هيا .. ادفعه بعيدا ! »

ثم جلست منتصبة الظهر فوق المقعد الضيق الصلب وراحت تحدق فى اضواء اللولية ، وما لبثت ان قالت لاهثة بعد دقيقة: « هناك فتاة على السطح ! »

— نعم يا سيدتى .. فتاة واحدة !.. ولست ادرى ما اذا كان محمود بارودى سيسر لذهابنا الآن ..

— ابراهيم ؟

ـ سيدتى !

ـ عليك أن تنصرف بمجرد أن أصعد الى ظهر اللولية .. خذ القارب وعد به الى الاقصر !

ـ وهل اتركك ؟

ولكنه كان يبدو مرتاحا الى ذلك !.. اما هى فقد اجابت : « نعم .. اننى .. سأعود فى « فلوكة بارودى ! »

ـ اننى على استعداد لانتظارك حتى .. حتى تستعدى للعودة

ـ كلا ، كلا .. لست اريد ذلك .. عدنى بأنك ستعود بالقارب الى الاقصر على الفور

فغمغم يقول : « ان كل ما تريدينه سيكون لك ! »

ـ ما أشد ارتفاع صوت الملاحين فى غنائهم !

وكانا قد أصبحا قريبين من اللولية ، فراحت مسز أرماين تحملق بعينين ضاريتين الى نوافذ القمرات المضيئة ، والى السطح العلوى ، والى الشرفة التى كانت فى المؤخرة ، حيث طالما جلست مع نيجل .. **كانت تتلظى بنيران اللهفة والاشتياق، وكانت فريسة انفعال عظيم جعلها تنسى تعبها الجسمانى ، وتنسى كل شيء الا أنها قد أصبحت ـ أخيرا ـ دانية من بارودى !.. كان زوجها قداختفى من الوجود بالنسبة اليها.. لقد ذهب الى الأبد ، ذهب مع الماضى كله !.. لم يعد يفرق بينهما النهر فحسب ، وانما أصبح يفرق بينهما خليج عظيم لايمكن ان يعلوه جسر قط ، ولا سبيل الى اجتيازه فى يوم من الأيام !**

« بارودى !.. بارودى !.. بارودى ! »

لقد غدا بوسعها اخيرا ان تكون لبارودى ، جهرة ! .. ونسيت فى تلك اللحظة كل شيء ، حتى نفسها !.. نسيت أن تفكر حتى فى هيئتها !.. كانت فى اعماقها امرأة تستطيع أن تجيد تحسس طريقها ، وكانت هذه المرأة تفرض نفسها عليها الآن !

ولمس القارب جانب اللولية ، فظهر أحد النوبيين ، وتوقف الغناء على ظهر الدهبية بغتة .. وبادرت مسز ارماين الى الوقوف فى القارب، وقالت: «أذهب الى الاقصر يا ابراهيم» !.. اذهب فى الحال ! »

ــ سأذهب سريعا يا سيدتى !

وقفزت الى سطح الدهبية، ثم وقفت ترقبه وهو ينصرف.. وظلت كذلك حتى تضاءل القارب فوق المياه المعتمة، فاستدارت على عقبيها .. وعندئذ وجدت نفسها أمام حمزة وجها لوجه!..

فهتفت مرتاعة : « حمزة ! »

كانت عيناه الشبيهتان بثمرة اللوز ترمقانها ، فخيل اليها انها ترى فيهما نوعا من الوعيد !.. وأحست فى تلك اللحظة ــ حتى وهى فى غمرة انفعالها المتأجج ــ كأنما مسها شىء شديد البرودة .. شىء فى برودة الخوف !

وما لبث حمزة ان قال : « نعم ؟! »

ــ يجب أن أرى محمود بارودى !

ولكنه لم يتحرك . . ولم يتبدل شىء من تعبيرات وجهه وعينيه .. وكان النوبيون يجلسون القرفصاء فى حلقة لاتبعد عنهما كثيرا ، وهم ينظرون اليها فى هدوء، كما تنظر الحيوانات الى شىء طالما رأته من قبل !

وعادت تقول : « أين هو ؟.. أين هو ؟ »

وما لبثت أن اندفعت بغتة تهبط الدرج، مارة تحت الحروف العربية المذهبة، ثم مضت قدما نحو حجرة الاستقبال الأولى.. وكانت الغرفة مضاءة ، ولكن أحدا لم يكن بها ، فانطلقت تعدو فى الدهليز ، وهى تجذب الستار البرتقالية اللون، ثم اندفعت الى حجرة « الفسقية » !

وكان بارودى جالسا القرفصاء فوق الأريكة ، مرتديا ثيابا وطنية: الجلابية والطاقية.. وقد ثنى ساقيه تحته، واستغرق فى تدخين الحشيش، محملقا فى الكرة المذهبة وهى تعلو وتهبط

فوق الماء !.. وعلى مقربة منه كانت تضطجع فتاة شرقية ، وقد أحاطت بها الوسائد تسندها !.. كانت تبدو فى مقتبل العمر ، ولعلها كانت فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة ..
وكان وجهها مليئا بالطلاء ، وعيناها مظللتين بالكحل، على حين كانت أظافر يديها وقدميها مصبوغتين بالحناء .. وكانت ترتدى «الشنتيان» وقميصا من طراز خاص ـ يدعى «التوب» ـ وقد صنعا من حرير رقيق شفاف ، ذى ألوان صارخة، مموه بـ « الترتر » ! .. وكان حول ذراعيها السمراوين الشاحبين عدد من الأساور الضيقة .. وكانت ـ هى الأخرى ـ تدخن غليونا صغيرا ذا مبسم من المرجان !

ووقفت مسز أرماين على باب الحجرة جامدة بلا حراك ، وراحت تنظر الى الفتاة .. وعندئذ .. عندئذ فقط ، تذكرت ـ فى جزع وذعر ـ هيئتها هى !

وهتفت قائلة : « بارودى !.. بارودى ! »

ولم يجب بارودى ، وانما راح يحملق فيها .. واذ رأت ذلك ، بادرت الى معطفها تفك أزراره بأصابع مرتعدة، ثم تركته يسقط على الأرض !.. وعادت تهتف من جديد : «بارودى!»

ولكن بارودى ظل يحملق فيها .. وكان يمسك بقصبة غليونه باحدى يديه ، وان كان قد كف عن التدخين. واذ ذاك شعرت باليأس يتملكها دفعة واحدة .. بيد أنها سارت الى وسط الحجرة ، وهى تنظر الى الفتاة وتردد : « أطردها خارجا !.. اطردها خارجا ! »

وكانت تتكلم بالفرنسية . . فأجابها بالفرنسية أيضا : « ولماذا ؟ »

ـ لقد تركت زوجى.. وتركت الفيللا.. ولم يعد فى وسعى أن أعود اليهما قط !

فقال وهو لايزال يحملق فيها : « ولم لا ؟ »

ودفع رأسه الى الوراء ، فبدا عنقه الضخم من بين ثنيات

الوشاح الحريرى الذى كان يتدلى فوق صدره القوى.. وهتفت المرأة: « انه يعلم ! »

— يعلم ؟!.. ومن الذى أخبره ؟

— أنا التى أخبرته !

فلما نظر اليها شعرت بالبرودة تسرى فى بدنها كأنما غمرت فى ماء مثلج .. وسألها: « هل أخبرته عنى ؟ »

— لم أقل له كل شىء عنك .. ولكنه يعلم اننى .. اننى قد تسببت فى .. مرضه !.. واننى كنت راغبة فى موته !.. لقد أخبرته بذلك لأننى كنت أريد ان أتخلص منه .. كان ينبغى ان أتخلص منه حتى اكون معك !

وانبعث رنين الأساور على ذراعى الفتاة الشرقية عندما تحركت فى مجلسها خلف مسز ارماين .. فعادت هذه تصيح: « أطردها الى الخارج .. اطردها الى الخارج ! »

— حمزة !

وكان بارودى قد نطق بهذا النداء ، دون ان يرفع صوته ، ومع ذلك فان حمزة ظهر عند الباب للتو !.. فأخذ بارودى يخاطبه بالعربية فى سرعة .. وكانت الكلمات تتدفق من حلقه فى قوة تشبه الغضب ، كما تبدو اللهجة العربية عادة لأولئك القادمين من العالم الغربى !.. ترى ماذا كانت تعنى هذه الكلمات ؟.. لم يكن بوسع مسز أرماين ان تدرى . . ولكنها ادركت عن يقين ان مصيرها كان معلقا بها !

ولم يقل حمزة شيئا ، الا أنه أشار اليها أن تتبعه.. ولكنها وقفت جامدة بلا حراك .. ثم قالت: «بارودى!» .. فقال لها بالفرنسية: « اذهبى مع حمزة ! » .. فمضت دون أن تضيف كلمة أخرى ، وسارت على مشهد من الفتاة، حتى خرجت من الحجرة !

وطلب اليها حمزة — باشارة من يده — ان تتقدم أمامه ، فراحت تسير فى الدهليز فى بطء وتمهل ، حتى بلغت حجرة

الاستقبال الأولى .. وعندئذ ترددت قليلا ثم التفتت خلفها ، فأشاراليها حمزة أن تستمر .. ومرت من تحت شعاراللولية، للمرة الأخيرة !.. فلما بلغت سطح الدهبية وقفت تنتظر !

وكانت « الفلوكة » الصغيرة مربوطة الى جانب اللولية ، فأمسك حمزة بذراع مسز ارماين .. **وعلى الرغم من أن يده كنت صغيرة لينة ، الا أنها بدت لها - اذ ذاك - وكأنها قبضة من حديد لاتستطيع منها فكاكا !.. ونزلت الى القارب .. ترى الى أين يأخذونها ؟.. وخطر لها عندئذ ان بارودى قد دبر خطة معينة ، وانه لم يشأ ابقاءها فى الدهبية ، وقد يكون له منزل آخر فى الاقصر .. أو .. أو لعلها ذاهبة الى فيللا « ليلة الذهب » ؟.. أيكون حمزة ذاهبا بها الى هناك فى ظلام الليل ؟**

وجلس حمزة ، ثم امسك بالمجدافين ، ودفع القارب بعيدا نعم .. لقد كان يجذف نحو الجنوب ، ضد التيار !.. وعندئذ انبثق فى أعماقها أمل وحشى !

وتضاءلت أضواء اللولية.. وكان حمزة ماضيا فى التجذيف ضد التيار،ولكنها لاحظت ان «الفلوكة» كانت تتجه الى وسط النيل .. وكان التيار شديدا قويا ، فلم تكن «الفلوكة» تتقدم الا قليلا ، أو لعلها لم تكن تتقدم على الاطلاق .. وتاقت مسز ارماين الى ان تتناول مجدافا وأن تساعد القارب فى رحلته الى الجنوب !.. ولكن الشاطىء الشرقى للنهر كان يزداد وضوحا، وهو ينبلج وسط الظلمات!.. **كان يبدو كما لو أنه كان يقترب نحوهما ، ويسترق الخطى دانيا منهما !.. وما لبثت ان رأت أنوار « فيللا أندرود » الى جوارها !**

وغمغمت قائلة : « حمزة !.. حمزة ! »

ولكنه ظل يجذف فى صمت ، وقد وهنت قواه وبدا عليه الاعياء .. انهما ما كانا ليستطيعان المضى ضد التيار الا اذا هو ضاعف من قوته فى التجذيف . لماذا لم يصحبا اثنين من

النوبيين معهما ؟

وتلاشت انوار الفيللا ... كانت قد اختفت وراء الضفة العالية المنحدرة.. فصاحت مسز ارماين: «حمزة !.. حمزة!»

ولكنها أحست بصدمة خفيفة ، اذ مست « الفلوكة » قاع المياه الضحلة القريبة من الشاطىء.. وخطا حمزة الى الشاطىء فى هدوء ، وبتلك الرصانة والدقة اللتين كان يتميز بهما ، ثم أشار اليها أن تصعد وراءه !

وكانت موقنة ، من انها غير راغبة فى الصعود ، ولكنها مع ذلك ــ صعدت على التو ..

وما كادت تقف فوق الرمال ــ بالقرب من دغلة الشجيرات المنخفضة ــ حتى دفع حمزة الفلوكة الى النهر، وهو يقفز الى داخلها فى الوقت نفسه، ومضى يجذف متوغلا فى المياه المظلمة!.

وراحت تنادى : « حمزة ! » ..

ثم اندفعت تصرخ كالمجنونة : « حمزة !.. حمزة ! »

وكان القارب يشق طريقه فى النهر ثابتا ، سريعا ، حتى اختفى !

* * *

• **بعد** زهاء ساعة ، ظهرت عند حافة حديقة « فيللا اندرود » امرأة تمشى مترنحة ، فى بطء شديد كالمأخوذة .. وراحت تشق طريقها خلال الحديقة، وتدنو من الشرفة حيث كانت الأنوار تنبعث من حجرة الجلوس خلفها ، خلال الباب الطويل المفتوح .. فلما حاذت الشرفة ، وقفت جامدة مكانها وراحت تتطلع الى داخل الحجرة !

ورأت نيجل يجلس القرفصاء على احدى الأرائك ، وقد وضع مرفقيه فوق ركبتيه واخفى وجهه بين يديه .. كان وحده ، وكان يجلس ساكنا بلا حراك !

فوقفت لحظة تحدق فيه.. وما لبثت ــ أخيرا ــ ان تحركت،

وصعدت الى الشرفة ، وكأنما استقر رأيها على امر معين !

وفى اللحظة التى كانت تخطو فيهـا الى الشرفة ، فتح باب حجرة الجلوس ، ودخل ابراهيم وهو يبـدو مبهور الانفاس مرتاعا !

وكان خلفه .. ماير ايزاكسون !

ووقفت المرأة على الشرفة جامدة لاتتحرك .

ولبث ابراهيم واقفـا بجوار الباب . . ولم يتحرك نيجل قط، فتقدم ماير ايزاكسون مسرعا الى داخل الحجرة، وكأنما كان ذاهبا الى نيجل .. ولـكنه عندما بلغ وسـط الحجرة ، بدا وكأنما روعه شيء ما ، فوقف فى مكانه دفعـة واحدة ، ثم تلفت نحو الباب المفتوح فى تسـاؤل ، وما لبث ان سار نحو الشرفة .. ولكنه وقف ثانية فى مدخلها .. فقد رأى المرأة !

وظل ينظر اليها لحظة ، كما كانت تنظر اليه بدورها !

وعندئذ تقدم الى الأمام وأعمـل يديه فى سرعة ، فأمسـك بمصراعى البـاب اللذين كانا مرتكزين على جـدار المنزل ، ثم جذبهما نحوه الى الداخل .. فالتقيا فى ارتطام حاد ، وحجبا الغرفة عن عينى المرأة المحملقتين !

ولم تنتظر المرأة بعد ذلك شيئا ، اذ أدركت ان هذه اشارة النهاية .. نهاية المأساة ! .. فأسرعت تشق طريقها الى بوابة الحديقة، وتندفع منها الى الطريق المهجورة وراءها، ثم تختفى بين أطواء الظـلام .. وانطلقت على غير هدى ، متجهـة نحو التلال البعيدة التى تحمى صحراء العرب !

« تمت القصة »

المفاجأة المنتظرة لمطبوعات كتابي!

أيها القارئ العزيز.. منذ صدرت سلسلة "مطبوعات كتابي" وهى تحاول تذليل العقبات التى تقف بينها وبين إصدار عدد من الشوامخ الكبرى فى الأدب العالمى، التى تحلم بقراءتها بنصها الكامل منذ زمن بعيد.. ويسر "مطبوعات كتابي" أن تزف إليك اليوم بشرى تذليل الكثير من تلك العقبات، بحيث سيكون فى مقدورها - فى القريب العاجل - أن تقدم لك النص الكامل لسلسلة من الأعمال الأدبية الضخمة التى ينتظرها قراء العربية منذ أمد طويل!

ترقب التفصيلات فى العدد القادم

ملحوظة: إذا كان قد فاتك الحصول على نسختك من الجزءين السابقين من قصة "بيلاّ دونا" أو أحدهما، فلا تهمل فى اقتناء هذا الجزء الأخير، واطلب ما فاتك من إدارة كتابي (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) قبل نفاده

